

الفصل التمهيدي

ويحتوي هذا الفصل على:

المقدمة

إشكالية البحث

أسئلة البحث

أهمية البحث

أهداف البحث

سبب إختار الموضوع

منهجية البحث

الدراسة السابقة

الفصل التمهيدي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد العربي الذي بعثه الله هدى ورحمة للعالمين، سيد الخلائق وأشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه وخلفائه الطيبين الطاهرين والوارثين المهديين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،

فإن الشيخ أشرف علي تهاونوي رَحِمَهُ اللهُ كان من صفوف هؤلاء الربانيين الذين بذلوا جهودهم المنورة في إحياء السنة، وكان من هؤلاء الرجال الذين تركوا في مآثرهم ثروة عظيمة للتراث الإسلامي، وقد انجز رَحِمَهُ اللهُ الأعمال العلمية الهائلة ما يندر مثالها بين رجال المسلمين، حتى صار أكثر تأليفا في شعبه بلا نزاع. فهذه الشخصية له دور كبير في إصلاح بيئته الهندية بضوء القرآن والسنة، فبذل جهده الكبير في إصلاح العادات والتقاليد والرسوم القديمة.

ففي المجال العلمي أنه ترك في مآثره الخالدة ثروة عظيمة من الرسائل والكتب والمجلدات التي تشتمل مختلفا من أبواب العلوم الإسلامية من الفقه والتصوف والأخلاق والعقيدة، فطال جهده في التأليفات غاية الحد، حتى يبلغ عدد تأليفاته حوالي ألف مؤلفا ما بين كبير وصغير^١، فصار آية من آيات الله في هذا الجانب، ولم يصل أي أقرانه إلى حد هذا الجهد، وهذا هو مشهور بين العلماء بأنه أعظم مؤلفاً في عصره رَحِمَهُ اللهُ بين علماء شعبه، فلذلك لُقِّبَ بـ"بحكيم الأمة"، وحق له أن يلقب بهذا اللقب المنير.

وأما في المجال العملي ونشاطه الاصلاحى قد ترك الخدمات غير وافية، وكانت مجالسه ومواعظه وأسفاره أفادت شعبه بشكل عظيم في إصلاح العقيدة والعمل، فاستفاد منها آلاف من المسلمين، ولا تزال مجالسه ومواعظه ونصائحه تتميز باستقامة الفكر وغزارة المعاني وقوة الحجج والتحليل العلمي الرصين، من أجل ذلك بعض أتباعه قد اهتم على حفظها في بطون الكتب والمجلدات، التي صارت الآن مرجعا علميا، يستفيد منها المحدثون والفقهاء والمفكرون والزعماء في هذه المنطقة ومجاورتها، ولا تزال حركته الإصلاحية والتجديدية تنير الطريق للعلماء والزعماء والمصلحين والمتقنين والحركات الإسلامية منذ عصره حتى اليوم.

^١ أنظر: غياث الدين أحمد (ط ٢، ٢٠٠٦م) أشرف جوريت. دكا: مكتبة الأشرف، ص ٥٣٠.

فمن أعماله الخالدة، أنه ﷺ قد مزج بقلمه بين الحديث والتصوف بعد صراع شديد دام بين أصحابهما قروناً طويلة، ففي هذه النسبة، أنه قد جمع الآيات والأحاديث المؤيدة في جميع أبواب التصوف الإسلامي وسلك فيه طريق الاعتدال والتوسط، وبدأ أن يُطلِّع جميع الدعوى الباطلة متلونة بالافراط والتفريط بتأليفاته العديدة، وأثبت خلال هذه التأليفات بأن التصوف مع جميع أبوابه ثابت بالدلائل الشرعية، فالحديث والتصوف مكتملان بعضه بعضاً.

ومن هنا في أوّل وهلة قد كتب كتابين، الأول بإسم "مسائل السلوك من كلام ملك الملوك"، والثاني بإسم "تأييد الحقيقة بالآيات العتيقة"، خلال هذين الكتابين أنه أيد مسائل التصوف بآيات القرآنية جزءاً جزءاً، واستنبط منها كثيراً من مسائل التصوف.

ثم جاء بالدور الثاني في شرح هذه الآيات القرآنية بالأحاديث الشريفة، ففي هذا الجانب قد كتب كتاباً مشهوراً، بإسم "التشرف بمعرفة أحاديث التصوف"، وحقّق خلاله الأحاديث المتوفرة في كتب المتصوفين، فبين درجة هذه الأحاديث قوة وضعفاً، وكذلك كشف الغطاء عن بعض الأحاديث الموضوعية في هذا الباب التي أشتهرت على ألسنة المتصوفين و لكنّها في الحقيقة لا أصل لها.

ثم جاء بالدور الأخير في جمع الأحاديث الجديدة غير مشهورة في هذا الباب، ولم يستدل بها علماء المتصوفين على هذا الموضوع من قبل، فأثبت بها كثيراً من جزئيات التصوف، فأتم هذا الجهد بإسم "حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة".

إنه شرف وسعادة لي أن أكتب رسالة في هذه العبقريّة الجليلة وخدمته المشكورة خلال رسالته "حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة" رغم قصور علمي ومعرفتي في هذا الموضوع الذي من أهم متطلبات هذا عصرنا الحاضر، وإني وجدّتي سعيداً عندما اخترت هذا الموضوع لكتابة البحث في مرحلة الماجستير.

فأطلب من الله التوفيق والسداد لتكميل هذا البحث. إنه سميع مجيب. وأسأل الله أن يجعل عملي هذا خالصة لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ظل إلا ظله ويوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

إشكالية البحث:

إن السنة النبوية هي نموذج عملي لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي يُبَيِّن فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان على مستوى الفرد والمجتمع، قال الله تبارك وتعالى: "وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم". والمحدثون قد حاولوا قدر استطاعتهم على حفظها وتبليغها وتنفيذها في حياتهم العلمي والعملية عبر العصور. وكان حكيم الأمة أشرف علي تهاونوي (رحمه الله) من هؤلاء المحدثين البارزين الذين بذلوا طول حياتهم في خدمة الدين على النهج النبوي وفق مذهبهم الاعتدالي بكل ما رزقهم الله من عقل ونفاذ وبصيرة، ولكن هذا الفحل الهندي يمتاز بخدماته التي تفقد عن أعين طلاب الحديث وعلمائه، ومن أهم خدماته هي جهوده في الترابط بين الحديث و التصوف بعد الصراع الشديد بين رجاهما في العالم كلها عامة، وفي الهند خاصة، فأراد الباحث بإبراز هذه الشخصية مع خدمته الجليلة التي يتميز بها بين علماء المسلمين، وذلك خلال كتابه المشهور "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" من حيث إثباته أن التصوف ثابت بالسنة، و"الطريقة الصوفية" قائمة على الأحاديث، ونشاطهم مستقيم على اتباع النهج النبوي، ولو كان الناس مختلفين حول هذا الموضوع عبر العصور.

فكتابه يشتمل على ثلاث مائة وثلاثين حديثاً، وهذه الأحاديث ولو ذكر الشيخ مخرجها اعتماداً على كتاب مشهور في زمنه "تيسير الوصول" إلا أن كثيراً من أحاديثها لا تدرى صحة المراجع المشار إليها، ولا توجد فيما دلّ إما كلياً وإما جزئياً. وكذلك أنه لم يتعرّض لبيان درجاتها، وكذلك المصنف رحمه الله لم يذكر آراء المحدثين والمتصوفين من شروحاتهم لهذه الأحاديث بل إنما اكتفى برأيه في هذا السبيل مما جعل الباحث يرى أن هذا الكتاب يستحق أن يدرس دراسة علمية، وأن يجعل موضوع بحثه التكميلي لنيل درجة الماجستير في قسم دراسات القرآن والحديث، وذلك بالتركيز على إبراز حقيقة الترابط بين التصوف والحديث بإقامة الصلة بين أبواب التصوف وبعض الأحاديث المختارة من هذا الكتاب، استناداً على أقوال العلماء من المحدثين والمتصوفين في شرح

هذه الأحاديث تقريبا بين آرائهم، مع تخريج هذه الأحاديث ومعرفة درجاتها، وكذلك معرفة مدى صلاحية الاستدلال بها على مسائل التصوف والسلوك، فمن هنا سوف يقوم هذا البحث بالإجابة عن الأسئلة الآتية.

أسئلة البحث:

- ١- من هو الشيخ أشرف علي التهانوي و مكانته بين علماء الهند؟
- ٢- كيف كانت مآثره العلمية و حركاته التجديدية والإصلاحية في التصوف و المجتمع الهندي؟
- ٣- ما هو الكتاب " حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" ؟
- ٤- هل هناك العلاقة بين التصوف و الحديث ؟
- ٥- ما مصادر الأحاديث المذكورة فيها و درجاتها من حيث القوة والضعف؟
- ٦- ما مدى صلاحية استدلال الشيخ بتلك الأحاديث في مجال التصوف؟

أهمية البحث:

هذا البحث هو محاولة إبراز عبقرية حكيم الأمة أشرف علي تهانوي رَحِمَهُ اللهُ أَمَامَ طلبة الحديث وإظهار دوره وجهده في الترابط والعلاقة بين التصوف الإسلامي والحديث النبوي، وإبراز مكانة كتابه "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" في هذا المجال، وتظهر أهمية البحث أيضا، أنه لم تسبق دراسة هذا الموضوع بهذا الشكل فيما أعلم وفيما أحبرت، أعني لم يفرد له رسالة جامعية أو بحث مستقل على جهوده في الترابط بين التصوف والحديث وأهمية كتابه "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" في هذه النسبة.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى :

- ١- التعريف بالشيخ التهانوي و مكانته بين علماء الهند.
- ٢- إبراز مآثره العلمية وحركاته التجديدية والإصلاحية في التصوف والمجتمع الهندي.
- ٣- التعريف عن الكتاب " حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة".
- ٤- توضيح العلاقة بين التصوف والحديث.
- ٥- معرفة مصادر أحاديث ودرجاتها من حيث القوة والضعف.
- ٦- مدى صلاحية استدلال الشيخ بتلك الأحاديث في مجال التصوف.

سبب اختيار الموضوع:

ظهر للباحث أن العصر الحاضر قد اشتد فيه الصراع بين المنتسبين بالتصوف والمسمين أنفسهم بأهل الحديث، وهذا النزاع منتشر بين المسلمين عالما وعواما، فابتعد الناس عن الحق المستقيم المعتدل المتوسط، وغريبا لما يكفر بعضهم بعضا من غير مخافة الله، ولكن الحق هو الوسطية والاعتدال بين هذين السيلين، لأن وسطية المنهج من أهم الميزات لهذه الأمة، كما يقول ربنا تبارك وتعالى في كلامه: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... الآية"^٢ فكان الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ نَمُودَجَا حيا في هذا السبيل بحياته العلمية والعملية، وجهوده غير متناهية في هذا المجال، وتصانيفه خير دال على هذا، خاصة كتابه المشهور "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" نموذج مضيء في هذه الغاية، من أجل ذلك اختار الباحث هذا الموضوع راجيا ومتمنيا من الله تبارك وتعالى أن يكون هذا السعي من قبيل الدعوة إلى الحق المستقيم والمعتدل بين التصوف والحديث، وقصدا على إبراز هذه الشخصية في صفوف النبلاء الذين لهم مكانة سامية في كتب عربية وتاريخ الإسلام.

^٢ البقرة، الآية ١٤٣.

منهجية البحث:

تتلخص المنهجية التي يقوم عليها هذا البحث في التالي:

(١) المنهج الاستقرائي: وذلك بأن يقوم الباحثُ باستقراء الأقوال من الكتب المصنفة المتعلقة بشخصية الشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ و جهوده في تجديد شئون المتصوفين وتصليح عقائدهم.

ثم يستقرئ الباحث من خلال بحثه بعض أحاديث المختارة من كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، حتى يتيسر له أن يوضح جانب الترابط بين الحديث والتصوف.

(٢) والمنهج التحليلي: وذلك لمحاولة إبراز حجية الأحاديث الشريفة الموجودة في هذا الكتاب بضم آراء المحدثين والمتصوفين، ثم البيان عن درجة الحديث مع تركيز حكم المحدثين على هذه الأحاديث الشريفة.

(٣) المنهج المقارن: وذلك لمحاولة التوفيق والتقريب بين أفكار الشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وأفكار عامة المحدثين في بعض المسائل الصوفية.

الدراسات السابقة:

رغم شهرته وسمعته في مجال شتى من أبواب العلوم إلا أنه لم تصدر أي رسالة جامعية تبحث عن حركاته التجديدية والإصلاحية، ووسطية منهجه في خدمة الدين، حيث أنه كان نموذجاً حياً في اتباع مسلك مستقيم بين الحديث والتصوف مستصحبا بمنهج الاعتدال من غير ميوله إلى التعصب والاعتداء، فلم يجد الباحث من خلال بحثه الدؤوب أحداً قد كتب كتابة وافية أو بحثاً مستقلاً في وسطية مذهبه، وخاصة لم يجد أحداً يبحث عن دوره في الترابط بين التصوف والحديث، إلا هناك بحثاً مستحدثاً صدر في سنة ٢٠٠٧م في نيل الشهادة الجامعية في مرحلة الماجستير من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الباحث أخونا الموقر محمد زهر الدين بن ناوي، بإسم "أحاديث رسالة "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" دراسة تحليلية نقدية"^٣ وفي الحقيقة هذا البحث كان في تخرج بعض أحاديث الرسالة "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" والحكم عليها باختصار، ولم يتطرق إلى

^٣ زهر الدين بن ناوي (٢٠٠٧م) أحاديث رسالة "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" دراسة تحليلية نقدية. رسالة

ماجستير، كوالامبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

شرح الحديث وتوضيح المعاني إلا بحد قصير، الذي لم يكن في غاية إبراز الترابط بين التصوف والحديث أو بإبانة جهود الشيخ في نشر منهجه الاعتدالي والوسطي.

فكان البحث يشتمل على خمسة فصول، بدأ بالفصل الأول في الاتمهيد، والثاني يتكون على مبحثين، المبحث الأول في ذكر حياة قصيرة لحكيم الأمة أشرف على التهانوي قطع النظر عن تفصيل حركاته التجديدية والإصلاحية وجهوده في تنفيذ منهجه الوسطي في كل شئون من حياة المسلمين في الديار الهندية، فلم يقدم بتحقيق أهم ميزاته البارزة التي يتميز بها هذه العقريّة بين أقرانه ومعاصريه. والفصل الثاني في تعريف الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" وذلك في تعيين تسميتها ووصف نسخها، وبعض منهج تأليفها، وهذا كذلك بالاختصار الشديد.

وأما الفصول الأخرى في جمع كثير من الأحاديث المذكورة على وفق أبواب التصوف في هذا الكتاب: "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، يبلغ عددها حوالي مائة وسبعة وتسعين حديثاً، ثم مال إلى معالجة تخريجها الإجمالي، والحل البياني بالاختصار الشديد ملخصاً من أقوال الشيخ التهانوي من غير توضيح الأمر، ولعل ذلك بأن مجال البحث لم يتيح له الفرصة للاطناب والتفصيل.

فهذا البحث الوحيد الذي وجدته الباحث بحثاً جامعياً يبحث عن شخصية حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله ورسالته (حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة) ولكنه باختصار شديد الذي لا يغني عن الهدف أو الغاية تماماً. مع ذلك أن الباحث قد استفاد منه في بعض النواحي من بحثه فأحياناً في تخريج الأحاديث والحكم عليها، وأحياناً في التحليل البياني ولكنها في حد قصير، لأن وجهة النظر للباحث لاتساويه بل تغائره تماماً، فهذا في تثبيت فكرة التوسط للشيخ التهانوي وإبرازه الترابط بين الحديث والتصوف خلال كتابه "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، وذلك في الدراسة التحليلية والنقدية يبحث عن تخريج الحديث والتحليل البياني بنظر النقد.

وإلا أن الباحث قد استفاد منها في بعض نواحي من بحثه، وخصوصاً فيما يتعلق في شخصية التهانوي رَحْمَتُهُ، وكذلك في شرح الحديث، وأحياناً في تخريجه أيضاً.

وتوجد كثير من التصنيفات العلمية من غير الدراسات الجامعية التي تناولت هذا البحث بصورة عامة، التي صنفت لغاية إبراز شخصيته رَحْمَتُهُ في شتى المجال من العلوم، وبعضها قريبة الموضوع، ملتصقة الهدف من خدماته، وحركاته التجديدية في المجتمع الإسلامي وتزكيته وصلاحه وغير ذلك

من نشاطاته العلمية والتجديدية. ولكن رغم استعابها بالمعلومات الوافية من حياة الشيخ التهانوي، إلا أن هذه كلها لم تفيد عن دوره وجهده في الترابط بين التصوف والحديث مستقلاً. وإلا أن الباحث قد إستفاد من هذه الكتب في شتي الجوانب من بحثه، وخصوصاً فيما يتعلق بشخصيته العلمية، وخدماته الدينية، وحركاته التجديدية في السلوك والإحسان وما إلى ذلك.

الفصل الأول: ترجمة أشرف علي التهانوي

ويتضمن هذا الفصل على:

المبحث الأول: تعريفه، وأيام طفولته

المبحث الثاني: لمحة تاريخية لمراكز الدينية ورجالها وتقاليدها في عصره رَحِمَهُ اللهُ

المبحث الثالث: نشأته العلمية، وذكائه الفطرية، وميزاته البارزة

المبحث الرابع : أهم شيوخه وأثرهم العلمي والديني على حياته رَحِمَهُ اللهُ

الفصل الأول: ترجمة أشرف علي التهانوي

المبحث الأول

تعريفه، وأيام طفولته

التعريف به:

هو الشيخ العلامة أشرف علي تهانوي بن المنشي عبد الحق بن الحافظ فيض علي بن غلام فريد شهيد بن جلال بن رحمة الله بن أمانة الله بن عتيق الله الخطيب (الحائز على منصب عال في دولة الإمبراطور المغولي أورنكوزيب عالمكير رحمه الله) ابن الحافظ حبيب الله بن الشيخ آدم بن مولانا محمد جلال الخطيب (صاحب منصب كبير في الإمبراطور الأكبر) ابن صدر جهان (الجد الأعلى للخطيبين) حتى يصل نسبه إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، (ثاني الخلفاء الراشدين المهديين في الإسلام)^٤.

الخلفية عن لقبه المشهور "حكيم الأمة":

جدير بالذكر، أن هذه الشخصية كانت معروفة في بيئته بلقبه المشهور (حكيم الأمة)، وذلك لخدمته القيمة في مجال شتى من العلوم الإسلامية، (خاصة في الفقه والحديث) والوعظ الديني، والتصوف الإسلامي الإعتدالي المحفوظ عن الإفراط والتفريط، وكذلك كان جهده كبير في مجال التربية والتعليم، وتصحيح العقائد الدينية عن التحريف الضال بضوء القرآن والسنة النبوية الشريفة. وذلك لما ولد هذه الشخصية في الهند وجد بيئته مليئة بالفتن من ناحية اعتقادية وسياسية واجتماعية واقتصادية، ومع ذلك كانت هذه الفترة التي أحكم فيها أخطبوط الحكم الإنجليزي قبضته على الهند، والمجتمع الهندي المسلم أصبح ألعوبة في أيدي الإنجليز، وتحت ستور هذه الحكومة الخبيثة قد ترعرع نشاط الاستشراق والتبشير، واشتدت سيطرة رجالهما يوما بيوم على بيئة إسلامية في الهند، وهي في ناحيتين: رجال الاستشراق في مجال التربية من ناحية، ورجال التبشير في مجال اجتماعي وسياسي من ناحية أخرى. والجمهور الصاحب تؤثر فيه الدعايات الكاذبة، فينقاد لما يسمع ويتعلم (في المدارس والجامعات التي أنشأها المستشرقون في الهند) دون وعي وفكر. وفي هذا المناخ

^٤ غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٣٩.

الفاقد الضال قد تناول دور الإنحراف في داخل البيئة الإسلامية، واشتدت جرأة المنافقين والمنحرفين عن الإسلام في تحريف الدين وتضليل الناس عن الإسلام.

ومن هنا قد ظهرت القاديانية، والبيرولوية ومن أمثالهم من الفرق المنحرفة عن الإسلام جعلت تضل سذاجة المسلمين عن دينهم الصحيح. وكذلك اشتد نشاط الفرق الملاحدة بإسم تحرير الأفكار والثورة الفكرية التي بدأت التشويش بين صفوف المسلمين بإثارة أفكارهم الضالة، مع ذلك كانت وسائل التربية الإسلامية قليلة، وذلك بتأثر ظروف القهر والكبت من المستعمرين الظالم، ولكن رغم ذلك كانت الشخصيات النابغة الممتازة تسعى سعيها في نشر الوعي الإسلامي وتصحيح الاتجاه الديني، وكان من أبرز هذه الشخصيات العالم المفكر الإسلامي الشيخ أشرف على تهانوي رَحْمَتُهُ الَّذِي قَامَ بِإِصْلَاحِ النُّفُوسِ، وتزويد الناس بالعلم الديني الصحيح، وتصحيح المسار الإسلامي بمواعظته ومحاضراته وتأليفاته ودروسه التربوية ومجالسته الدينية المفيدة، حتى صدر من هذه الإفادات التربوية الدينية مئات من الكتب، واشتملت هذه الكتب على المواد الدينية والعلمية والتربوية عظيمة، وعلى توجيهات فيها تزكية للنفوس وتزويد علمي مفيد.

وكان سعيه الأكبر هو تصحيح العمل المنحرف عن جاد السنة السننية، وكان هدفه الأكبر لجهوده الإصلاحية والتربوية، حتى أصبحت شخصيته معروفة كل المعرفة في شبه القارة الهندية بعظمة علمه وجهده الديني التربوي، فلقبوه العلماء بحكيم الأمة المحمدية، أي طبيب الأمة، فالحكيم ههنا معناه الطبيب، كما هو المفهوم في هذه الديار[°]، وذلك أن الشيخ كان خبيراً في تحديد أمراض النفسية المنتشرة بين الشعب الهندي من حيث الاعتقادات الجاهلية والأفكار الفاسدة التي مازالت ترعرعت وتزداد عبر العصور في هذه المنطقة، خاصة في الفترة الاستعمارية الخبيثة التي اشتدت سيطرتها بين سذاجة هذه الديار، فقام في إصلاحها وتجديدها وإرجاع نطاقها إلى العقيدة السليمة، حتى أن نجح بنجاح كبير، كما ينجح الطبيب الماهر بالشفاء السريع للمريض عن أمراضه الجسمية.

فألقي الله هذه المكانة الفريدة له في قلوب الناس من المثقفين خاصة، وغير المثقفين عامة. وأول من لقبه بهذا اللقب المنير هو شيخه الجليل العالم الكبير مولانا ميرجا محمد بيك الذي كان مشهوراً في الدهلي بجاهه ومنصبه وعظمته. وذلك أنه أرسل يوماً رسالة إلى الشيخ التهانوي وخاطبه بهذا

[°] أي شبه القارة الهندية.

اللقب المشهور الذي كان رجاء قلب الشعب الهندي منذ قبل، فقبله الشعب الهندي بسرور قلوبهم وبرضاء ذواتهم، فانتشر هذا اللقب في آفاق الهندية^٦.

أسرته:

يتشرف العلامة التهانوي بأسرة كريمة، كثيرة المآثر والمفاخر، معروفة بالعلم والأدب والفضل والإحسان. كان أبوه السيد عبد الحق من كبار الأثرياء والسادة المعروفين في قصبة "تهانه بهون" من مديرية مظفر نغر، ولاية (أترا براديش) بارعا في اللغة الفارسية وشاعرا فيها وكاتباً قديراً، صاحب أسلوب رائع رشيق ذا سيادة مستقلة لمنطقة من مدينة "ميرت" وقد فتح الله تعالى عليه من البركات، وأنعم عليه من النعم من كل صوب مالا يعد ولا يحصى. وجدته الأعلى القاضي نصر الله خان تولى القضاء فترة طويلة ومازال هذا المنصب في هذه الأسرة منذ عصر الشيخ ملا محمد صابر الذي كان أتقى العلماء في عصره^٧، وهو أعلى الرجل من أسرة التهانوي وبواسطته يبلغ نسبه إلى سيدنا أمير المؤمنين الفاروق الأعظم رضي الله عنه^٨.

وأمه المؤقرة النقية النقية الصالحة المعلقة إلى الله بقلبها، كانت مشهورة بتقواها وبِعلاقتها مع ربها حل وعلا، وكانت أسرة أمه معروفة بالحب مع الله، فلذلك يقول أهل العلم: أنه ﷺ حصل على نعمة العلم والذكاء من نسب والده، ودرجة الحب والتعلق مع الله من سلالة أمه^٩. وجدته من الأم الشيخ مرشد نجاتبت علي ﷺ كان من كبار المشايخ وفحول الشعراء باللغة الفارسية وأديبها الحاذق، الذي كان مديراً للعقار في محافظة (كنج بور). وقد مد الله عليه من المال والجاه والمنصب.

وهكذا كان الشيخ أشرف علي تهانوي ﷺ منعماً بالنسب العالي، وترعرع في بيئة كريمة وفي أسرة شريفة المنصب، و كان ذلك فضل الله عليه يؤتاه من يشاء من عباده. وبسبب ذلك كان

^٦ غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٢٧.

^٧ محمد رحمة الله الندوي (ط ١، ٢٠٠٦م) أشرف علي التهانوي. بيروت: دار القلم، ص ٢٢.

وغياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٤٠.

^٨ محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٢.

وغياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٤٠.

^٩ المصدر السابق، ص ٣٩.

رَحِمَهُ اللهُ مُسْتَقْلًا وَحَرًا فِي دَعْوَتِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لِلنَّاسِ وَتَصْلِيحِ ذِي مَنْصَبٍ عَالٍ ، وَكَانَ لَا يُبَالِي أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ
أَمَامَ صَاحِبِ الْجَاهِ وَالْمَنْصَبِ وَالْمَالِ^{١٠} ، كَمَا كَانَ يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ بِلَا مُبَالٍ أَنِّي لَا أَتَأَثَّرُ بِجَاهِ النَّاسِ
وَمَنْصِبِهِمُ الْعَالِي، وَلَوْ كَانَ الرَّجُلُ أَعْلَى الْمَنْصَبِ فِي الْهِنْدِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَانِي نِعْمًا لَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ
لَا لِلْمَالِ وَلَا لِلْمَنْصَبِ، وَأَنَا غَنِيٌّ بِنِعْمِ اللَّهِ أَعِيشَ بِهَا بِالْإِسْتِغْنَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ^{١١}. وَهَكَذَا رَبَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى
بِنِعْمِهِ الْوَافِيَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى، وَكَذَلِكَ لَمْ يُقَلِّهِ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَاءِ وَنِعْمِهَا.

نُبذة تاريخية عن قريته (تهانه بهون):

قريته المشهورة (تهانه بهون) تقع في ولاية شمالية من الهند بمديرية (مظفر ناغور) وهي منطقة صغيرة
مشهورة من زمن بعيد "عصر الإمبراطورية المغولية"، ولكن إسمها الرسمية كان محمد فور، وهذا
الإسم كان معروفًا لدى الحكومة وما زال مسجلًا في السجلات الحكومية القديمة. وسكانها كانت
من أهل المجد والشرف عند الشعب الهندي منذ بعيد، وهم كانوا مشهورين بأبناء من سلالة فاروقية
(الثاني من الخلفاء الراشدين المهديين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه). وولد فيها العباقر الإسلامية
وفحول العلماء والدعات الإسلامية، ولذلك تعتبر هذه القرية من قرى العلماء والسادة منذ قدم.
وقد أنجبت أمهاتها شخصيات فذة الذين برزوا على مسرح العلم والثقافة، ونوروا العالم بما خلفوا
من آثار علمية وأدبية ودعوية وتاريخية، حتى المستعمرين الغربيين كانوا مهتمين بقدرها العالي، كما
صرح الموظف المستعمر الغربي في تقريره وملاحظته عن ثقافة رجالها وأفذاذ علمائها، وقال: "ما
شاهدت في الهند كمثل رجالها بالدين والثقافة"^{١٢}.

ومن أشهر العلماء فيها، العلامة المحقق الشيخ محمد أعلى التهانوي، مؤلف (كشاف إصطلاحات
الفنون) هي موسوعة علمية كبيرة التي إشتملت ثناء أهل العلم وثقة أهل المعرفة، في مشارق الأرض
ومغارها. والعلامة الشيخ محمد التهانوي، والحافظ محمد الضامن الشهيد، والعارف المحقق الشيخ

^{١٠} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٤٠.

^{١١} المصدر السابق، ص ٤٠.

^{١٢} المصدر السابق، ص ٤٥.

الحاج إمداد الله المهاجر المكي، القائد السياسي الكبير، المحارب خلاف المستعمر البغيض الغربي، أفدى حياته في خدمة الإسلام والمسلمين^{١٣}.

نشأته وأيام طفولته

ولادته رحمه الله تعالى:

ولد العلامة التهانوي صباح الخامس يوم الأربعاء من شهر ربيع الثاني سنة ألف ومئتين وثمانين من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، الموافق العاشر من سبتمبر عام ألف وثمانمائة وثلاث وستين للميلاد^{١٤}.

نشأته في بيئة العلم والتقوى:

نشأ الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي القرية العامرة بالعلم والدين والورع التقى، وترعرع في بيئة علمية وجو من الصلاح والتقوى، وتعايش في ألفة ومودة حتى تجاوز من عمره خمس سنوات. فأصيب رَحِمَهُ اللهُ بِمِحَادِثَةِ مَفْجَعَةِ بُوفاةِ أُمِهِ. وَقَلَمَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانَ شَيْئًا حَدِثَ لَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَمْرِ. وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: أَنَا لَا أَذْكَرُ صُورَةَ أُمِّي وَشَكْلَهَا بِالْكَامِلِ، إِلَّا أَنِّي عِنْدَمَا أَتَعَمَّقُ فِي التَّخْمِينِ يَظْهَرُ لِي أَمَامَ عَيْنِي صُورَةُ أُمِّهَا جَالِسَةً فِي نَاحِيَةِ مِنَ السَّرِيرِ. وَلَا أَذْكَرُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا^{١٥}.

في تربية أبيه الحنون:

فمن وفاة أمه كان أبوه تولى أمر تربيته وتعاليمه. ووالده الحنون عبد الحق احتضنه هو وأخاه بالحب والمودة والشفق والعناية، حتى لا يحس نقص حنانة أمه ولطافة والدته، وكان يقول رَحِمَهُ اللهُ: "إن أبي هو الذي رباني أنا وشقيقي الصغير بعد وفاة أمي، وقد حظيت منه الحب والمودة بما أنساني فقدان والدتنا في هذا العمر الباكر، بل إنه ظل يجنبنا أكثر من حب الوالدة، ووفر لنا كل وسائل الراحة والنعم للعيش الهني الرغيد. وعشت في ظل الوارف، وقضيت أحلى أوقات عمري تحت

^{١٣} أنظر للمزيد: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٣ - ٢٤.

^{١٤} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٤٦.

^{١٥} المصدر السابق، ص ٤٨.

رعايته البالغة وإهتمامه الفائق. وكان يطعمنا بيده وما وجدناه يغضب علينا قط. و كان شديدا في طبعه مع ذلك كان حنوناً في تربيته^{١٦}.

وقد اختاره الوالد عبد الحق رَحِمَهُ اللهُ من بداية أمره ليتعلم الدين والشريعة الإسلامية، بينما اختار شقيقه ليتعلم العلوم العصرية^{١٧}. لأنه كان أذكى من شقيقه فلذا اختاره ليتعلم الدين، ورباه تربية دينية (خلافاً ما نعمل في هذا الزمان، عادة نختار الولد الذكي ليتعلم الأمور المتعلقة بشئون الدنيا من الهندسة والطب والحساب وما إلى ذلك، وضعيف العقل لتعليم الدين والشريعة الإسلامية).. وكان رَحِمَهُ اللهُ مكبا على تعلم العلم و ميالا إلى الطاعة والعبادة، بعيدا عن اللهو واللعب^{١٨}.

فُطِرَ عَلَى خُلُقِ الدِّينِ:

كان رَحِمَهُ اللهُ رقيق الطبع منذ ميعه صباح، أنه لم يكن يتحمل النظر إلى بطن مكشوف من الناس، وإذا فاجأه صبي من الصبيان ببطنه المكشوف غلبه القبيء، فلذلك كان منذ نشأة عمره قليل المخالطة مع عامة الصبيان، وهكذا أصبح بعيدا عن لهوهم ووعثهم^{١٩}.

وكان يتذوق بالصلاة ويشتاق إلى المواظبة عليها وهذا من بكورة عمره، حتى كان متعودا على صلاة التهجد وهو ابن اثني عشر سنة، كما قالت زوجة عمه: كنت استيقظ أحيانا في منتصف الليل فأراه يصلي فحاولت أن يقلل منها إشفاقا عليها، خاصة لما أراه في فصل الشتاء حيث يكون البرد القارس أقصى ما يمكن، لكنه لا يلتفت إلى كلامي، ولا يهمله البرد ولا الصيف بل يمضي في صلاته^{٢٠}.

^{١٦} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٤٨.

^{١٧} المصدر السابق، ص ٣٩.

^{١٨} المصدر السابق، ص ٥٠.

^{١٩} المصدر السابق، ص ٥٠.

^{٢٠} المصدر السابق، ص ٥٠.

ميوله إلى الخطب الدينية وهو طفل:

وكان ﷺ ميالا إلى الخطب الدينية والمناظرة مع مخاصمي الإسلام، فكان يصعد على المنبر ويبدأ في تقليد الخطباء والواعظين وهو طفل صغير لم يبلغ من العمر ثماني سنوات، ويناقش مع المستشرقين وهو ابن ست عشرة سنة^{٢١}.

وهكذا نشأ الطفل أشرف علي التهانوي على طاعة ربه، وقضى طفولته في طلب العلم وعبادة الرحمن حتى وصل إلى منشوده، وشاعت شهرته في الشعب الهندي، واختاره الله تعالى لخدمة دينه المجيد، وانتخبه لأجل نشر الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية. وكان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. كما قال الله سبحانه وتعالى: {والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}^{٢٢}.

المبحث الثاني

لمحة تاريخية لمراكز الدينية ورجالها وتقاليدها في عصره ﷺ

قبل أن يخوض الباحث في بيان أحواله العلمية، ظهر له أن يوضح عن تاريخ علوم إسلامية وبيئته العلمية وأهم مراكز العلمية في شبه القارة الهندية. وذلك لتوضيح موقف علمي، وحقائق إعتقادية فيها، وجهود العلماء في الحفظ عن عقائد إسلامية، ودورهم في إنشاء المدارس الدينية والمراكز العلمية، وتأثر العلماء خاصة والعوام عامة بهذه المراكز العلمية والفكرة الدينية.

ففي هذه النسبة سيحدث الباحث عن تاريخ علم الحديث في الهند فيما قبل عصر التهانوي، والمدارس الدينية التي أنشئت فيها، ويشير إلى دورها البارز في تعليم المسلمين لدينهم وعقائدهم الإسلامية الصحيحة، والحفاظ عليها، ومحاربتها على البدع والدعوات الضالة التي ظهرت وإشدد تيارها في ظل الحكم الإنجليزي.

وينتهي هذا كله ببيان مدى تأثير هذه المدارس والمراكز الدينية في حياة إمامنا ﷺ، ومدى تأثيره هو في مجريات الأحداث من حوله.

^{٢١} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٠.

^{٢٢} البقرة، الآية ١٠٥.

نظرة موجزة عن تاريخ الحديث والمحدثين ما قبل عصره ﷺ:

كانت الفترة السابقة لعصر حكيم الأمة هي أزهى العصور العلمية في الهند بإستثناء العصور الأولى، وقد برزت أسماء لامعة في هذه الفترة كان لها أكبر الأثر في إحياء السنة و علومها. ونظرا للرابطة بين الشيخ التها نوي ومن سبقه من علماء هذه الفترة فقد رأيت أن ألقى الضوء على الإزدهار العلمي في ذلك العصر.

لقد بدأ فجر الإسلام يطلع على الهند وبدأت أشعته تغمر هذه البلاد الرحبة الفسيحة، ولم يكن ذلك متأخرا عن صدر الإسلام، وإنما كان في عهد الخلافة الراشدة الذي بدأ فيه الإسلام يزحف شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وبدأت موجاته تجتاز الحدود والسدود معلنة في الدنيا كلمة الله ومبشرة بدينه.

ولم تكن شبه القارة الهندية بعزل عن جزيرة العرب منزل الوحي ومهبط الرسالة، ومشرق النور، فقد كان ثمة تجارة بين العرب والهند، وكان التجار يمرون بها إلى جزيرة سرنديب حتى يصلوا إلى شاطئ الهند الشرقية، ومن هناك كانوا يبحرون إلى الصين، وبقيت هذه الصلات التجارية قائمة حتى جاء الإسلام، فدخل الإسلام الهند في العهد المبكر مع التجار المسلمين العرب. وقبل الإسلام كانت هذه العلاقة علاقة اقتصادية وتجارية ومادية وهي التي تقلبت بعد الإسلام إلى العلاقة الدينية والروحية، وترعرع في هذا الجو المبارك جميع الخيرات من العلوم والثقافات والأخلاق. ففي هذا السبيل بدأت نشأة علوم الحديث في هذه المنطقة من أول وهلة من دخول الإسلام فيها من عصر خلفاء الراشدين المهديين، (خلال سنة ٤٠ هجرية) كما يشهده التاريخ^{٢٣}. ثم تطور هذا العلم عبر العصور متعلقا مع العرب بالمبادلة الثقافية بين علمائهما عربيا وهنديا، وهذه الفترة كانت طويلة وتوارد خلالها كثير من المحدثين والفقهاء والمتصوفين والمنتزكين في هذه الديار من مناطق العربية والعجمية من أطراف العالم، فأول وفد من المسلمين الذين توافدوا عليها هو وفود أصحاب النبي ﷺ الذين تواردوا الهند في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه^{٢٤} منهم: عبدالله بن عبدالله بن عتبان^{٢٥}،

^{٢٣} نور محمد الأعظمي (ط ١، ١٣٧٢هـ / ١٩٦٥م) تاريخ علم الحديث وتدوينه. "باللغة البنجالية" داكا: المكتبة الإمدادية،

ص ١٣٦ - ١٣٧.

^{٢٤} المصدر السابق، ص ١٣٧.

وعاصم بن عمرو التميمي^{٢٦}، صحرار بن العبدى^{٢٧}، وسهيل بن عدي^{٢٨}، والحكم بن أبي العاص الثقفي^{٢٩}.

وكذلك العصر العثماني نجد فيه إثنين من الصحابة رضي الله عنهم وصلا إلى الهند بنسبة الدعوة الإسلامية، وهما: عبيد الله بن معمر التميمي^{٣٠}، وعبد الرحمان بن سمرة^{٣١}.

وكان من جملة من وفد إليها من المجاهدين في سبيل الله الربيع بن الصبيح السعدي البصري الذي قال عنه حاجي خليفة في "كشف الظنون": هو أول من صنف في الإسلام، ولاشك أنه من أول المؤلفين في العلم الحديث إن لم يكن أولهم بإطلاق، وقد مات ودفن في الهند سنة ١٦٠هـ^{٣٢}.

^{٢٥} هو عبدالله بن عبدالله بن عتيان، قد استخلفه سعد بن أبي وقاص على الكوفة، في العصر الفاروقي. أنظر: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ط ١، ١٤٠٧هـ) تاريخ الطبري. بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٥٢٣.

^{٢٦} هو عاصم بن عمرو التميمي وأخو القعقاع بن عمرو أدرك النبي ﷺ فيما ذكره سيف بن عمرو، ولكن العلماء يختلفون عن صحبته. وكان له بالقادسية مشاهد كريمة ومقامات محمودة وبلاء حسن. أنظر: ابن عبد البر، الإستيعاب في معرفة الأصحاب، ص ٢٣٧.

^{٢٧} هو صحرار بن عياش، وقيل: عباس وقيل: صحرار بن صخر بن شراحيل بن منقذ بن حارثة، من بني ظفر بن الدليل بن عمرو بن وداعة بن لكيز بن أقصى بن عبد القيس العبدى الديلي. أنظر: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري، أسد الغابة، ج ٢، ص ١٣.

^{٢٨} هو سهيل بن عدي الأزدي، من أزد شنوءة حليف بني عبد الأشهل من الأنصار، أحد الفاتحين لمدينة كرمّان، قتل يوم اليمامة شهيدا. أنظر: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ط ١، ١٤١٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجليل، ج ٢، ص ٢١٢.

^{٢٩} الحكم بن أبي العاص بن بشير بن دهمان الثقفي. يكنى أبا عثمان وقيل: أبو عبد الملك وهو أخو عثمان بن أبي العاص الثقفي، وله صحبة وكان أميرا على البحرين، وجاءت بيده فتوحات كثيرة. أنظر: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري، أسد الغابة، ج ٢، ص ٢٧٤.

^{٣٠} هو عبيد الله بن معمر التميمي، أدرك النبي ﷺ، يعد في أهل المدينة، وقد اختلف العلماء في صحبته، روى عنه عروة بن الزبير ومحمد بن سيرين ولا يصح له حديث، وقد توفي في عهد عثمان بإصطخر. أنظر: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج ٥، ص ٥٧.

^{٣١} هو عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب القرشي أسلم يوم الفتح، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه ابن عباس والحسن وخلق سواهما، وقد شهد فتوح العراق وكان فتح سجستان على يديه، ثم أختير حاكما لها في سنة سنة ٣١ هـ، وفتح مناطق السند، وله حديث في البخاري. أنظر: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ط ١، ١٣٧٩هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار المعرفة، ج ١١، ص ٥١٨.

^{٣٢} محمد زكريا الكندهلوي، (ط ١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م) أوجز المسالك إلى موطأ مالك. دمشق: دار القلم، ص ٢٨.

وقد رافق علم الحديث العرب الذين غزوا هذه البلاد فقد إمتجز بلحمهم ودمهم، وكان فيهم من سكن الهند ومات فيها، وإستمر الحال على هذا حتى إنقرضت دولة العرب وتغلب على الهند الملوك الغزنوية فصار الحديث غريباً كالكبريت الأحمر، وعديماً كعنقاء المغرب، غلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية، وبعض العلوم الدينية من الفقه والأصول، ومضت على ذلك قرون متطاولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان، والإضراب عن علوم السنة والقرآن إلا ما يذكر في الفقه قليلاً على سبيل الإستدلال، وكان قصارى نظرهم في الحديث في "مشارك الأنوار" للصغاني^{٣٣} ت ٦٥٠هـ فإن ترفع أحد إلى (مصاييح السنة، للبغوي)^{٣٤} ت ٥١٠ هـ، أو إلى

^{٣٣} هو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي ابن إسماعيل البغدادي القرشي العمري الإمام رضي الدين، أبو الفضائل الصغاني المحدث اللوهوري المولد. الفقيه، المحدث، حامل لواء اللغة في زمانه. ولد سنة سبع وسبعين وخمسائة بلوهور، ونشأ بغزنة، ودخل بغداد سنة خمس عشرة، وذهب منها بالرسالة الشريفة إلى صاحب الهند، فبقي مدة. وحج، ودخل اليمن، ثم عاد إلى بغداد، ثم إلى الهند، ثم إلى بغداد. وسمع من النظام المرغيناني، وكان إليه المنتهى في اللغة. حدث عنه الشريف الدمياطي.

وله من التصانيف: "مجمع البحرين" في اثني عشر سفرًا، و"الشوارد في اللغات"، "توشيح الدرديية"، "التراكيب"، "فعال"، "وَفَعْلان"، "التكملة على الصحاح"، "كتاب الافعال"، "كتاب مفعول"، "كتاب الأضداد"، "كتاب العروض"، "كتاب مشارق الأنوار" في الحديث، "شرح البخاري"، "مجلد"، "ذر السحابة في وفيات الصحابة"، "مختصر الوفيات"، "كتاب الضعفاء"، "كتاب الفرائض"، "كتاب شرح أبيات المفصل"، "نقعة الصديان"، وله غير ذلك. وقد كان عالماً صالحاً، قال الدمياطي: وكان معه مولد، وقد حكم فيه بموته في وقته، فكان يترقب ذلك اليوم، فحضر ذلك اليوم وهو معافي، فعمل لأصحابه طعاماً؛ شكران ذلك، وفارقناه، وعديت إلى الشط، فلقيني شخص أخبرني بموته، فقلت له: الساعة فارقتة!! فقال: والساعة وقع الحمام بخبر موته. فجأة. وذلك سنة خمسين وستمائة. رحمه الله تعالى.

^{٣٤} هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفراء، البغوي الملقب بظهير الدين الفقيه الشافعي المحدث المفسر؛ كان بجرأ في العلوم، وأخذ الفقيه عن القاضي حسين بن محمد - كما تقدم في ترجمته - وصف في تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قول النبي صلى الله عليه وسلم، وروى الحديث ودرس، وكان لا يلقي الدرس إلا على الطهارة، وصنف كتباً كثيرة، منها كتاب "التهديب" في الفقه، وكتاب "شرح السنة" في الحديث، و"معالم التنزيل" في تفسير القرآن الكريم، وكتاب "المصاييح" و"الجمع بين الصحيحين" وغير ذلك.

توفي في شوال سنة عشر وخمسائة بمروود، ودفن عند شيخه القاضي حسين بمقبرة الطالقان، وقبره مشهور هنالك، رحمه الله تعالى.

(مشكاة المصابيح) للخطيب التبريزي ت ٥٠٣هـ - ظن أنه وصل إلى درجة المحدثين وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث^{٣٥}.

واستمر الحال على ذلك وتفاقم الوضع حتى كادت صلة المسلمين تنقطع عن هذا المعين المتين والمصدر الأصيل للدين، وأصبحت الهند تعيش في عزلة عن حركة تعليمية للحديث، وتختلف عن الإختراعات علمية من السنة النبوية، وتأثر العلماء بالجمود الفكري، حينذاك صنفت الكتب الدينية خاصة الكتب الفقهية على تعصب مذهبي وتخلف ديني، ولو أنهم تطوروا في علوم أخرى، من الحساب والكيمياء والفلسفة والأدب والفنون، لكنهم تبعوا عن مصادر الدين الأصلي، وأصبحت الهند عالماً مستقلاً منفصلاً عن العرب ومنعزلاً عن ثقافات دينية، حتى أن زار الشيخ شمس الدين المصري هذه البلاد في عهد علاء الدين الخلجي في القرن الثامن الهجري، فهذه الحالة أفرغته وحيرته، فكتب رسالة إلى السلطان يؤاخذ فيها الفقهاء في هذه البلاد على قلة الإعتناء بالحديث. ولكن علماء هذه البلاد احتلوا لمنع هذه الرسالة عن الوصول إلى السلطان.

ثم أدركت الهند العناية إلهية فأتحف الله هذه البلاد بالوافدين الكرام من المحدثين من الحجاز، وحضرموت، ومصر، والعراق، وإيران كالشيخ عبد المعطي بن الحسن المكي باكتير المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩هـ، والشهاب أحمد بن بدر الدين المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ، والشيخ محمد بن أحمد بن علي الفاكهي الحنبلي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ، والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن المالكي المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩هـ، والشيخ رفيع الدين الجشتي الشيرازي المتوفى بأكر آباد سنة ٩٤٥هـ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادي، والشيخ بهلول البدخشني، والخواجه مير كلان الهروي المتوفى بأكر آباد سنة ٩٨١هـ، وخلق آخرون^{٣٦}.

أشهر المحدثين في الهند:

ثم ساق بعض العلماء الهند سائق التوفيق إلى الحرمين الشريفين مصدر هذا العلم ومعقله، يطول ذكر أسمائهم، من أشهرهم:

^{٣٥} محمد زكريا الكندهلوي، أوجز المسالك إلى موطأ مالك. ص ٢٩.

^{٣٦} المصدر السابق، ص ٢٩ - ٣٠.

(١) الشيخ حسام الدين علي المتقي صاحب (كنز العمال) المتوفى سنة ٩٧٥ هـ، وهو من أعلى المحدثين بالهند تلمذ على الشيخ حسام الدين الملتاني وغيره من العلماء، ثم سافر سنة ثلاث وخمسين تسعمائة إلى الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً، وصحب الشيخ أبا الحسن البكري وتلمذ عليه واشتغل بالتدريس والتأليف، ورتب جمع الجوامع للسيوطي على الأبواب الفقهية وسماه (كنز العمال). وكان الشيخ أبو الحسن البكري يقول: للسيوطي منة على العالمين وللمتقي منة عليه^{٣٧}.

(٢) العلامة محمد بن طاهر الفتني (كان أصله من "فتن" وإليها ينسب وهي قرية في بلاد كجرات على مقربة أحمد آباد) صاحب (مجمع البحار) المتوفى سنة ٩٨٦ هـ، كان من أشهر تلاميذ الشيخ المتقي ورحل الشيخ إلى الحرمين الشريفين، والتقى بعلمائها سيما الشيخ علي المتقي وهو من أرشد تلاميذه، وصنف كتابين في حياة شيخه، وهما: مجمع البحار، والمغني في أسماء الرجال. ومن تصانيفه المشهورة تذكرة الموضوعات، وقانون الموضوعات. ثم عاد إلى بلده وصرف همته في نشر الحديث ورد المنكرات حتى قتل سنة ٩٨٦ هـ^{٣٨}.

(٣) ثم جاء دور الشيخ العلامة عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ، وكان قد أخذ علم الحديث من علماء الحجاز ونقله إلى الهند، واتخذ دار الملك (الدهلي) مركزاً له، وشتم عن ساق الجد والإجتهد في نشر علم الحديث خدمته تعليماً وتدریسا وشرحا وتقليقا، فأقبل العلماء على علم الحديث، وانتشر الصحاح وتداولتها الأيدي ونفقت سوق هذا العلم بعد كسادها، وخلفه ولده وأولاد أولاده، ودرسوا وألقوا، ونهض علما كبار في كل طرف من أطراف الهند ونبع فيهم رجال يعترف بفضلهم وحثقهم للصناعة الحديثية^{٣٩}.

(٤) ثم جاء دور الشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بشاه ولي الله المحدث الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ، الذي رحل إلى الحجاز وأخذ علم الحديث عن الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني وكثير من الخلق المبحرين البارزين في علم الحديث من علماء الحرمين الشريفين.

^{٣٧} عبد الحي الحسيني (ط ١، ١٣٩٦ هـ) نزهة الخواطر. كراتشي: نور محمد كارخانه تجارت كنب، ج ٤، ص ٢٣٤.

^{٣٨} محمد زكريا الكندهلوي، أوجز المسالك إلى موطن مالك. ص ٣٠.

و نور محمد الأعظمي، تاريخ علم الحديث وتدوينه "باللغة البنجالية". ص ١٤٦-١٤٧.

^{٣٩} محمد زكريا الكندهلوي، أوجز المسالك إلى موطن مالك، ص ٣٠.

وذكر العلامة محسن بن يحيى الترهتي في اليناع الجني أن الشيخ أبا الطاهر كان يقول: كان الشيخ ولي الله يسند عني اللفظ وكنت أصحح منه المعنى أو كلمة تشبه ذلك^{٤٠} ثم عاد إلى الهند وقصر همته على نشر الحديث، وأتم البناء الذي أقامه الشيخ عبد الحق وسد الخلل الذي بقي فيه من زمانه، و كان له دور كبير في نشر السنة في الهند، حتى ينتهي درس الحديث وتدرسه إليه.

وقد شرح الإمام الدهلوي الموطأ للإمام مالك بالفارسية والعربية وأتقن فيهما، وشرح تراجم أبواب البخاري وصنف في أسرار الحديث والفقهاء كتابه الشهير (حجة الله البالغة) فقامت دولة الحديث في الهند، وهبت ريحه تجري رخاء من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب وتهافت على طلبه رواد علم الحديث من أقصى الهند إلى أقصاها، وأصبح علم الحديث شرطاً للكمال، وشعاراً لأهل الصلاح والعقيدة الصحيحة حتى أصبح العلم لا يعتبر علماً حتى يبرز فيه، وقرر دراسة الصحاح الستة مع (الحصن الحصين) وانتشر تلاميذه وتلاميذ تلاميذهم في طول الهند وعرضها كشجرة طوبى التي يوجد فرعها في كال مكان، ولا يعرف أصلها ومركزها، فما من سند ولا درس ولا تأليف ولا حركة إصلاح وتجديد إلا ينتهي نسبه العلمي إلى هذه الدوحة المباركة^{٤١}.

أهم تلامذة الإمام الدهلوي:

ومن أشهر تلاميذه الشيخ المحدث القاضي ثناء الله البانيبي صاحب (التفسير الثاني) وصاحب (منار الأحكام) وغيرهما، ولقبه الشيخ عبد العزيز الدهلوي بـ (بيهقي العصر) ومنهم الشيخ المحدث السيد مرتضى الهندي البلكرامي ثم الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ صاحب عقود الجواهر المنفية في أدلة مذهب أبي حنيفة، وإتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين، وتاج العروس.

وخلف الإمام ولي الله الدهلوي ابنه النجيب وتلميذه الرشيد الشيخ عبد العزيز بن ولي الله المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ، وقد بارك الله في تدرسه، وتخرج عليه علماء أعلام ومحدثون عظام، أشهرهم وأعظمهم توفيقاً في نشر الحديث وتربية الأساتذة والمدرسين سبطه الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل العمري المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ فقد إنتهت إليه رئاسة الحديث في العصر الخير وأصبح المرجع

^{٤٠} محسن بن يحيى الترهتي، (ط ٣، ١٩٩٨م) اليناع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني. الهند: مكتبة هندية، ص ٢.

^{٤١} محمد زكريا الكندهلوي، أوجز المسالك إلى موطأ مالك، ص ٣١.

والمآب في التدريس والتخريج، وشدت إليه الرحال من أقصى البلاد، وكتب الله له من التوفيق والقبول ما لم يكتبه لأحد من معاصريه في الهند وفي أكثر الأمصار الإسلامية وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء^{٤٢}.

كانت هذه نظرة موجزة عن تاريخ علم الحديث بالهند والأدوار التي مر بها هذا العلم الشريف ما قبل عصر حكيم الأمة التهانوي، وقد كانت النهضة الحديثة على يد الشيخ الدهلوي وتلاميذه، هي اليد التي مهدت الأرض ليخرج هذا النبات الطيب متمثلاً في علماء الحديث الكبار.

صلة المحدثين مع التصوف الإسلامي:

جدير بالذكر، أن المحدثين الذين ينتهي إليهم رئاسة علم الحديث في الديار الهندية، مثل الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي (١١١٤-١١٧٦هـ)، والشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي (٩٥٤-١٠٥٢هـ)، وإمام العلماء والمحدثين الشيخ أحمد السرهندي المجدد للألف الثاني (٩٧١-١٠٣٤هـ)، (الذي يسند إليه الطريق المجددي للتصوف الإسلامي) كلهم كانوا ينتسبون مع التصوف والسلوك انتساباً قوياً، وكان درس الحديث في ذلك الزمان يتربى بأيدي هؤلاء العباقرة المتصوفين والمحدثين في مراكزهم الصوفية والسنية معاً، فكان علم الحديث والتصوف الإسلامي يقترنان في التعليم والتعلم بعضه بعضاً، كما يقول الشيخ نور محمد الأعجمي في كتابه -تاريخ علم الحديث وتدوينه-: " كان علم الحديث يترعرع في رعاية المتصوفين في مدارسهم الصوفية حوالي القرن والنصف، وذلك من مبدأ النصف الثاني للقرن الحادي عشر للهجرة حتى الثلث الأخير للقرن الثاني عشر للهجرة، يعني من عصر الإمام الرباني المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي، والشيخ المحدث عبد الحق الدهلوي، حتى عصر الشيخ المحدث ولي الله الدهلوي^{٤٣}. ويعتبر هذا العصر عصراً ذهبياً وأزهى العصور لعلم الحديث الشريف في شبه القارة الهندية بلا نزاع.

^{٤٢} محمد زكريا الكندهلوي، أوجز المسالك إلى موطأ مالك، ص ٣١-٣٢.

^{٤٣} نور محمد الأعظمي، تاريخ علم الحديث وتدوينه، "باللغة البنجالية". ص ١٤٩.

أهم مراكز علمية في زمنه رحمته الله:

كما ذكر آنفاً عن دور الدهلوي وجهده في خدمة الحديث والتصوف في الهند، حتى فتحت به أبواب علوم السنة النبوية، وطرق السلوك والإحسان، ولا يوجد أي طالب الحديث أو أتباع السلوك والطرق في الهند إلا تصل نسبته إلى الشيخ الدهلوي رحمته الله، سواء كان في إسناد الحديث أو في سلسلة السلوك والطرق، بل جميع الفرق الإسلامية في الهند تنتمي إليه بالإطلاق، وبه بدأت الحركة العلمية والعملية والخدمات الدينية في هذه الديار، وبدأت هذه الحركات الدينية بصورة المدارس الدينية، وكل العلماء في الهند كانوا ينتسبون إلى هذه المدارس، وما زال العلم ينتقل داخل هذه المدارس من طبقة إلى الطبقة التي تليها حتى تكونت لنا السلاسل من العلماء الأجلاء البارزين بالورع والتقوى بأخذ بعضهم عن بعض.

وقد تفرعت مدرسة الشاه ولي الله الدهلوي بعد تلميذه الشيخ محمد إسحاق الدهلوي رحمته الله ١٢٦٢ هـ، إلى فرعين يمثلان بمدرستين فكريتين رئيسيتين وهما:

الفرع الأول: مدرسة الأحناف التي تنتمي إلى السلوك والإحسان، وكان على رأسها الشيخ عبد الغني المهاجر المدني رحمته الله ١٢٩٦ هـ، أخذ العلم عن الشيخ محمد إسحاق الدهلوي، وكان من أشهر تلاميذه العلامة رشيد أحمد الكنكوهي رحمته الله ١٣٢٣ هـ، والإمام محمد قاسم نانوتاي رحمته الله ١٢٩٨ هـ، المؤسسة لدار العلوم ديوبند، وإليهما تنتهي الرئاسة التعليمية الديوبندية، وكذلك برز في هذا العصر من علماء الأحناف في الحركة الإصلاحية والتربوية العالم الرباني مولانا فضل الرحمان الكنج مراد آبادي ١٣١٣ هـ، والإمام المرشد السياسي الديني مولانا إمداد الله المهاجر المكي رحمته الله ١٣١٧ هـ.

الفرع الثاني: مدرسة أهل الحديث^{٤٤}، وكان على رأسها الشيخ نذير حسين الدهلوي رحمته الله ١٣٢٠ هـ الذي تلمذ أيضاً على الشيخ محمد إسحاق الدهلوي. وتخرج في هذه المدرسة عدد كبير من العلماء البارزين في فنون مختلفة من علوم إسلامية، من أشهرهم الشيخ المحدث محمد بشير السهسواني رحمته الله ١٣٢٣ هـ، والمحدث شمس الحق الديانوي رحمته الله ١٣٢٩ هـ صاحب (غاية

^{٤٤} أي غير المقلدين للمذاهب الفقهية من مذاهب الأربعة.

المقصود في شرح سنن أبي داود) والشيخ أبو محمد إبراهيم بن عبد العلي الأروى رَحِمَهُ اللهُ ١٣١٩هـ— وغيرهم كثير من الخلق^{٤٥}.

هكذا قد نشطت الحركة العلمية في الهند بوجود هؤلاء العلماء المخلصين في الدين تدريسا وتأليفا في هذا العصر، وكان لهم جهد كبير في إنشاء المدارس الدينية والمراكز العلمية، ومن أشهر هذه المدارس: مدرسة شاه ولي الله الدهلوي بداهلي^{٤٦}، ودار العلوم ديوبند^{٤٧}، ومدرسة مظاهر العلوم^{٤٨}،

^{٤٥} أبو الحسن علي الندوي (ط ٣، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) رجال الفكر والدعوة في الإسلام. الكويت: دار القلم، ج ٤، ص ٢٨٠.

^{٤٦} هذه المدرسة يعتبرها بأمر المدارس الدينية في الهند، وهي مشهورة عبر التاريخ الهندي، ولها دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة في شبه القارة الهندية التي أنارت مشعل السنة النبوية فيها، وهي تشمل على قصرين، قصر يعرف بالمدرسة القديمة، وقصر جديد إلى جواره يعرف بالمدرسة الجديدة. وقد تصدر للتدريس بها الشيخ عبد العزيز بن ولي الله، والشيخ رفيع الدين، والشيخ عبد القادر، فلما توفوا ولي التدريس بها الشيخ إسحاق والشيخ يعقوب ابن أخيه الشيخ مخصوص الله بن رفيع الدين مدة طويلة، ولما هاجر الشيخ إسحاق في سنة ١٢٥٧هـ إلى الحرمين الشريفين استخلف الحدث السيدنذير حسين الدهلوي في هذه المدرسة، وتخرج فيه كثير من البارزين والبارعين في علوم دينية، وقد شاهدت الأمة خدمتهم الوافية في مختلف المجال. أنظر: (مجلة ثقافة الهند، يونيو، ١٩٩٥ م، ص ٨٨).

^{٤٧} هذه المدرسة تنتمي إلى أهم أتباع الإمام شاه ولي الله الدهلوي، التي أسست لهدف جليل وغاية كبيرة، ولها دور كبير في حياة الشعب الهندي المسلم خاصة، وغير المسلم عامة، والشعب الهندي شاهد على خدمتها الوافية في مجال الثقافة الإسلامية، والحفاظ على العقائد الدينية الصحيحة، والمقابلة على أعداء الإسلام المستعمرين المسيطرين على السياسة الهندية. فممن قام بتأسيس هذه المدرسة وهم من سلسلة أتباع الدهلوي، من أبرزهم شيخ الإسلام العالم الرباني محمد قاسم النانوتاي المتوفى ١٢٩٨ هـ، وأمير الملة رشيد أحمد الكنكوهي ت ١٣٢٣ هـ، والحاج محمد عابد رحمهم الله جميعاً، فأسسوا مدرسة صغيرة بيوم ١٥ محرم، سنة ١٢٨٣هـ، الموافق ١ مايو ١٨٦٦ م، بجوار مسجد أثري في قرية (ديوبند) التابعة لمدينة سهارنפור، بينها بين دهلي زهاء ستين ميلا، ورزقت هذه المدرسة من أول يومها رجالا عاملين مخلصين، وأساتذة خاشعين ومتقين. وسميت هذه المدرسة فيما بعد بـ(دار العلوم ديوبند) فسرت فيها روح التقوى والإحتساب والتواضع والخدمات، ولم يزل نظام المدرسة يتسع، وزادت أساتذتها وطلابها، وتوسعت شهرة أساتذتها في الصلاح والتقوى، والتبحر في علم الحديث والفقه الإسلامي و الفلسفة الإسلامية، وفي علوم أخرى، حتى صارت أكبر جامعة إسلامية في شبه القارة الهندية. وقد تخرج فيها خلق كثير لا يحصى عددهم، الذين تمكنوا في قيادة إسلامية للشعب الهندي فيما بعد، وكان لهم أثر كبير في حياة المسلمين في شبه القارة الهندية وجيرانها.

وكان شعار دار العلوم التمسك بالدين، والتصلب في المذهب الحنفي الاعتدالي (بعيدا عن التعصب المذهبي) واتباع السلوك والإحسان مع الحفاظ على منهج السلف الصالحين، والدفاع عن السنة، وبقي على شعاره، وتمسك منهجه بالوثاقة، حتى تخرج فيها جيل بعد جيل، ولهم جهد كبير في خدمة الدين عامة، وفي السنة خاصة، وتصنيفاتهم شاهدة على ذلك.

ومدرسة فرنكي محل^{٤٩}، والمدرسة العظيمة^{٥٠}، والمدرسة الوالاجاهية^{٥١}، والمدرسة العالية برامفور^{٥٢}، والمدرسة الكبيرة^{٥٣}، ومدرسة النواب صديق حسن خان بموفالي المعروف بمدرسة الرياسة^{٥٤}، وجامعة عليجراه الإسلامية^{٥٥}، وغيرها.

^{٤٨} هذه المدرسة تعتبر شقيقةً لدار العلوم ديوبند التي تشاركه في المنهج الدراسي، والمبدأ العلمي والشعار الديني. قد أسسها الشيخ المحدث مظهر النانوتوي المتوفى سنة ١٣٠٢هـ، في مدينة سهارنפור سنة ١٢٨٣هـ، وتمتاز هذه المدرسة وأساتذتها وطلبتها بالبساطة في المعيشة والقناعة بالكفاف، وتخرج فيها عدد كبير من العلماء الصالحين، والرجال العاملين في ميادين العلم والسياسة والدين، فمن أبرزهم الشيخ الإمام خليل أحمد سهارنפורي رحمته الله، ت ١٣٤٦هـ، صاحب بذل المجهود في شرح سنن أبي داود. أنظر: *مجلة ثقافة الهند*، يونيو، ١٩٩٥م، ص ٩٦.

^{٤٩} هي مدرسة تاريخية مشهورة بمجدها وخدمتها، ولها خدمة وافية في علوم إسلامية، خاصة في فلسفة إسلامية، والمنطق، والعلوم الحضارية، قد أسست في محلة فرنكي محل بلكنو حينما إنتقل أبناء الشيخ العلامة قطب الدين السهلوي من سهالي إليها في عهد الإمبراطور أورنكزيب، وهي كانت قائمة على شرفها ومكانتها العلمية حتى بداية القرن الرابع الهجري، وذلك أهما فقدت مكانتها العلمية والعالمية في صف المدارس الإسلامية سنة ١٣٠٤هـ. أنظر: محمد عنایت الله، *تذكرة علماء المحل* ص ٢٢.

^{٥٠} وهي مدرسة تأسست قديماً في مدينة عظيم آباد سنة ١٠٦٧ هـ، على صفة نهر "كنك" في مكان رفيع، وبني بجوارها المسجد يسمى بمسجد رفيع، وكان حولها مسكن الطلاب، والديار للأساتذة، وقف عليها قرى عديدة، وكان من مدرسيها السيد الظريف، والسيد كمال من تلامذة الشيخ نظام الدين اللكنوي. أنظر: *مجلة ثقافة الهند*، يونيو، ١٩٩٥م، ص ٩٢.

^{٥١} كانت مدرسة مباركة، وشأنها عالية في التاريخ الإسلامي في الهند، أنشأها النواب محمد علي خان الكوياموي ببلدة (كويامتو) علي نفقته الخاصة، وقد درّس فيها العلامة بحر العلوم عبد العلي بن نظام الدين اللكنوي مدة قصيرة، وبعده ولىّ التدريس بها ختنه علاء الدين اللكنوي وعبد الواحد بن عبد الأعلى، تخرج فيها جماعة من الفضلاء. أنظر: *مجلة ثقافة الهند*، يونيو، ١٩٩٥م، ص ٩٧.

^{٥٢} أسسها الأمير فيض الله خان، ورصد لها أموالاً يعطي منها منحا للفقراء من طلبة العلم ورواتب شهرية للعلماء والأساتذة، وكان لها دور كبير في الثقافة الإسلامية في الهند، و من العلماء البارزين المدرسين فيها العلامة عبد العلي اللكنوي، والشيخ حسن بن غلام مصطفى اللكنوي. أنظر: *مجلة ثقافة الهند*، يونيو، ١٩٩٥م، ص ٩٧.

^{٥٣} تولىّ بنائها الملك شاهجهان بن جهانكير (الملك لإمبراطورية المغولية) فيما بين سنة ١٠٦٠هـ و ١٠٧٠هـ، بمدينة جهان آباد بجوار الجامع الكبير، وسمّاها (دار البقاء) وولىّ التدريس بها الشيخ يعقوب البياني، وكانت باقية على خدمتها الوافية للثقافة الإسلامية حتى إندرسست في زمان المفتي صدرالدين الدهلوي ت ١٢٨٥هـ، ثم جدد، وهو كان من أبرز المنتسبين إلى مدرسة الإمام ولي الله الدهلوي، أنظر: عبد الحي الحسني (ط ١، ١٣٩٦هـ) *نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر*. كراتشي: نور محمد كارخانه تجارت كتب، ج ٧، ص ٢٢٠.

^{٥٤} لها دور كبير في نشر السنة النبوية، وفي خدمتها. وكانت لها أهمية كبيرة عند أهل الحديث في شبه القارة الهندية، ورجالها مشهورون في العلوم الإسلامية حتى الآن، وتخرج فيها فحول من المحدثين والعلماء في علوم مختلفة. وكان من أبرز المدرسين

المبحث الثالث

نشأته العلمية، وذكائه الفطرية، وميزاته البارزة

دور الوالد في تعليمه الديني:

كان التهانوي أحب ولدي أبيه الشيخ عبد الحق إليه، وكان يتوسم فيه مخايل النجابة وعلامات الصلاح حيث عرف في صباه بسرعة الفهم، وصفاء النفس وطهارة الأخلاق وعدم الرغبة في اللهو واللعب. فاختاره الوالد الحنون لأن يتعلم الدين، ورباه تربيةً حسنةً، وعناه عنايةً فائقةً، وحاطه

فيها الشيخ محمد بشير السهسواني، والشيخ سلامة الله الجيراجوري، والقاضي حسين بن محسن اليماني، والعلامة زين العابدين قاضي بهوفال، وكان لهم دور كبير في التصانيف والفتاوى. أنظر: (حسن خان، سيرة والجاهي، ج ٣ ص ١٨١).^{٥٥} قد أسسها الزعيم المسلم الشهير السير سيد أحمد خان بإسم مدرسة العلوم سنة ١٨٧٥م، وتحولت من حيث الجامعة في عام ١٩٢١م، وهي تقابل مدرسة دار العلوم ديوبند و شقيقتها، وكانت تعتبر مدرسة حضارية في ذلك الزمان، والآن تعد من الجامعات العالمية المشهورة في الهند. وقد دفع السير سيد أحمد خان إلى إنشاء هذه المدرسة ما أصيب به المسلمون في أثر إخفاق الثورة العظيمة التي قاموا بها سنة ١٨٥٧م، وقد نجحت جامعة عليجراه الإسلامية في دورها نجاحا كبيرا في مجالات مختلفة من السياسة الإسلامية، والإقتصاد الإسلامي، وقد لعبت الجامعة وأبنائها دورا مؤثرا في حياة المسلمين بإشتغالهم في الوظائف الحكومية حتى بعضهم تمكنوا فيها كأعضاء البارلامانية، وكذلك كان لهم دورا بارزا في السياسة الهندية. أنظر: الندوي، أبو الحسن، المسلمون في الهند، ص ١١٩.

جامعة عليجراه بين الإيجابيات والسلبيات:

رغم نجاحها الكبير في مجالات مختلفة، وخدماتها الوافية للشعب الهندي المسلم، هناك بعض السلبيات تحتاج إلى التوضيح قليلا. وذلك أن هذه الجامعة في كثير من ناحية علمية قد تأثرت بأفكار المستشرقين الغربيين، فلذلك يبرز لنا نوعان من القيادة لقيادة المسلمين في ذلك الزمان: أولهما القيادة الدينية الخالصة التي يتزعمها علماء الدين الذين تخرجوا من المدارس الدينية البريئة من الحضارة الغربية، خاصة الذين ينتسبون إلى مدار العلوم دار العلوم ديوبند، ومظاهر العلوم ومن أمثالهما، والقيادة الثانية يتزعمها سيد أحمدخان وأنصاره من هذه الجامعة الجديدة المائلة إلى الحضارة الغربية. أنظر: الندوي، أبو الحسن علي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية. ص ٦٣.

وكان سيد أحمدخان عنده إعجاب زائد بالغرب وبالفلسفة الغربية والتأويل البارد والمتطرف للحقائق الغربية، والمعجزات النبوية وأنباء ما وراء العقل، وبشدة تأثره بالحضارة الغربية وثقافتها قد قامت تصنيفاته وفكراته مخالفة للفكر الإسلامي في كثير من الأماكن، وقد رد عليه علماء المسلمين، منهم الشيخ عبدالحلي اللكنوي، والعلامة الشيخ رحمة الله الكيرانوي ت ١٣٠٨هـ، والشيخ السيد آل حسين الموهاني، (ت ١٢٨٧هـ) والعلامة عنایت رسول الجرياقوتي (ت ١٣٢٠هـ)، وكثير من العلماء المعاصرين له. هذه كانت لحظة تاريخية قصيرة لمراكز الدينية ورجالها في الهند، وهذه البيئة العلمية والفكرية الدينية التي كان يتربى فيها الشيخ التهانوي ۞ ويتأثر بها.

وتعهدده منذ صغره، لأنه كان ينوط به آماله، وأرسله إلى الأساتذة الفضلاء البارعين في العلوم الدينية، وأمره بالصلاة والصوم وهو في سنه اليسير، وكذلك تعلم من أبيه عن قيمة الوقت، لأن والده عبد الحق كان يُسرّ على إهتمام الوقت، وينبهه عن عدم ضياع الأوقات، وكان يقول: الوقت حياة إن ضيعته ضيعت الحياة^{٥٦}، فكان للوالد دورا كبيرا في إعداد هذه الشخصية الجليلة، وهذه الحقيقة تبرز أمامنا عن تصنيفات أتباعه المبينة على أحواله الشخصية كثيرا.

تعليمه وتربيته:

نشأ التهانوي في أسرة العلم والتقوى، وعاش طفولته في قرية عارمة بالعلم والدين التي كانت في ذلك الوقت موطن كبار العلماء الأجلاء، والمهرة البارعين في مختلف الفنون، وترعرع في رعاية أبيه الذي كان متذوقا القلب إلى العلم والعلماء، الذي أحسن تربيته منذ بكورة عمره كما سبق، فلذلك كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مبكرا في طلب العلم كعادة العلماء والمحدثين، و بدأ بحفظ القرآن الكريم في قريته على الشيخ آخون جي الذي كان من سكان مديرية (ميرت)، ثم أكمل حفظ القرآن الكريم على الحافظ حسين علي الذي كان من سكان (الدهلي)، ثم إستوطن مدينة (ميرت)، فهكذا أتم حفظ القرآن في طفولته، وكان يصلي بالناس ولم يبلغ الحلم. ثم تعلم اللغة الفارسية وكتبها الإبتدائية من بعض علماء (ميرت)، وكتبها المتوسطة من الأستاذ فتح محمد التهانوي، ودرس عليه الكتب العربية الإبتدائية من القواعد العربية من النحو والصرف، ثم أكمل هذه الدراسة على خاله الشيخ واجد علي الذي كان من المهرة والبارعين باللغة الفارسية والعربية، وكان أديبا فيهما.^{٥٧} ثم رحل الشيخ التهانوي إلى مدار العلم دارالعلوم الديوبند لنيل العلوم العربية والدقة فيها، وذلك في نهاية ذي القعدة عام ١٢٩٥هـ، وتلمذ على الشيخ الجليل مولانا منفعت علي الديوبندي وأكمل فيها الكتب الفارسية المتفوقة، وتفوق في اللغة الفارسية حتى تميز في كتابتها وخطابتها، وكان ماهرا في شعرها ونثرها، ثم خاض في ميادين اللغة العربية، وتلقى ثروة من العلوم العربية والأدبية والعقلية والنقلية لدى أساتذة قد جددو ذكريات القدماء في سعة إطلاعهم وجودة إتقانهم، حتى ثارت شهرته أديبا وكاتبا ماهرا في آفاق الهندية. وكان التهانوي يستمر دراسته في هذه المدرسة خمس

^{٥٦} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٥.

^{٥٧} المصدر السابق، ص ٥٣.

سنوات، حتى تخرج فيها ونال الشهادة في بداية عام ١٣٠١هـ، حينذاك هو كان ابنا في تسعة عشر سنة، أو كان قريبا إلى عشرين^{٥٨}.

الذكاء الفطرية ومهارته في فن الكلام:

كان ﷺ متميزا بذكائه الفطرية، وكان معروفا بجداقة ذهنه بين زملائه وأقرانه، وعُرف بين أساتذته بقوته الذاكرة القوية وأخلاقه الحميدة، وكانت المسائل العلمية والآراء الدقيقة منقحةً وواضحة تامة لديه، وكان سريع الإجابة على الأسئلة العلمية التي توجه إليه، وحاذقا في جمع المعلومات من الكتب الضخمة الحجم في وقت ميسور، ويرتبها بأسلوب يسير، وكان سريع الفهم في دراسة الكتب الفقهية والمنطقية، حتى يتسابق في فهمها عن أساتذته أحيانا، فلذلك نرى أن كثيرا من أساتذته وزملائه وأقرانه قد أثنوا عليه بهذه الميزة الغريبة التي أكرمهم الله تعالى بها خاصة، وهي التي جعلته يتفوق على أقرانه وزملائه في كل فنون.

مناظرته العلمية أيام دراسته :

وقد وهبه الله تعالى لسانا طليقا، ونطقا قويا، وأسلوبا منطيقا، وملكة فطنية، وبراعة منقطعة النظر في مجال الخطابة والمناظرة، وقد أحسن ﷺ في إستخدام هذه المواهب الربانية في الدفاع عن الحياض الشريعة الغراء، والذب عن شريعة الله الخالدة، ودحض قوى الباطل^{٥٩}.
لكن هذه الأشياء كانت من ذكريات التهانوي في حياته المستقبلية فحسب ولا غير، و هذه كانت في زمن دراسته بجامعة دار العلوم ديوبند. وأما بعدما فرغ للتصنيفات والتدريس وتعمق في بحوث علمية، كان أبعد الناس عن المناظرة والجدل، لِمَا كان يرى أن أمثال هذه المناظرات والمجادلات لاتحمل الفائدة للأمة، وقلما تجد في جذب الناس إلى الهداية والرشد، والمناظرون يرغبون إلي إظهار لياقتهم العلمية وفصاحتهم اللسانية، ولا يهتمون إلى إخلاص دينهم وصدقة قولهم.

^{٥٨} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٣.

^{٥٩} محمد رحمة الله الندوي (ط ١، ٢٠٠٦م) أشرف علي التهانوي. بيروت: دار القلم، ص ٤٢.

وكان رحمه الله يقول: أنا اليوم أكره هذه المناظرات والمجادلات الكلامية، وأبتعد عنها بقدر ما كنت أحبها وأشتاق لها أيام دراستي، وذلك لما يترتب عليها اليوم من المضار، وتضييع الوقت، والمجادلة بالباطل، والإنحياز عن الحق وعدم الإستسلام له^{٦٠}.
وذلك لأنه ﷺ كان يقارن بين هدف المناظرات اليوم ويبين ما فيها من أنواع الفساد، ومناظرات السلف الصالح، وما فيها من قصص رائعة من الإذعان للحق والإنقياد له، وعدم الإنحياز عنه، والإخلاص والصدق والأمانة.

مميزاته البارزة:

وكان ﷺ متحلياً بعدة أوصافه وخصوصياته التي أعانته لوصول غايته سريعاً، ومن هذه الأوصاف البارزة أحب أن أذكر بعضها منها على سبيل المثال والاختصار لا على سبيل الإطناب.

الاهتمام بالوقت وحسن استخدامه:

كان التهانوي ﷺ نموذجاً حياً في محافظة الوقت وحسن إستخدامه ودقة توزيعه بين حقوق الله وحقوق العباد، وكان مستقيماً على نظامه حتى أن توفي ﷺ. ففي هذه النسبة أحب أن أذكر عن بعض الأقوال من تلاميذه وأقرانه الملازمين له.

كما قال الشيخ عزيز الحسن ﷺ (من أهم ملازمين للشيخ التهانوي) "إن من أهم خصائص الشيخ التهانوي ﷺ ومميزاته أنه ما كان يضيع شيئاً من أوقاته، وإنما كان يحاسب كل دقيقة ولحظة من حياته محاسبة دقيقة، ويعتبرها أعلى وأثمن ما رزقه الله تعالى من النعم في هذه الحياة الفانية، وهذه الميزة لم تغيب من حياته ولو لحظة، بل ما زالت موجودة في حياته منذ طفولته حتى آخر لحظة من حياته، وكان يستغل أوقاته إستغلالاً فائقة بالدوام، كأنه مكيئة شغالة لكل لحظة لاتتعب ولا تنكد^{٦١}.

^{٦٠} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٤٣.

^{٦١} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٥.

وكذلك يصور لنا العلامة عبد الحي الحسني^{٦٢} كيفية ضبط أوقاته تصويراً دقيقاً ورائعاً، فيقول ﷺ: "وكانت أوقاته مضبوطة منظمة، لا يُخل بها، ولا يستثنى فيها، إلا في حالات إضطرارية، وكان إذا إنصرف من صلاة الصبح إشتغل بذات نفسه، عاكفاً على الكتابة والتأليف، منفرداً عن الناس، لا يطمع فيه طامع إلى أن يتغدى ويقيل ويصلي الظهر، فإذا يصلي الظهر جلس للناس يكتب الردود على الرسائل، ويقرأ بعضها للناس، ويتحدث إليهم، ويؤنسهم بنكته ولطائفه، وكان حديثه نزهة للأذهان، وفاكهة للجلساء، بحيث لا يملون ولا يضيقون، فإذا صلى بالناس العصر انفرد عن الناس، واشتغل بشؤون بيته إلى أن يصلي العشاء، فلا يطمع فيه طامع"^{٦٣}

وها هو العلامة الأديب المفسر عبد الماجد الدرايبادي يقول عن شأن التهانوي ﷺ، ويصور لنا كيفية ملازماته بنظام أوقاته فيقول: كان ﷺ منعدم النظر في تنظيم وقته ومُحاسبة الدقائق واللحظات، عكس ما نراه نشاهده في حياة غيره من عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين، فنجد معظمهم يقعدون فريسة الإفراط والتفريط، نرى فلانا قد عظم شأنه، وعلت منزلته في الجانب الفلاني وهو مُجَلِّ ومقصرٌ في الصفة الأخرى، والجانب الآخر، وهكذا الثاني والثالث، أما الاتزان الكامل والإعتدال المناسب فهو من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد رأينا رؤية العين من هذه الصفات العالية في حياة الشيخ التهانوي ﷺ، فكل عمل في وقته وميعاده، كل شئ في مكانه، الأكل والشرب المشي والوقوف، القيام والجلوس، وكل ذلك مع مراعاة التامة للآداب العالية والضوابط الثابتة، كل حديث له هدفه المتوخى وغايته المنشودة، كأنه لا يعرف التحدث

^{٦٢} هو العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني ﷺ، والد سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الندوي، وُلد لثمانية عشرة خلونَ من شهر رمضان، سنة ست وثمانين ومئتين والـف في زاوية السيد عَلمَ الله، على بعد من بلدة (راي بريلي) من أعمال لكنو (الهند)، كان من العلماء البارزين الحريصين على إصلاح المسلمين ورفعتهم في الهند، وهو الذي بذل جهده الكبير في نصح الأمة، وكان دائم الفكر على شعور المسلمين في الهند، ويتألم كثيراً مما يرى من اضطراب حبل المسلمين، وتفرق كلمتهم، وتشتت شملهم، وذهاب ريجهم، وكان شاعراً مُجيداً. وبارعاً في الفقه والحديث والتفسير والسير والتاريخ، لم يكن له نظير في العلم بأحوال الهند ورجالها في عهد الدولة الإسلامية، ومن أهم مؤلفاته (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) في تراجم أعيان الهند ومآثرهم، (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف) (جنة المشرق ومطلع النور المشرق) في التاريخ الإسلامي، (تلخيص الأخبار) كتاب الغناء) (القانون في انتفاع المرهن بالرهون) وغير ذلك في علوم مختلفة.

أنظر: عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج ١، ص ١٠.

^{٦٣} المصدر السابق، ج ٨، ص ٥٧-٥٨.

بدون الهدف، لم أرى له مثيلاً ولا نظيراً في التغلب على لسانه بين معاصريه وأقرانه وزمرة العلماء الآخرين^{٦٤}.

وسطية المذهب والتجنب عن الغلو في الأفكار:

وكان رَحِمَهُ اللهُ متحلياً بالصفة الوسطية والإعتدال في كل أمور من الدين والدنيا، فلا يتعاطف بعاطفة الإفراط والتفريط، ولا يتأثر بالأفكار المتطرفة والمنحرفة عن الحق والإعتدال، فحياته العامة وحياته العلمية والدعوية والإصلاحية كانت متسمة بالتوازن والإعتدال، كأنه كان من حق المصداق لآية القرآنية "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً"^{٦٥} الآية. فوجدناه يضع كل شيء في محله، وينزل كل شيء حسب درجته ومكانته، وقد تجلت لنا هذه الميزة البارزة في طريقة إصلاحه، ومنهج تربيته، ومذهبه الفقهي حتى نجد في كثير من الأماكن في فتاواه لم يتأثر بآراء المتأخرين من فقهاء الأحناف، بل كان معتدلاً على مسلكه كمثال السلف الصالحين، متابعا لقولهم المشهور "إذا صح الحديث فهو مذهبي"، فلذلك كان رَحِمَهُ اللهُ يكره الإعراض عن الكتاب والسنة، وكان ثابتاً على مذهب أهل السنة والجماعة دائماً، ولم تكن فيه تزمّت فكري أو عصبية مذهبية أو جمود علمي.

هذا طالبه وابن أخته الشيخ ظفر أحمد التهانوي يعبر عن وسطية منهجه رَحِمَهُ اللهُ فيقول: "يمتاز الشيخ التهانوي بالوسطية والإعتدال، وإختيار التوسع، وعدم التضيق في المسائل الخلافية"^{٦٦}. كما رُوي واشتهر عنه الإذن بالإفتاء وفق مذهب أحد من الأئمة الأربعة في مسائل العقود والمعاملات، التي يوجد فيها عموم البلوى، ونوع سعة في بعض المذاهب، لئلا تضيق صدور عامة المسلمين بهان فيترك الشريعة رأسياً^{٦٧}.

فكل من تأمل في أقواله وأفعاله وتصانيفه وأعماله العلمية بعين الإنصاف رأى توسطه وإعتداله في كل شؤون حياته، وأيقن أن منهجه في قمع جذور البدع والخرافات، ودحض الأباطيل، وتنفيذ

^{٦٤} عبد الماجد الدرايبادي (ط ١، ١٣٧٢هـ) المعاصرون. الهند: مكتبة التهانوي بديوبند، ص ١٥-١٦.

^{٦٥} البقرة، الآية ١٤٣.

^{٦٦} ظفر أحمد التهانوي (ط ١، ١٩٧٨م) تذكرة الظفر. الهند: مكتبة التهانوي، ص ١٧٢.

^{٦٧} محمد زيد المظاهري الندوي (ط ١، ١٤١١هـ) آداب الإفتاء والإستفتاء. الهند: مكتبة إفادات أشرفية بانده، ص ٢٣-

شبهات الضالين والرد على الفرق الضالة والطوائف المنحرفة كان منهجاً وسطاً، متصفاً بالاتزان والإعتدال، لا إفراط فيه ولا تفريط.

فكان واسع النظر، محباً للوسطية في كل شيء، لعل هذا هو السر في أنه كان محبوباً لدى كافة الأوساط العلمية، ونال قبول وإعجاب كل الطبقات من البشر، حتى كان محبوباً وموقراً لدى أصحاب الديانات الأخرى من الهندوس والمسيحيين والبوذيين وغيرهم من شعب الهند. ولكونه ﷺ متوسطاً المنهج في كل أمور كان باحثاً الحق حراً، ولم يكن متردداً عن قبول الحق، وأحياناً كان يسلم أقوال الأنداد في المناظرة بلا تردد لما يتيقن أن رأيهم حق، فلا يستحي عن قبول رأيهم، ولا يخاف لومة لائم في إثباته^{٦٨}.

تواضعه وأناته:

وكان ﷺ متواضع الخلق ومتأني السيرة، وقدوةً في هذا السبيل، وعائداً في تجديد ذكريات حياة السلف الصالحين في هذا الباب. وكل من عاشره وصحبه في سفره وحلّه وترحاله شاهد ذلك بأمر عينه واعترف بفضله، وكان من حسن تواضعه ﷺ أنه كلما احتاج أن يكلم أحداً أو يشاوره لم يطلبه إليه أبداً، بل يذهب إليه بنفسه، سواء كان تلميذه أو مسترشده أو من صغار أتباعه، ولم يكن هذا إلا إتباعاً لمنهج السلف الصالحين، وكان يقول: " ينبغي أن يذهب صاحب الحاجة إلى من يحتاج إليه لا العكس، حتى إن الطبيب الذي كان من أصحابه ومحبيه وخُلص مسترشديه يتردد إليه ويكثر زيارته عند مرضه كي لا يحتاج الشيخ إليه، ولكنه ﷺ رغم ضعفه لما يحتاج إلى الطبيب كان يمشي إليه بنفسه لكي يصف له الأدوية، ولا يدعه يحضر إليه، ما لم يتعذر ذلك لمرض، وهكذا كانت الحال بين أتباعه وطلابه وخدامه الذين كانوا في بيته، لا يصغر شؤونهم، بل يراعي في ذلك احترامهم وأدبهم^{٦٩}.

^{٦٨} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٧.

^{٦٩} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٦٢.

حُبُّه للسنَّة وكرهه للبدعة:

وكان الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ منذ نشأته راغبا إلى إتباع سنة النبي ﷺ، وكرهها للبدعة والضلالة، وذلك لأنه ترعرع في بيئة الحق والإعتدال، وتربى بأيادي العلماء الحذاق في الدين والفطن في فهم مقاصد الشريعة والتراث الإسلامي، حتى صار متعودا على السنة ومخالفا للخرافات الضالة والبدعة المظلمة، وهذا الواقع قد يتجلى لنا في ضوء عدد من مؤلفاته رَحِمَهُ اللهُ التي ألفها خاصة في الرد على البدع والخرافات والرسوم والعادات الباطلة التي لم ينزل الله بها سلطان ولم يؤيدها أي برهان، ومن تلك المؤلفات كتابه القيم المعروف المسمى بـ(إصلاح الرسوم) وكذلك (تعليم الدين) وأيضا الكتب الأخرى في مختلف الموضوعات التي ساهمت في الرد على الخرافات الجاهلية، وقمع الطقوس والتقاليد الضالة، فخلال هذه الكتب القيمة أرشد الناس إلى ما هو الحق والمحجوب المرضي عند الله تعالى وما هو المنكر ومخالف العقل والشريعة^{٧٠}.

ومع ذلك لم يكتفي بالتصنيفات فقط، بل نزل في ميدان عملي من دعواته ورحلاته وسفره، حتى ترك ورائه منهجا ومسلكا لأتباعه الذين حظوا حظا كبيرا في هذا المجال بعد رحاله رَحِمَهُ اللهُ إلى الآخرة، وهذه الأنشطة منضبطة بين سطور الكتب المؤلفة في سيرته وترجمته، منها ما ذكره الشيخ عزيز الحسن رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (أشرف سوانح) بعض النماذج في هذا السبيل^{٧١}.

^{٧٠} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٥٥.

^{٧١} وذلك أن الشيخ التهانوي لما زار بنجلاديش بدأ الناس يوقرونه بلمس رجليه، وهذه كانت عادتهم من أسلافهم القديمة، بأنهم كانوا يوقرون العلماء أو كبار الشخصية بتقبيل أرجلهم ولمسها، فنهى الناس عن هذه الرسوم والعادات الغربية، ولكنهم لم يمتنعوا عن هذا، إذاً غير أسلوبه الدعوية إلى الحكمة والحيلة، وبدأ أن يفعل معهم ما كانوا يفعلون معه، ولما تحير الناس وحجلوا عن تصرفه هذا، سألهم لماذا تمنعوني عن هذا وقد كنتم تفعلونه بي القبل؟ وهل هذا لا يناسب لي؟ وإن لا يناسب لي فلماذا تفعلونه معي؟ فتركوه نادمين وخاجلين، ولم يعودوا لذلك مرة ثانية قط. أنظر: غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ١٠٢.

وهكذا حدث في قرية (أعظم كراه) حيث رأى الناس لا يدعون أحدا يمشي أمامه أو يمر قدامه، ولو تقدم أحد ومر مصادفةً جاء بعض الناس يرحفون وراء الشيخ، ففضى الشيخ على هذه العادة الشائعة الناتجة من الغلو في التقديس والتكريم، والإفراط في التوقير والأحترام، وأعلن بين الناس وقال: إن الأرض لله وحده لا يملكها أحد إلا الله، فهذا الطريق لا أملكه وحدي كذلك، ونحن سواسي في عباد الله وكل الناس مشاركون فيه سويا، فامشوا متابعا لآداب الطريق، ولا تغلوا في إحترامي. أنظر: غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ١٠٣.

مكارم أخلاقه:

وكان ﷺ متحلياً بمكارم الأخلاق من اللين والرفق والمودة، والعفو والحلم، والوقار والرزانة، والتواضع وإنكسار النفس، ففي هذه النسبة يقول الشيخ عزيز الحسن مجذوب ﷺ: "كل من رآه بعين الإنصاف والعدل تبين له هذا الواقع كالشمس في رابعة النهار، وهو أن الشيخ التهانوي كان متميزاً بميزاته الخلقية من الرقة والليونة والعفو والحلم، قلما يوجد في الآخرين من أقرانه، ولكن قليلاً ما تظهر هذه الناحية من صفاته، لأنه كان متبعاً لوسطية المنهج في كل أمور، وكان معتدلاً في كل شئون، ولم يكن فيه إفراط ولا التفريط، فلهذا كثيراً ما يخطؤون في معرفته، ويعرفونه بغلظة أخلاقه، وقسوة قلبه، ولكن الواقع كان خلافاً كاملاً عن هذا، لأنه ﷺ كان رقيق القلب، وشديد الحب للناس، ولا يستطيع أن يري أحداً قد أصابه مصيبة أو وقع في خطر إلا يهرول إلى مساعدته قدر استطاعته، وهذا الحب والرفقة ما كان للمسلمين فقط، بل لغير المسلمين أيضاً، حتى يتجاوز حده هذا إلى سائر الخلق، كما نراه بشدة حزنه وتألمه وتعاطفه للناس، لما حدثت حادثة الزلزال المفزع في (بهار) فما كان يحكم على نفسه، بل رقق قلبه رقة شديدة، وتحير حيراناً أسفاً، حتى ترك الأكل والشرب، وجعل أن يدعو ويتضرع أمام الله، فتأثر الناس بدعائه، فبكوا بكاءً شديداً أكثر مما سيكون الناس على هلاك أهلهم^{٧٢}.

وكان ﷺ يقول: إني حر في طبعي ومزاجي، ولكني لا أستطيع أن أرى أحداً (ولو كان عدوياً) يصيب الأذى، أو يعاني من المصيبة، فكلما أرى إنساناً أصابه نوع من الأذى، أو شخصاً يعاني من المصائب والمشاكل أتمنى أن أشق له عن قلبي وأشاركه في همه وغمه^{٧٣}.

وكان ﷺ يقول: "إن رأيت الخلق الحسن ومكارمه أن يهمل الرجل بأن لا يتأذى أحدٌ منه، وهو الذي علمنا رسولنا الحبيب ﷺ بقوله الحكيم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"^{٧٤},

^{٧٢} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٩٨.

^{٧٣} المصدر السابق، ص ٥٩٧.

^{٧٤} محمد بن إسماعيل البخاري (ط ٣، ١٤٢١هـ/ أبريل ٢٠٠٠م) صحيح البخاري. مصدر الكتاب: موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة. إشراف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ١٠، وباب أي الإسلام أفضل، رقم ١١، ص ٣.

وكل من تسبب في إيذاء أحد فهو داخل في نطاق سوء الخلق، سواء كان ظاهره حسن المظاهر ، أو ملون بالأدب والدين، لأن حقيقة حسن الخلق ومكارمه هي تسليم الناس من جوارحه، ومن هو خالي عن خلق حسن فهو بعيد عن خدمة الإسلام والمسلمين، لأن حسن الخلق هو أول شرط للخدمة^{٧٥}.

قناعته وعفته:

رغم توفره ﷺ كل الأسباب من الرخاء والرفاهية التي تؤدي الناس عادة إلى التفاخر وعُجب وعجرفة، إلا أنه كان بسيطاً في عيشه، وساذجاً في حياته، وزاهداً في الدنيا، ومقتنعاً بزاد قليل، وعفيفاً بأسباب يسير، ولا يلتفت إلى أصحاب المال والجاه والثروة أبداً، وما كان يجب أن يقبل هدايا الولاة والأمراء والأزراء. وكثيراً ما حدث برفض الهدايا عن الأمراء والأزراء، ولم يقبل منهم شيئاً، لأنه يرى أن هذا المال ليس من ملكية الأمراء والأزراء، بل هذا ملك لبيت مال المسلمين. والأمراء لا يحل لهم أن يبذله من حيث إشتهائهم. كما قال الشيخ التهانوي رحمه الله: "إن هذه الأموال ملكٌ لبيت مال المسلمين، ولستُ ممن يجوز له الأخذ من بيت المال"^{٧٦}. وهكذا استغنى عن الناس فأغناه الله تعالى بفضله ورحمته، ورزقه من حيث لا يحتسب، ولم يحتاج إلى الناس في عمره أبداً، و لكن أحياناً يقبل الهدايا من ساذج الناس وشرفائهم ونبلائهم من غير المفتخرين بجاههم ومنصبهم ومتواضعين لله، وذلك لإتباع السنة النبوية، ولكن بالشروط، وهذه الشروط لما توفرت قبلها وإلا فلا^{٧٧}.

وهكذا كانت حياته ﷺ مميزة بين أقرانه ومعاصريه، وهذه الميزات التي دلته إلى النبوغ في كل شؤون من الحياة، وأرشدته إلى مرامه وغايته في وقت يسير. ومآثره المنورة شاهدة على قمة نبوغه في شخصيات الإسلام. و بعد ماتوفي رحمه الله ترك للأمة الإسلامية زادا ومعادا من ثروة العلوم

و أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري بن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، مصدر الكتاب: المصدر السابق. كتاب

الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أمره أفضل، رقم ٦٤ - (٤٠) و ٦٥ - (٤١) و ٦٦ - (٤٢)، ص ٦٨٧.

^{٧٥} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٩٧.

^{٧٦} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ١٠٩.

^{٧٧} المصدر السابق، ص ١٠٩ - ١١٠.

الإسلامية والثقافة الدينية، وبقي اسمه مرصعاً ذهبياً في تاريخ رجال الهند حتى الآن، وشعب الهند لا ينسى نصيبه في الدين أبداً.

المبحث الرابع

أهم شيوخه وأثرهم العلمي والديني على حياته ﷺ

كان السلف من هذه الأمة يحرصون على تلقي العلم من أفواه الشيوخ إتباعاً لمنهج أصحاب النبي ﷺ، وحرصاً على بركة العلم والإسناد، وخوفاً من التصحيف والوهم، ونظراً لندرة الكتب، ولذلك كان التلقي سنة متبعة يحرص عليها الجميع، وقد أدى ذلك بطلبة العلم إلى لقاء كثير من الشيوخ والأخذ منهم، حتى صارت كثرة الشيوخ علامة على غزارة علم العالم كما صارت موضع فخر مما حدا بكثير منهم إلى تأليف كتب خاص ومعاجم لذكر شيوخهم^{٧٨}.

وقد ظل الأمر على ذلك إلا أنه بدأ الإهتمام يقل تدريجياً وبخاصة بعد ظهور المطابع وإنتشارها فقد أصبح طلبة العلم يعتمدون على الكتب إلى جانب الشيوخ إضافة إلى أن الإسناد لم يعد بالإهمية التي كان عليها عند المتقدمين، وبالتالي فقد أصبحت الطريقة المتبعة في طلب العلم أن يلازم الطالب شيخاً مشهوداً له بغزارة العلم أو عدة شيوخ مدة طويلة فيأخذ عنهم سائر العلوم.

فإمامنا الشيخ التهانوي ﷺ رغم ولادته بعد إنتشار الطباعة، قد متعه الله بأساتذة وشيوخ كثيرين، الذين كانوا على قمة البراعة والمهارة في زمنهم في مختلف العلوم وشتى الفنون، وكان من أشهرهم وأبرزهم فيما يلي.

الشيخ العلامة محمود حسن الديوبندي:

هو الشيخ العلامة المحدث محمود حسن الديوبندي^{٧٩}، ابن الشيخ العالم الأديب شاعر العربية ذو

^{٧٨} منها: مشيخة ابن طهمان ت ١٦٣هـ، معجم الشيوخ للصيداوي ت ٣٠٥هـ، ومعجم الشيوخ لأبي يعلى المصلي

ت ٣٠٧هـ، ومعجم الشيوخ للإشبيلي وغير ذلك.

^{٧٩} كانت هذه العبقرية له مكانة سامية في تاريخ علماء الهند، وله حظ كبير في الجهاد ضد المستعمرين، حتى حاربهم في كل ميادين الحرب، سواء كان في ميدان الأسلحة أو في السياسة، وفي المناظرات، وفي التصانيف وغيرها. وكان آية باهرة في علوم الهمة وبعده النظر والأخذ بالعزيمة، جيد المشاركة في جميع العلوم العقلية والنقلية، ومطلعاً على

الفقار علي الديوبندي المتوفى ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م، وكان والده ذو الفقار علي أستاذاً في كلية إنكليزية. فقد ولد رحمته عام ١٢٦٨هـ الموافق ١٨٥١م بمدينة (بريلي) في ولاية (أترا براديش) وكان

التاريخ، كثير الحفظ للشعر، وأعلم العلماء في العلوم النافعة، وأحسن المتأخرين ملكة في الفقه وأصوله، وأعرفهم بنصومه وقواعده.

وكان كثير الأدب مع المحدثين والأئمة المجتهدين، تلوح على محياه أمارات التواضع والحلم، وتشرق أنوار العبادة والمجاهدة في وقار وهيبة، وكان محياً للجهاد في سبيل الله وشديد البغض لأعداء الإسلام، كثير التواضع، دائم الابتهاج، ثابت الجأش، وكان رائد النهضة العلمية والسياسية في شبه القارة الهندية حتى تمكن في قلوب الشعب الهندي بلقبه المشهور "شيخ الهند" وذلك لأنه بذل جهده الكريم للمكافحة عن مجد الإسلام والمسلمين في الهند، وجاهد في الله حق جهاده، فترك ورائه أتباعاً روحياً الذين نشروا عملية الجهاد في شبه القارة الهندية لطردهم الكفرة الطاغين والباغين المستعمرين في الهند المسلمة منذ قرنين، ووضع خطة محكمة لتحرير الهند من محالب الاستعمار الإنجليزي عام ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م، وكان يود أن يستعين فيها بالحكومة الأفغانية والخلافة العثمانية. وقد هيأ لذلك جماعة من تلاميذه تمتاز بالإيمان القوي، والطموح، والثقة بالنفس، والتوكل على الله، والحزم وثقوب النظر. وكان من بينها الشيخ عبيد الله السندي (المتوفى ١٣٦٣هـ ١٩٤٤م) والشيخ محمد ميان منصور الأنصاري (المتوفى ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م) وكان الاتصال يتم بينه وبين تلاميذه وأصحابه المناضلين عن طريق الرسائل التي كانت تُكْتَب على الحرير الأصفر، ومن هنا عُرف نضاله ضد الاستعمار بحركة الرسائل الحريية. ولتنفيذ خطته سافر إلى الحجاز عام ١٣٣٣هـ، الموافق ١٩١٥م، وقابل في المدينة المنورة كبار المسؤولين عن الخلافة العثمانية، ولكن من سوء الحظّ اطّعت حكومة الاستعمار الإنجليزي على الرسائل الحريية عام ١٣٣٤هـ، الموافق ١٩١٦م، وألقت عليه القبض عن طريق الشريف حسين أمير مكة - الذي كان قد خرج على الدولة العثمانية - في صفر ١٣٣٥هـ، الموافق نوفمبر ١٩١٦م، ومع عدد من تلاميذه وأصحابه، من بينهم الشيخ السيد حسين أحمد المدني المتوفى ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م، ونفوا إلى "جزيرة مالطة" وسُجِنُوا بها، حيث لبثوا فيها نحو ثلاث سنوات وشهرين، وأطلق سراحهم في جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ، يناير ١٩٢٠م، ووصل الشيخ الهند يوم ٢٠ رمضان ١٣٣٨هـ الموافق ٩ مايو ١٩٢٠م وتلقاه الناس بحفاوة غير عادية، وغلب عليه لقب شيخ الهند واستقبل في كل مكان استقبالاً لم يعهد الناس مثله.

ورغم كبر سنه وضعفه ومرضه وكونه مُحَطَّماً لطول الأسر في الغربية، لم ير أن يستحم في وطنه ديوبند، وإنما ظل يزور ويجول في أرجاء البلاد يدعو الشعب إلى النضال ضد الإنجليز ومقاطعتهم، من خلال خطبه ومحاضراته. وفي هذه الحالة سافر إلى عليجراه ووضع حجر الأساس للجامعة المليية الإسلامية يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٢٠م (١٦ صفر ١٣٣٩هـ) وقد انتقلت فيما بعد إلى دهلي.

وقد تشرف رحمته بنقل ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية وهي من أحسن التراجم الأردية وأكثرها قبولاً ورواجاً (وقد قام مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة بطباعة هذه الترجمة مع التفسير عام ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٩م بعدد مئات الآلاف و توزيعها على المسلمين في العالم) وأضاف إليه تلميذه العلامة شبير أحمد العثماني المتوفى (١٣٦٩هـ ١٩٨٩م)، تعليقات مفيدة عُرفَت بالتفسير العثماني. أنظر: موقع إنترنت، [www.darululoom-](http://www.darululoom-deoband.com)

[deoband.com](http://www.darululoom-deoband.com)

على رأس الدفعة الأولى من الطلاب الذين التحقوا بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، حيث كان لدى تأسيسها يوم الخميس ١٥ محرم، ١٢٨٣هـ، الموافق ٣٠ مايو ١٨٦٦م، يجتاز المراحل الثانوية من تعليمه، فالتحق بها وتخرّج منها عام ١٢٩٠هـ، الموافق ١٨٧٣م. وولّي التدريس بالجامعة عام ١٢٩١هـ، الموافق ١٨٧٤م، ثم مُنح الترقية و بات رئيس هيئة التدريس بها عام ١٣٠٨هـ، الموافق ١٨٩٠م، تخرج عليه كبار العلماء في الهند. واستأثرت به رحمة الله تعالى بعد خدمته الطويلة في صباح يوم ١٨ ربيع الأول ١٣٣٩هـ، الموافق ٣٠ نوفمبر ١٩٢٠م، وذلك في دهلي حيث كان يتلقى العلاج. ونقل جثمانه في اليوم التالي إلى ديوبند، ودفن بجوار أستاذه العظيم الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفى ١٢٩٧هـ، الموافق ١٨٨٠م، في المقبرة الجامعية التي عرفت بالمقبرة القاسمية^{٨٠}.

الشيخ المحدث محمد يعقوب النانوتوي:

هو العالم الكبير المحدث الجليل محمد يعقوب ابن الشيخ مملوك علي النانوتوي (المتوفى ١٢٦٧هـ) أحد الأساتذة المشهورين في الهند. ولد سنة ١٢٤٩هـ، الموافق عام ١٨٣٣م ببلدة (نانوتة) بمديرية سهارنبور بولاية يوبي، بالهند، وتوفي بها سنة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٤م. قرأ الكتب الدارسية معقولاً ومنقولاً على أبيه الشيخ مملوك علي بمدينة دهلي، حيث كان رئيس هيئة التدريس في كلية دهلي العربية، ثم درس وأفاد بـ(أجمير)، وبعد مدة وُلّي التدريس بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند، فدرّس بها مدة، و أخذ عنه خلق لا يحصون، وشغل بها كرئيس المدرسين، وقد ظهر تقدمه في فنون شتى، منها الفقه، والأصول، والحديث النبوي، والأدب العربي، وكذلك أحياناً يرغب إلى الشعر العربي، وله مآثر في هذا المجال التي تدل على مكانته القيمة في الشعر العربي، رحمه الله رحمة واسعة^{٨١}.

^{٨٠} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي النهانوي، ص ٣٢.

^{٨١} الشيخ المقرئ محمد الطيب القاسمي (ط ٣، ٢٠٠٢) تاريخ جامعة ديوبند، "بالأردية". الهند: مكتبة دار العلوم ديوبند، ج ٢، ص ١٧١-١٧٧. وعبد الحي الحسيني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج ٨، ص ٥٥٠-٥٥١.

الشيخ الفقيه منفعت علي الديوبندي:

هو الشيخ العلامة الفقيه مولانا منفعت علي الديوبندي، أحد كبار العلماء والمشايخ والفقهاء الربانيين الذين نفع الله الخلق بعلمهم وتربيتهم نفعاً كبيراً. ولد ونشأ بديوبند، وكان أحد طلاب البارزين في جامعة دار العلوم ديوبند، وتلمذ على العلامة يعقوب بن مملوك النانوتوي والشيخ السيد أحمد الدهلوي وكثير من العلماء والأساتذة المشهورين في مختلف الفنون والعلوم في دار العلوم ديوبند، وما زال طالبا في هذا المدار العلوم ثمان سنوات، حيث إلتحق فيها سنة ١٢٨٤هـ، وتخرج فيها سنة ١٢٩٢هـ. وفي هذه الفترة القيمة من حياته أتقن في علوم شتى من العلوم الدينية والعصرية الحديثة، من الفقه والفرائض الهندسة والهيئة والحساب وغير ذلك، ثم تولى التدريس بهذه المدرسة، وظل فيها مدرّسا ستة وعشرين سنة، ثم إعتزل عنها وخالف أعضاء المدرسة في نظامها وذلك في سنة ١٣١٨هـ، وبدأ التدريس في مدرسة فتحفور وتبقى فيها فترة يسيرة، ثم إنتقل إلى جامعة العلوم بكانفور، وبرع فيها كأستاذ للعلوم الحديثة والدينية من الهيئة والهندسة والحساب والفقه والفرائض وما هي على شاكلتها، وله رسالة صغيرة بالأردو في المواريث، وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي المبادي من المواد العربية، توفي رحمه الله تعالى في كانفور لسبع خلون من ذي القعدة سنة سبع وعشرين وثلاثمئة وألف^{٨٢}.

الشيخ الجليل العالم الرباني الفقيه الحنفي عبد العلي بن نصيب علي الميرقي:

أحد النابغين من أعلام الهند المشهورين في ساحة العلم والزهد، ولد هذه الشخصية الجليلة في قرية عبد الله فور من أعمال ميرته، ونشأ في بيئة العلمية والتقوى، وقرأ العلم على الشيخ محمد قاسم النانوتوي (المؤسس لدار العلوم بديوبند)، والشيخ أحمد علي السهارةفوري والشيخ فيض الحسن السهارةفوري، وعلى كثير من العلماء الربانيين الأفاضل.

قضى حياته في النشاط العلمي منذ بكورة حياته، فبدأ تدريسه من المدرسة العربية بديوبند، ثم أختير لرئاسة التعليم في مدرسة المرحوم حسين بخش بدلهلي، وذلك في سنة إثني عشرة وثلاثمئة وألف هجرية، وكان رحمه الله تعالى خاضعا لله كثير التواضع والرفق والمودة، طارحا للتكاليف، كثير الضيافة موسراً، تخرجت عليه كواكب من العلماء الباهرين في أعلام النبلاء من الهند، ومن هذه

^{٨٢} عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج ٨، ص ٤٨٢.

الأعلام المشاهير شيخنا التهانوي، والشيخ أنور شاه الكشميري، والشيخ حسين أحمد المدني الفيض آبادي، الشهير بشيخ الإسلام وغيرهم الذين تنتهي إليهم رئاسة العلم والزهد والإصلاح، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة أربعين وثلاثمائة وألف هجريةً، ودفن في مقبرة الشيخ ولي الله الدهلوي^{٨٣}.

الشيخ الجليل المقرئ الشهير محمد بن عبد الله المهاجر المكي:

كان من كبار القراء من السفارة الكرام البررة، مشتهرا بين العرب والعجم بمهارته القرآنية، الذي ترك في مثآثره الخالدة الأتباع المنورين الماهرين في ميدان القراءة، وكثير من الأساتذة والطلبة استفادوا من فيوضه العلمية، حتى تمكن مكانة التوقير والإحترام بين العرب والعجم، ولقد رزقه الله تعالى من نعمة الصوت الحسن والبراعة في فن القراءة والتجويد ما لم يشاهده العالم إلا قليلاً، فاستفاد منه شيخنا التهانوي كثيراً في القراءة وضبط منه علم التجويد، وتدرّب عليه ترتيل القرآن الكريم وذلك في مدرسته الصولتية^{٨٤} الشهيرة بمكة المكرمة^{٨٥}.

الشيخ مُلاً محمود: كان من أساتذته البارعين الذين أثروا في حياته كثيراً علماً وعملاً، وقد قرأ عليه شيخنا التهانوي بعض كتب الحديث^{٨٦}.

الشيخ سيد أحمد: من أحد الحاذقين في علم المعقولات، وكان ذكياً ذا معرفة عميقة في فنون شتى من الرياضة والهندسة والمواريث، لقد أعطاه الله تعالى فطانةً عديمة النظر عن أعين الناس، وقد قرأ عليه الشيخ التهانوي الفنون الرياضية والمواريث^{٨٧}.

^{٨٣} عبد الحي الحسيني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج ٨، ص ٢٦٧.

^{٨٤} وهي مدرسة أسست في سنة ١٢٨٥ هـ التي يعتبرها أول مدرسة في المملكة السعودية وكانت مشهورة ومرجعة للعلوم والمعار الإسلامية في ذلك الزمان، وسميت هذه بالصولتية في سنة ١٢٩١ هـ نسبة إلى المرأة الهندية وكان إسمها صولت النساء، التي تبرعت مشروعاً كبيراً لبناء هذه المدرسة. الشيخ الكيرانوي كان مديراً ومدرسا لهذه المدرسة حتى آخر حياته بوفاته في ٢٢ من شهر رمضان ١٣٠٨ هـ، وقد زار الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله هذه المدرسة في ٢٨-٦-١٣٤٤ هـ، وأثنى على القائمين عليها، وما زالت هذه المدرس قائمة على شأها بدورها العلمي حتى الآن. أنظر:

محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٤٠.

^{٨٥} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٦٠.

^{٨٦} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣٩.

^{٨٧} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٥٧.

وهكذا انعم الله تعالى على شيخنا التهانوي بأساتذة المتفوقين في كل فنون علمية، وتربى بأيديهم حق التربية، و مازال يستفيد من علومهم وصحبتهم كثيراً، حتى وصل إلى قمة سنام السعداء في الإسلام .

أثرهم العلمي والديني على حياة التهانوي رحمته الله

كما نعرف أن الشيخ التهانوي رحمته الله قضى حياته الكاملة في مختلف الخدمات الدينية، فهو كان في ناحية داعياً كبيراً في ساحة الدعوة الإسلامية، وزاهداً مخلصاً ومرشداً في السلوك والإحسان، وفي ناحية أخرى كان عالماً فذاً مرجعاً في التربية والإرشاد للعلماء والعوام، وله دور واسع في كل ميادين العلوم الإسلامية، حتى لم يترك أى مجال من العلوم الإسلامية إلا وأخذ القلم فيها، وكان مرجعاً للعلماء السياسيين والأمراء المخلصين، واستفاد منه الآلاف من العلماء والمتصوفين والسياسين والدعاة، وهو الذي أثار في الهند مصابيح التجديد، باهرة الشعلة، ساطعة النور، فهذه كلها كانت من آثار المنورة من مشائخه الأفاضل المخلصين في حياته رحمته الله، الذين كانوا كالزهور، مختلفة الألوان والرائحات في روضة الإسلام، وكانوا من نوادير المثال في تاريخ عباقرة الإسلام، كما شاهده العالم بخدماتهم في شتى المجال، من الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، والتعليم والتدريس، ولهم تصانيف في كل زاوية الإسلام، ولهم جهود في دعوة الحق والإيمان، وإنطلاقهم في درجات الإحسان. فاستفاد التهانوي رحمه الله تعالى منهم بكثير، وحاول أن يجمع من مختلف شيوخه مختلف الميزات القيمة في ذاته، كأنه ملتصق بالنور من منابع مختلفة، فاستفاد استفادة كبيرة من كل منابع ثم نشره في ساحة البشرية.

وفي الحقيقة الخدمات الدينية التي نشاهدها في تاريخ الهند كلها ترجع إلى شخصية واحدة، وهو شاه ولي الله المحدث الدهلوى، فلما توفي هذه العبقرية ملأت البقعة الهندية برجال الدين المخلصين، معلنين بكلمة الحق والتوحيد، وكم من مثال أقدم؟ والتاريخ يتكلم بلسانه السديد، فلا خفاء لهذا، فبعض منهم أخذوا على يدهم ذمة الجهاد وحاربوا أعداء الإسلام حتى أستشهدوا، ومنهم بذلوا جهودهم كاملة في الدعوة الإسلامية حتى ظهر الحق بوجوهه البيضاء، وكم منهم العلماء سهروا الليالي في حصول العلم والتعليم والتصنيف، وقضوا حياتهم في الحراسة على عقيدة الإسلام وتنقيح دورها وتلويح رشدتها الصحيح، ففي هذه النسبة ترك هؤلاء الرجال في مآثرهم ثروة عظيمة من

التصانيف، وتركوا وراءهم الاتباع المخلصين من العلماء والمجاهدين والمتصوفين، فهذه الشخصيات الأولين السابقين وحياتهم الدينية والعلمية كانت إماما وأسوة للشيخ التهانوي، فكان بعض منهم أساتذته في التربية والتعليم، وبعضهم كانوا مرشدين له في السلوك والإحسان. فهكذا استفاد الشيخ التهانوي من مختلف شيوخه وأساتذته علما وسلوكا وإحسانا وأخلاقا، وتأثر من حياتهم تأثرا دينيا في مختلف المجال.

الفصل الثاني: الشيخ التهانوي ومآثره العلمية والدينية في شبه القارة الهندية

ويحتوي هذا الفصل على:

المبحث الأول: تدريسه في المراكز الدينية، وأهم نصائحه لطلبة العلم

المبحث الثاني: أهمّ تأليفاته ومواعظه الدينية

المبحث الثالث: دوره التجديدي في التصوف الإسلامي، وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: مفهوم التجديد وأهم وسائل تجديده ﷺ

المطلب الثاني: جهوده التجديدية في مجال السلوك والإحسان

المطلب الثالث: أهم أتباعه في مجال السلوك والإحسان

المطلب الرابع: جهوده في جمع الأحاديث الشريفة في أبواب التصوف

وأشهر تصنيفاته في هذا الباب

المبحث الرابع: وفاته وأهم توصياته للمسلمين

المبحث الأول

تدريسه في المراكز الدينية، وأهم نصائحه لطلبة العلم

بعد ما بذل جهوده المتواصلة والمتداولة في الحصول على العلوم الإسلامية في المدارس المختلفة، تحت رعاية أساتذته البارعين في الفنون الإسلامية، قد تخرج في دار العلوم ديو بند سنة ١٣٠٠هـ وفق ١٨٨٢م، فأشار عليه أساتذته بإنشغال نفسه بمهام التدريس في إحدى المدارس الدينية، فقدم نفسه لهذه الخدمة بإخلاص نيته وصفاء قلبه، فسافر إلى كانفور ومكث فيها أربع عشرة سنة في خدمة مختلف المراكز الدينية. وقد ترقى الشيخ بكثير خلال هذه الفترة من حيث مواعظه وتصنيفاته، واشتهر بعقريته بين شعب كانفور شهرة وافية وذلك في وقت يسير. وأكبر الخدمة التي أنجزها الشيخ في هذه الفترة هي مجموعة من مجموعات الفتاوى في المسائل الدينية والشئون المختلفة من الحياة، وهذه المجموعة من الفتاوى ما زالت محفوظة في مكتبة مدرسة كانفور^{٨٨}، حتى صارت بعد ذلك مجموعة كبيرة بشكل كتاب ضخمة^{٨٩}.

مدرسة الفيض العام:

هذه المدرسة مشهورة بين العلماء منذ نشئتها، وتسمى بـ(الفيض العام) التي تقع في مدينة (كانفور) وهي مدينة صناعية كبيرة تقع على بُعد ثمانين كيلو ميترًا من العاصمة لكونو، وهي

^{٨٨} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٦٤.

^{٨٩} جدير بالذكر، أن خدمته في مهام الإفتاء بدأت منذ مبكرا من زمن دراسته في دار العلوم بديوبند، خلال تدريسه في الفتاوى تحت إشراف أساتذته الماهرين في هذا الفن، وكان من عاداته رَحِمَهُ اللهُ أن يضبط كل ما صدرت منه أيام تدريسه بهذا المهام، فلذا نرى أن مجموعة فتاواه تنقسم إلى ثلاثة أقسام نظراً إلى زمن الإفتاء: القسم الأول: هو الفتاوى التي صدرت منه رحمه الله أيام تربيته عليها تحت إشراف شيخه، وذلك من عام ١٢٩٧هـ إلى ١٣٠٠هـ.

القسم الثاني: هو الفتاوى التي صدرت أثناء إقامته في كانفور خلال فترة من ١٣٠١هـ إلى ١٣١٥هـ.

القسم الثالث: هو الفتاوى التي صدرت منه في فترة إقامته بالدوام في تمانه بمون وذلك من عام ١٣١٥هـ إلى ١٣٢٥هـ. وقد قام الشيخ رحمه الله بمراجعة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله في القسم الثالث من فتاواه، واستفاد منه أشياء كثيرة، والفتاوى التي صدرت منه بعد هذه الفترة كانت تسمى بـ(تنمة الفتاوى)، وأخيراً تمت طباعة كل هذه الفتاوى بمجموعة مرتبة، مزينة بالهوامش والتعليقات في عام ١٣٧١هـ في ستة مجلدات ضخمة. أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١٣٠ - ١٣١.

المدرسة التي يدرّس فيها عبقرية الزمان فحل العلماء والمحدثين من مهرة الكرام والسفرة البررة الشيخ أحمد حسن الأمروهي^{٩٠}، الذي كان من الأساتذة المعروفين النابغين في جميع العلوم، لاسيما في العلوم العقلية، وقد واجهه بعض ما يكره من قبل أصحاب المدرسة فاستقال عن التدريس فيها وأسس مدرسة أخرى. فطلب المسئولون من علماء ديوبند أن يبعثو إليهم أستاذا يكون خلفا للعلامة أحمد حسن، ويسد الفراغ الذي حصل بغيابه، فوعدت أنظارهم على الشيخ التهانوي (وقد تخرج التهانوي في نفس السنة وهي في آخر سنة ١٣٠٠هـ) ورشّحوه واختاروه لإنجاز هذه المهمة، لما رأوا فيه من النباهة والذكاء والمواهب العلمية والدعوية، بجانب الرسوخ في العلم والتضلع من الفنون المختلفة، والتفوق في مجال التدريس.

وهكذا بدأ الشيخ التهانوي حياته العلمية بقيام مهام التدريس والإفادة في مدرسة (الفيض العام) وذلك في صفر ١٣٠١هـ، وبهذه بدأت رحلاته العلمية لإفادة الناس في مطلع القرن الرابع عشر. كما يقول الشيخ تقي العثماني خلال تعريف الشيخ التهانوي في مقدمة "القواعد في علوم الحديث": "وبالجملة قد اشتغل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في (كانفور) بالتدريس والدعوة والإرشاد والتأليف، وسرعان ما اشتهر فيما بين الطلبة بغزير علمه وحسن تدريسه وقوة خطابه، على رغم أنه تولى منصب شيخ محنك وهو في ريعان شبابه"^{٩١}.

فبدأ حياته العلمية ولم يتجاوز عشرينيات من عمره، ولم تنبت له لحيته بكاملها، وبدأ تدريسه مباشرة من غير تجربته في هذا المجال من قبل، ومع ذلك أنه عُيّن للمواد العالية من كتب الحديث والكتب من المواد الأخرى التي لا يدرسها إلا لمن له المهارة والخبرة القديمة في هذا المجال، ولكنه

^{٩٠} هو الشيخ العالم الجليل فقيه الزمان، أحمد حسن الحنفي الأمروهي، أحد الفحول العلماء المشهورين بسعة العلوم خاصة في علم الكلام والمنطق، قرأ على الشيخ محمد قاسم النانوتوي وغيره من العلماء، وأسند الحديث عن الشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارةفوري والشيخ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري والشيخ عبد القيوم البكري، وسافر إلى الحجاز فتشرف بالحج والزيارة، وأدرك هناك درس الحديث من الشيخ عبد الغني الدهلوي، فحصل على سند الحديث منه، وكان رحمه الله حسن الصورة، حلو الكلام، مليح الشمائل، قوي الصلة مع الله، ومتاسبقا في مجال التقوى، كثير الدروس والإفادة، توفي رحمه الله سنة ١٣٠٠هـ. أنظر: عبد الحي الحسيني، نزهة الخواطر: ٤١/٨. و غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٦٤.

^{٩١} ظفر أحمد العثماني التهانوي (ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م) إعلاء السنن. بيروت: دار الفكر، ص ١٣-١٤.

أبدى عبقريته ولياقته في التدريس والتعليم حتى تمكن بمكانته العالية بين طلبة الدين وأساتذته، وكان الشيخ أحمد حسن يحبه كثيرا لهكذا مكانته العلمية^{٩٢}.

نقده على بعض نظام المدرسة وأخيرا استقالته عنها:

وقد مكث رحمته في هذه المدرسة أربعة شهور، وخلال هذه الفترة أنه واجه بعض الأمور التي تخالف أفكاره وتعارض عن مقاصد الشريعة، منها حصول التبرعات من الناس، وطلب المساعدة المالية عن الناس لهذه المدرسة، وأيضاً طلب مشاركة الأساتذة لهذا البرنامج إجبارياً، فخالف التهانوي بهذه العادات، لأنها وفق نظره تخالف على عظمة الشريعة وهيبتها، واعتبرها من أسباب إهانة العلماء وطلاب الدين، لأن السؤال عن الناس بالأموال لا يزيد إلا الذل والإهانة، التي تقل هيبة العلماء أمام عامة الناس، وهي لا تليق لشأن علماء الدين وطلابه، لأن الدين يكرم ولا يوهان، وكذلك على أساتذة الدين وعلمائهم أن يتفرغوا للتعليم وتدريب الطلاب فقط ولا غير، وبعيد ما يشتغلوا بأمر حقيرة^{٩٣}.

هذا كان رأيه رحمته، ولكن بعض أعضاء مجلس المدرسة لم يوافقوا في هذا الأمر بل انتقدوا رأيه عليه، فأختار أنه سترك هذه المدرسة ويرجع إلى بلده، ولكن الرجوع لم يُقدّر في قدره منذ نشأته رحمته، بل اختارته القدرة الإلهية لخدمة دينه بطول حياته، فلذا لم يرحص شعب كانفور للرجوع إلي بيته، بل أرادوا أن يؤسسوا مدرسة خاصة للاستفادة من فيوضه العلمية رحمته، حيث أنهم أسسوا مدرسة علي نهج جديد، مراعيًا على تدريس العلوم الإسلامية مع مقارنة العلوم الأخرى من الفلسفة والمنطق والحكمة وما إلى ذلك، فلذا تسمى هذه المدرسة بمدرسة جامع العلوم، لأنها جامعة بين العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى^{٩٤}، وهذه المدرسة ما زالت باقية حتى اليوم ومستمرة في خدمة تعليم الدين^{٩٥}.

^{٩٢} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٦٤.

^{٩٣} المصدر السابق، ص ٦٥.

^{٩٤} المصدر السابق، ص ٦٦.

^{٩٥} ظفر أحمد العثماني التهانوي، قواعد في علوم الحديث، من كلمة محمد تقي العثماني ص ١٤.

مدرسة جامع العلوم:

وهكذا تحول ﷺ من مدرسة فيض العام إلى مدرسة جامع العلوم، مدرسة جديدة أسست على التقوى والإخلاص، وهي تقع في الحي (تاكفور) في نفس المحافظة (كانفور)، تقترن مع الجامع الكبير في هذه المنطقة. وقد أعجب أهل المدينة كلهم بالشيخ أيما إعجاب، وطارت شهرته في فترة بسيطة، ونال أهلها دروسه وخطبه ومحاضراته، ومواعظه الإصلاحية، قبولاً وشهرة لدى الخواص والعوام بالاطلاق، وفيها تلمذ على يده خلق كثير^{٩٦}.

مكث الشيخ التهانوي في هذه المدرسة زهاء أربع عشرة سنة، يفيد الناس بدروسه ومواعظه وتصانيفه، ويجوز ثقة الناس والأساتذة والطلاب، وقد ألقى الله تعالى في قلوبهم حبه واحترامه وتوقيره حتى أنصبوا مكانته في قمة عالية بين العلماء، وهم لا يرجحون أي أقوال إلا أن يسمعوا منه، وكثيراً ما يقبلون رأيه بلا تردد ولو يخالف معتقداتهم قديمة من آبائهم^{٩٧}.

وقد استغل الشيخ التهانوي هذا الحب والتوقير والعلاقة الوطيدة في تحقيق أهدافه الدعوية والإصلاحية، واغتنم الفرص المتاحة له في سبيل نشر السنة وتطهير المجتمع عن أدناس البدع والخرافات، كالقيام عند الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في مولده معتقداً أن النبي يحضر في هكذا الحفلات بذاته، وكذلك حل بعض المعضلات العلمية والتاريخية التي كانت قد تسببت في تفريق كلمتهم وتشيت شملهم، وومن ضمنها ما وقع فيه الناس من سوء الفهم تجاه علاقة الصحابي الجليل سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مع الخليفة الراشد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قام الشيخ التهانوي بالكشف عن الحقائق التاريخية، وإزالة الأفهام الخاطئة، وذلك بأسلوب علمي رصين، ومنهج دعوي قويم، وبالْحِكْمَةِ والمواعظ الحسنة^{٩٨}.

منهجه في التدريس:

تتميز طريقة الشيخ التهانوي ومنهجه في التدريس والإفادة بخصائص وميزات، قد لا يجدها الطلاب عند الآخرين، ومن أهم مزاياه في هذا الجانب هو سلاسة لسانه، وسهولة بيانه، وحله الغوامض

^{٩٦} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٦٦

^{٩٧} المصدر السابق، ص ٦٦-٦٨.

^{٩٨} المصدر السابق، ص ٦٧-٧٠.

والقضايا الصعبة بأسلوب سهل، حتى يظن الطلاب أنها سهلة وأمر يسير للفهم، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك، فلذا كان الطلاب مشتاقين إلى حضور محاضراته خاصة، ولا يتمتعون في محاضرة الآخرين كما يتمتعون في محاضرة الشيخ^{٩٩}.

ومن هنا يقدم رَحْمَةُ اللهِ بِعِضِ خَبْرَاتِهِ وَإِرْشَادَاتِهِ فِي أَصُولِ التَّدْرِيسِ، وَالْأَسْلُوبِ الَّتِي تَهْتَمُ فِي مَجَالِ التَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيسِ وَهِيَ كَمَا نَذَكَّرُهَا فِيمَا يَلِي:

١- ينبغي للمدرس أن يقدم محاضراته بأسلوب يسير وسهل، وهذا لا يمكن إلا بالاستعداد السابق الذي يحصل بالمطالعة العميقة قبل أن يحضر المدرس في محاضراته، فلذا لازم للمدرس أن يطالع مادته جيداً للاستعداد السابق.

٢- وكذلك لا يناسب للمدرس أن يخبر الطلاب على أن موضوع المحاضرة هذا صعب للفهم ومشكل الحل، بل يقدم تقريره بأسلوب سهل بدون إشعار الطلاب عن حقيقته الغامضة والمعضلة، كي لا يخاف الطلاب عن هذا الموضوع ويرغب عنه.

٣- وينبغي للمدرس أن يقدم تقريراته بكلمة قصيرة التي تقل ولكنها تدل على معناها، ويكتفي حسب ما تقتضيه الحاجة، ولا يتطرق إلى التطويل والإطناب لأن الكلام الطويل يؤدي إلى تشويش أذهان الطلاب، فكثيراً ما يختلط الأمور في أذهان الطلاب بسبب التطويل في الكلام رغم الموضوع أمر سهل ويسير في الفهم^{١٠٠}.

أهم نصائحه لطلبة العلم:

وهناك بعض الإرشادات المهمة قد أشار إليها الشيخ التهانوي لطلبة الدين، وهي لما التزمها الطلاب أمكنهم إيجاد موهبة علمية بكل يسيرة وسهولة، وهي كما تلي.

١- أن يقوم الطالب بمطالعة ما يدرسه لاحقاً في محاضرة يوم التالي، وليس من اللازم أن يحل درس بكامله في مطالعته هذه، وإنما المقصود هو أن يميز بين ما يعلمه وما يجهله، حتى يتسنى له التركيز على ما يجهله بشكل أكثر.

٢- أن لا يبدأ في المسئلة القادمة قبل أن يتقن فهم المسئلة السابقة .

^{٩٩} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٧٠-٧٢.

^{١٠٠} المصدر السابق، ص ٧١-٧٢.

٣- أن يعيد تقرير المسائل نفسها التي درسها عند الشيخ.

٤- أن يراجع ويذاكر ما درسه في السابق^{١٠١}.

هكذا مازال يفيد أبناء العلم متعلما ومعلما في كانفور زهاء أربع عشرة سنة، وفي هذه الفترة تلمذ على يده خلق كثير من حملة العلم وأولي العرفان الذين سلكوا بعده على نهجه القيم، وتركوا في متأثرهم خدمة وافية في مجالات مختلفة من الدين، وصاروا فيما بعد قادة لأمة الإسلام، فمن أهم هؤلاء التلامذة البارزين القادة والعلماء: الشيخ ظفر أحمد بن أحمد بن لطيف العثماني التهانوي^{١٠٢}

^{١٠١} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٧٠-٧٣.

^{١٠٢} وهذه الشخصية ولدت في ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٠هـ، بدار أبائه بقرب دار العلوم بديوبند، بدأ رحلته العلمية من بكورة عمره، وتعلم عند الأساتذت البارعين في مختلف مراكز الدينية في زمنه رحمته، ولكنه استفاد من صحة خاله الشيخ أشرف علي التهانوي رحمته كثيرا. ولما فاز بسند الإتمام والفراغ من الدراسات العليا في سنة ١٣٢٨هـ، وكانت سنه حينئذ ١٨ سنة، عُيِّن مدرسا في المدرسة مظاهر العلوم بسهارنפור، فدرّس فيها زهاء سبع سنين علم الفقه والأصول والمنطق وغيرها ثم انتقل إلى مدرسة (إمداد العلوم) في تمانه بهون، واشتغل بتدريس كتب السنة المقررة في هذه المدرسة، وهي الكتب السبعة كما سبق ذكرها، وتدريس الفقه والتفسير، فأفاد وأجاد، وتخرج على يده جموع من من العلماء الأفاضل، ونشروا العلم في تلك الربوع وأناروا مسالك الشريعة للناس.

ثم فوض إليه الشيخ التهانوي تأليف كتاب "إعلاء السنن" مع الإفتاء والتدريس، فقام بكل ذلك خير قيام، وبقي في تأليف نحو عشرين سنة، فألفه في ١٨ مجلداً، وألف له مقدمتين في جزئين أيضاً، فهكذا تم هذا الكتاب في عشرين جزءاً، ثم أمره الشيخ التهانوي بتأليف "دلائل القرآن على مسائل النعمان" على منوال "أحكام القرآن" للجصاص، وقد ألف منه مجلدين كبيرين انتهيا بسورة النساء، وألف كتبا عديدة بالأردية منها "القول المتين في الإخفاء بآمين" و"شق الغين عن حق رفع اليدين" و"رحمة القدوس في ترجمة بحجة النفوس" و"فاتحة الكلام في القراءة خلف الإمام". و"كشف الدجى عن وجه الربا" باللغة العربية، و"إمداد الأحكام في مسائل الحلال والحرام" في سبع مجلدات ضخمة.

ثم انتقل إلى المدرسة المحمدية في رنكون في (بورما)، واشتغل هناك بالتبليغ والتذكير والوعظ زهاء سنتين، ثم رجع إلى تمانه بهون وتابع في تأليف "دلائل القرآن" مع اشتغاله في أمور المسائل الفقهية والفتاوى.

ثم انتقل إلى داكا (عاصمة بنجلاديش) وعُيِّن مدرسا بجامعةها في الحديث والفقه والأصول، ثم عين صدر المدرسين بالمدرسة العالية داكا، وأسس هناك (الجامعة القرآنية العربية) وهي مازالت باقية ومستمرة في خدمتها الدينية، ويعتبرها أهم مركز من مراكز الدينية لدرس الحديث والتفسير والفقه وغيرها في داكا، ومكث رحمته في هذه المنطقة بكثير من الخدمات الدينية زهاء ثماني سنين.

ثم انتقل إلى غربي باكستان واستقر هناك حتى آخر عمره في مدرسة دار العلوم في أشرف آباد غربي باكستان، من حيث صدر المدرسين فيها، يدرس فيها "صحيح البخاري"، وأنجز فيها خدمات كثيرة في ناحية التعليم والتربية وإصدار الفتاوى،

المحقق البحاثة المدقق، الثبت الحججة، المفسر المحدث، الفقيه الأصولي البارع المؤرخ الأديب، الورع الزاهد، والشيخ العالم الفقيه إسحاق بن لطيف الهدى الحنفي البردواني^{١٠٣}، والشيخ الفاضل أحمد علي بن أجد علي الفتحفوري^{١٠٤}، والعالم الجليل الحاذق محمد مصطفى البجنوري^{١٠٥}، ومولانا

وأنتفع بحاله ومقاله وصالح أعماله الطلبة والمستفدين من حياته الشريفة، حتى أن وصل إلى ضعف حياته ومرض موته، وجزاه الله أحسن الجزاء. أنظر: ظفر أحمد العثماني، مقدمة قواعد في علوم الحديث، من قلم محمد التقي العثماني، ص ٢٥-٢٧. كان ﷺ مع ضعفه ومرضه ملتزماً بالأذكار والنوافل، يشهد جميع الصلوات في المسجد، ويتحمل لذلك عناءً كبيراً، وكان لسانه في أواخر عمره رطباً بذكر الله مداومة، وفي شهر رمضان سنة ١٣٩٤هـ قد منعه الأطباء من الصيام، لأمرضه الشديدة، ولكنه لم يرضى بذلك، بل قال: إن عياضاً رضي الله عنه لم يترك الصيام وهو في التسعين من عمره، وكان يلقي من الصوم شدةً وعناءً، حتى كان يجلس في مكن من الماء، ولا يرضى بالافتداء عوضاً عن الصوم، فكيف أرضى بالفدية؟ وهكذا عاش رحمه الله حتى توفاه الله تعالى في ذي القعدة سنة ١٣٩٤هـ، وقد عاش ﷺ بحياته المباركة زهاء ٨٤ سنة، أسكنه الله تعالى في رحمته ورضاه. أنظر: ظفر أحمد العثماني التهانوي، (ط ٦، ٢٠٠٠م) مقدمة قواعد في علوم الحديث، من قلم الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، القاهرة: دار السلام، ص ٨-١٠.

^{١٠٣} وهو أحد العلماء المشهورين، ولد في قرية (كيتين) من أعمال (بردوان) من أرض البنجالة الغربية سنة ١٢٨٣هـ، وقرأ المختصرات على أساتذة بلاده ثم دخل (آره) وقرأ على المولوي محمد حنيف الآروي، ثم سار إلى (كانفور) وقرأ سائر الكتب الدراسية على مولانا عبد الغفار اللكنوي ومولانا أشرف علي التهانوي، ثم ولى التدريس بالمدرسة العالية بكلكتة، ومنحه الحكومة لقب بـ(شمس العلماء)، ثم رقى إلى درجة (المعلم) في مدرسة حكومية في داكا وأحيل إليه المعاش، وعين أستاذاً محاضراً في قسم العلوم الإسلامية ودراساتها في جامعة داكا. توفي رحمه الله سنة ١٣٥٧هـ في كلكتة في حادثة اصطدام، وقد جاء إلى زيارة موطنه، فنقلت جثته إلى قريته (كيتين) ودفن بها. أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١٠٣-١٠٤.

^{١٠٤} أحد العلماء المدرسين الأفاضل، ولد في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٩٢ بقرية فتحفور من أعمال (باره بنكي) قرب مدينة لكونو، وقرأ المختصرات على مولانا عابد حسين الفتحفوري (أحد العلماء المتورعين حسن الأخلاق وحلو المنطق) وعلى غيره من العلماء، ثم سافر إلى كانفور والتحق بـ(جامع العلوم) المدرسة الكبيرة فيها، وقرأ الكتب الدراسية على مولانا أشرف علي التهانوي، ولزمه مدة من الزمان، ثم ولى التدريس بتلك المدرسة، ودرس بها زماناً، وكان من أوائل من أحازهم الشيخ أشرف علي التهانوي في السلوك والإحسان، وكانت له مناسبة تامة بالفقه، توفي ﷺ قبل شيخه أشرف علي التهانوي بعدة سنوات. أنظر: عبد الحي الحسيني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنوظر، ج ٨، ص ٤٦.

^{١٠٥} كان من كبار العلماء الصالحين المشهورين بالحذق والنبوغ في فن الطب ومهنته، ونشأ وترعرع في أسرة ثرية وعائلة غنية في ظل والده السيد مروان علي، كان متقناً للغة العربية وآدابها، وذلك لأن والده اهتم منذ صباه بتعليمه اللغة العربية، درس على الشيخ أشرف علي التهانوي جميع المقررات الدراسية، وبرع فيها، وهو أول من بدأ في جمع تدوين مواعظ الشيخ التهانوي وتربيتها، وكان يكتب ما يلقيه الشيخ التهانوي باللغة العربية بعبارات فصيحة مختصر ومفيدة، ثم ينقلها إلى اللغة الأردية لإفادة الناس عامة، تلك المواعظ التي استفادت منها الشعب الهندي، ونفع الله بها ألوف العباد، كما قام ﷺ بنقل بعض مؤلفات

محمد رشيد كانفوري^{١٠٦}، والشيخ فضل حق إلهما بادي^{١٠٧}، ومولانا لطف رسول الفتحنفوري^{١٠٨}،
والعالم البارع مولانا سيد إسحاق الكانفوري رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ،^{١٠٩} وأديب العصر مولانا مظهر الحق

الشيخ التهانوي المستقلة إلى اللغة الأردية مثل رسالة "الانتباهات المفيدة عن الاشتباهات الجديدة" وتسهيل وتيسير البعض الآخر
منها، مثل: رسالة "الشوق إلى الوطن" و "مجالس الحكمة" و "أمثال العبر".

كان مثالا رائعا لاتباع السنة النبوية، وتقوى الله، والعبودية الخالصة لله، والصدق والإخلاص والتواضع، محبا للخير والبر
والإحسان إلى الفقراء والمساكين. حفظ القرآن الكريم وهو كبير السن، كان يتمتع بلطافة الطبع وذكاء الحس، وكثير الإنقياد
والاستسلام لأحكام الشريعة. كان أستاذه الشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ دائما يذكره بالخير ويمدحه ويثني عليه، وكان يقول: "إن
الحكيم الطيب مصطفى فقيه النفس، وله نظر عميق في مكاييد النفس وغوائلها" وكان يحبه ويشفقه، رحمه الله تعالى ورفع
درجاته في أعلى عليين أنظر: أكبر شاه البخاري، (ط١، ٢٠٠٥م) من قوافل التهانوي، كراتشي: مطبع إدارة المعارف، ص
١٢٤-١٢٥.

^{١٠٦} وهو أحد علماء الحذاق، طيب الأخلاق وحسن السيرة والسلوك، وهذه العبقرية بدأ حياته العلمية مبكرا من حياته،
وكان أشرف علي التهانوي عينه كصدر المدرسين لجامع العلوم وهو في سنه اليسير، وكان مستمرا في تنفيذ هذه المهمة
بالصدق والأمانة، وكان له خبرة واسعة في الفقه والفتاوى، فلذلك أودعته المدرسة على إصدار الفتاوى، وهذا الفحل لم
يُمنحه إلا حياة قصيرة، حتى توفي بمرض الشلل، و حينذاك لم يتجاوز رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ عن شبابيته. منحه الله تعالى بأعلى الدرجات في
الجنة. أمين. أنظر: غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٧٦).

^{١٠٧} وهو من أحد البارعين والأفذاذ في العلوم الإسلامية، وبرزت له المهارة في الأدب والغة منذ بكرة عمره، حيث أنه كان
مشهورا بين العلماء في هذا المجال من زمن طلبة العلم، وبعض تخريراته ما زالت محفوظة في مدرسته التي يدرس فيها، وهو
أول من تخرج على يد الشيخ التهانوي، وبعدهما تخرج اشتغل مدرسا في مدارس الدينية، وأخيرا قضى حياته العلمية الطويلة
في المدرسة بـ(كنوز) حتى أن توفي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ تعالى فيها. أنظر: المصدر السابق، ص ٧٧).

^{١٠٨} وهو أحد الأفذاذ من العلماء الحاذقين والنابعين، وكان صاحب الورع والتقوى، وحسن الخلق والسيرة، دائم الشغل في
العبادة، راطب اللسان بالذكر والدعوة إلى الله، وخاشع القلب لله، وقد نشأ على فطرة الورع والتقوى، وكان يتضرع في الذكر
والدعاء كثيرا، فلذا كان شيخه التهانوي يقول في تركيته: (قليلما رأيت كمثلته شديد التضرع والخيفة في الله).

وقد عاش هذا العالم الغيور وقتا من حياته في مختلف الخدمات الإسلامية، وهو الذي شرّح الكتاب المشهور للتهانوي (قصد
السيبل) بأسلوب سهل لعامة الناس. ولكنه لم يعيش إلا وقتا قصيرا، وفي آخر عمره التزم شيخه التهانوي حتى أن توفي في شهر
شعبان سنة ١٣٤٤هـ في التهانه بمون في سنه اليسير، وهو أول من دفن في المقبرة التي وقفها الشيخ التهانوي للعلماء وأتباعه.
أنظر: المصدر السابق، ص ٧٧).

^{١٠٩} كان رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ مشهورا بعبقريته ونبوغه في التعليم والتربية، واختارته الحكومة أستاذا لجامعة إلهاباد براتب شهري عالي، وكان
لين الطبع وكثير التواضع والتذلل، وقد عاش رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ بإنجاز كثير من الخدمات الدينية من التصنيفات والدعوات الإسلامية.
وجزاه الله تعالى خير الجزاء، ومنحه خير المقام في دار البقاء. أمين. أنظر: المصدر السابق، ص ٧٧.

جادهامي نور الله مرقده^{١١٠}، والعالم الجليل، تقي الزمان مولانا سعيد أحمد العثماني التهانوي^{١١١}، وغيرهم من طلابه العلماء الربانيين الذين صاروا قدوة وأسوة لسائر الأمة الإسلامية في حياتهم المستقبلية بعد أن توفي الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، وتمكنوا مكانته الفارغة بعد وفاته رَحِمَهُ اللهُ، و كان لهم مآثر عظيمة في خدمة الأمة الإسلامية، في مجالات مختلفة من الدعوة الإسلامية والتصانيف والتدريس والمواعظة الدينية وفي كثير من النواحي الدينية.

المبحث الثاني

أهمّ تأليفاته ومواعظه الدينية

قد قام الشيخ أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بتأليف كتب كثيرة من مختلف المجال وامتسع الجوانب، وأنجز من الأعمال العلمية الهائلة ما لا تستطيع الأكاديميات الكبيرة إنجازها، حتى صار أكثر تأليفا في عصره بلا نزاع، وترك وراءه مآثر عظيمة في سطورهِ العلمية البالغ عددها نحو ألف وخمسمائة كتابا ما بين صغير وكبير، في مختلف الفنون والعلوم، وشتى الجوانب، ولا يوجد أيُّ موضوع ديني أو شرعي أو دعوي يحتاج إليه المسلمون في هذا العصر إلا وله فيه كتاب أو رسالة أو تقرير مطبوع منتشر في كل زاوية الهندية، ومتوفر لدى أغلبية مراكز الدينية والبيوت الإسلامية، فيقول الشيخ محمد زاهد الكوثري أثناء حديثه عن جهود علماء شبه القارة الهندية ومآثرهم الخالدة في مجال الحديث والفقهِ: "وكذلك عني بهذا الأمر، العلامة الأوحِد والحبر المفرد، شيخ المشائخ في البلاد الهندية، المحدث الكبير، الجهبذ الناقد البصير، مولانا حكيم الأمة محمد أشرف

^{١١٠} وهو أحد الأدباء في عصره، وقد اشتهر رَحِمَهُ اللهُ شهرة واسعة لمكانته العلمية دولته بنجلاديش، وكان له مهارة واسعة في الأشعار، من حيث كان يقدر أن يكتب الأشعار باللغات العديدة من العربية والفارسية. أنظر: المصدر السابق، ص ٧٩.

^{١١١} وهو أحد العلماء البارعين في الزهد والتقى، شديد الرغبة إلى العلوم الإسلامية، وهو الأخ الكبير للشيخ ظفر أحمد العثماني وابن أخت الشيخ التهانوي، الذي تربي علي يد الشيخ التهانوي منذ طفولته، قرأ عليه كتب التجويد، وبعض الكتب من الفنون المختلفة منها "تنشيط الطبع" و "المكررة" و "التلخيصات العشر" و "تفسير الجلالين" و "شرح العقائد النسفي" و "توضيح وتلويح" و "تيسير الأصول" وكثير من الكتب من الدرس النظامي، وكذلك تلمذ على يد الشيخ عبدالله كنهوي وقرأ عليه "الثنوي" في التفسير، وهذه الشخصية لم يعيش في حياته إلا يسيرا ولبى نداء ربه الأعلى بعمره البسيط. أنظر: غيات الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٧٩-٨٠.

علي التهانوي، صاحب المؤلفات الكثيرة، البالغ عددها نحو خمس مئة مؤلف^{١١٢} ما بين كبير وصغير^{١١٣}.

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "كان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند وهو الشيخ أشرف علي التهانوي سهم كبير في نشر العقيدة الصحيحة، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، والدعوة إلى الله، وقد عمل وحده عمل مجمع علمي كبير، وألف كتباً ورسائل تربو على ثمانئة، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً، وأثرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيراً عظيماً"^{١١٤}.

وقال محمد تقي العثماني: "كان حكيم الأمة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ أَكْثَرَ النَّاسِ تَأْلِيفًا فِي عَصْرِهِ، وَلَا يُوْجَدُ فِي هَذَا الْقَرْنِ مِنْ يَجَارِيهِ أَوْ يَدَانِيهِ فِي كَثْرَةِ الْمَوْلُفَاتِ، فَإِنَّهُ قَدْ تَرَكَ خَلْفَهُ نَحْوَ أَلْفِ كِتَابٍ مَطْبُوعٍ مَا بَيْنَ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ"^{١١٥}.

فالتهانو رَحِمَهُ اللهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ ذِكْرَى مَبَارَكَةٍ لِأُتَمَّةِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ الَّذِينَ تَرَكَوا فِي مَأْثَرِهِمْ ثَرَوَةً عَظِيمَةً لِلتَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ، كَمَثَلِ الْغَزَالِيِّ وَالنَّوَوِيِّ وَالطَّحَاوِيِّ وَالرَّازِيِّ وَابْنِ كَثِيرٍ وَالطَّبْرِيِّ وَالسِّيُوطِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَمْثَالِهِمْ، الَّذِينَ بَدَلُوا جُهُودَهُمْ تَامَةً لِنَشْرِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَالَمِ بِتَصْنِيفَاتِهِمْ الْعِلْمِيَّةِ، فَهُوَ كَانَ مِنْ صَفُوفِ هَؤُلَاءِ الْبَارِزِينَ الَّذِينَ حَفِظَ اللَّهُ دِينَهُ بِجُهُودِهِمُ الْمُنُورَةَ، نَوَّرَ اللَّهُ مَرْقَدَهُمْ بِنُورِهِ الرَّبَّانِيِّ، وَرَفَعَ دَرَجَاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا.

كما سبق، أن تصنيفاته رَحِمَهُ اللهُ موفرة في مختلف الموضوعات وشتى الجوانب، عددها كبير لا يسعنا في هذه العجالة أن نتطرق لجميع ما حررها الشيخ كما ذكر من قبل، فلذلك نكتفي ههنا بما هو معروف ومتيسر لدينا، ونقسم هذه التأليفات حسب الموضوعات التالية.

^{١١٢} وهذا العدد كما هو مذكور في مقالات الكوثري، إلا مؤلفاته رَحِمَهُ اللهُ تَجَاوَزَ غَايَةَ الْأَلْفِ بَلْ بَعْضُ الْمَصْنُفِينَ يُوْصَلُ تَعْدَادُهَا إِلَى الْأَلْفِ، وَلَعَلَّ هَذَا الْعَدَدَ الْمَزِيدَ مَعَ مَوَاعِظِهِ الَّتِي طُبِعَتْ بَعْدَ مَمَاتِهِ رَحِمَهُ اللهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

^{١١٣} ظفر أحمد العثماني، قواعد في علوم الحديث، في التقريظ" من قلم محمد زاهد الكوثري، ص ١٣.

^{١١٤} أبو الحسن علي الحسيني الندوي، (د.ط، د.ت) الدعوة الإسلامية في الهند وتطویراتها. لکننو: المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء، ص ٣٢.

^{١١٥} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣٤١.

تأليفاته في التفسير وعلوم القرآن والتجويد والقرآآت:

بيان القرآن: هذا التفسير مشهور بين الشعب الهندي عالما ومتعلما، صنّف باللغة الأوردية الفصيحة البليغة، التزم فيه ترجمة الآيات الكريمة بأسلوب فصيح وبليغ وسهل المعاني، واختار الرموز للتفسير بحرف "ف"، وفي الحقيقة هذا التفسير جامع لكثير من جوانب العلوم الإسلامية ولم ينحصر في دائرة شرح الآيات فقط بل أطل جهده رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إلى فنون أخرى من المسائل الفقهية، و المباحث في علم الكلام، وعلم المناسبات بين الآيات، وعلم القراءات واختلافها، وتحليلات اللغوية، وتركيبات النحوية، وتصريفات الصرفية، وأسرار البلاغة ونكاتها البديعة، والرد على الشبهات من أقوال البطلان قديما وحديثا، خاصة أنار بإيجابات سليقة عن شبهات المستشرقين في هذا العصر الحاضر. وكذلك أنه رحمه الله تعالى التزم في تفسيره هذا على الروايات الصحيحة من السنة النووية اتباعاً لمنهج السلف الصالحين^{١١٦}. فهذا الكتاب مفيد جدا لطلاب العلم لكثير من النواحي العلمية، وشهد عليه علماء الحاذقين في ميادين العلوم والفنون^{١١٧}.

أحكام القرآن: هذا كتاب جليل، مفيد في التفسير، ولكن هذه الخدمة لم تتم بجهوده بنفسه لأنه حينذاك تعذر عليه التأليف بنفسه بسبب وصوله إلى آخر عمره وضعف قوته، ففوض تأليفه إلى أربعة من العلماء: الشيخ مولانا مفتي الباكستان محمد شفيع، والشيخ مولانا مفتي جميل أحمد، والشيخ مولانا ظفر أحمد تهانوي صاحب "إعلاء السنن" والشيخ المحدث محمد إدريس كاندهلوي

^{١١٦} أنظر: محمد عبد الحي داكر، وعبد الله ميمن (ط ١، شهر رمضان، ١٤٠٧ هـ) فهرست لتأليفات حكيم الأمة، كراتشي: مكتبة دار العلوم، ص ٢٠٣.

^{١١٧} كما يقول محمد تقي العثماني: "فأما في التفسير فله تفسير بديع باللغة الأوردية باسم (بيان القرآن) في أربع مجلدات ضخمة من القطع الكبير، يجوي مباحث علمية هامة من التفسير والنحو والبلاغة والفقه، والكلام، والتصوف، وأما يعرف قدر هذا الكتاب إذا رجع إليه القارئ بعد مطالعة المطولات من كتب التفسير، فإنه يجمع ليها ومغزاها، بعبارة مميزة علمية جامعة. ظفر أحمد التهانوي، (ط ١، ١٤٠١ هـ / ١٩٧١ م) مقدمة إعلاء السنن، من قلم محمد تقي العثماني، كراتشي: مكتبة إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، ج ١، ص ١١.

ويقول الشيخ يوسف البنوري رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ في تقييم هذا التفسير الجليل "كابد فيه مطالعة كتب المفسرين، ولخص فيه أموراً مفيدة، وحلّ مواضع مشكلة غامضة بوجه أنيق، وزاد نفعها بفوائد بالعربية" محمد يوسف البنوري (ط ١، ١٣٩٦ هـ) يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن، كراتشي: مجلس الدعوة والتحقيق، ص ٥١-٥٢.

صاحب "التعليق الصحيح على مشكاة المصابيح"، رحمهم الله تعالى. فألف الشيخ العثماني منه جزئين، والشيخ محمد شفيح جزئين، ومولانا الشيخ إدريس الكاندهلوي جزءاً، وطبعت هذه الأجزاء بكراتشي طبعا حجريا والباقي لم يطبع بعد. وللشيخ أيضاً رسالة قصيرة انتقد فيها بعض التفاسير العصرية، وشرح فيها قواعد نفيسة من أصول التفسير مما يغفل عنها كثير من الناس في عصرنا، وله ثلاث وعشرون رسالة غيرها في التفسير وعلوم القرآن، ومن أهمها: "ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردنية"، و "تفسير بيان القرآن"، و "جمال القرآن" ^{١١٨} و "آداب القرآن" ^{١١٩}، و "متشابهات القرآن لتراويح رمضان" ^{١٢٠}، و "إصلاح الترجمة الدهلوية للقرآن الكريم" ^{١٢١}، و "التواجه بما يتعلق بالتشابه" ^{١٢٢}، و "سبق الغايات في نسق الآيات" ^{١٢٣}، و "رفع الخلاف في حكم الأوقاف" ^{١٢٤}، و "الزيادات على كتب الروايات" ^{١٢٥} و "تنشيط الطبع في إجراء السبع" ^{١٢٦} و "التقصير في التفسير" ^{١٢٧}، و "أحكام القرآن" ^{١٢٨}، و "ملاححة البيان في فصاحة القرآن".

^{١١٨} هذه رسالة مشهورة في علم التجويد والقراءات.

^{١١٩} وهو في الآداب عند قراءة القرآن وتلاوته.

^{١٢٠} صنفه في ذكر بعض القواعد والضوابط لحفاظ القراء عن المتشابهات في صلاة التراويح.

^{١٢١} وهو في التنبيه على بعض الأغلاط في مسائل الشرعية.

^{١٢٢} وهو في متشابهات في الآية القرآنية.

^{١٢٣} باللغة العربية، في علم المناسبات بين الآيات القرآنية من حيث تظهر خلال بيانه بعض حكم القرآن ومعجزاته. وهذا الكتاب مفيد جدا للمتعلمين والمعلمين).

^{١٢٤} (في دفع الخلاف بين القراء في الوقوف بين الآيتين مع تطبيق آراء القراء بنكته العلمية.

^{١٢٥} وهو باللغة العربية، في ذكر السند لقراءات غير المشهورة وبعض الأحاديث المسلسلة.

^{١٢٦} وهو في قراءات السبع مع جمع تفصيلات رواها وبعض اللوازمات في علم القراءات.

^{١٢٧} (انتقد فيها بعض التفاسير المعاصرة من حيث بعض أغلاطها الشائعة في تفسيرها بالرأي والقياس مع تأويلات فاسدة التي لا تناسب في التفسير.

^{١٢٨} (الفه نخبة من العلما تحت إشرافه الذي يقع في خمس مجلدات وهو باللغة العربية.

تصنيفاته في الحديث وعلومه:

١- إحياء السنن أو جامع الآثار: هذا الكتاب أكبر ما صنفه رحمه الله تعالى في موضوع علم الحديث، وتجلّى مكانته العلمية بين العرب والعجم، وقد أبدى كبار العلماء والمحققين إعجابهم بهذا الكتاب، وأشادوا في مقالاتهم وبحوثهم.

كما يقول الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري رحمته الله في تقدير هذا الكتاب الجليل وعبقريّة صاحبه: "إن هذا الكتاب - إحياء السنن - وكتاب "جامع الآثار" يُعني عن وصفهما ذكرُ إسم مؤلّفهما العظيم، وكلاهما مطبوع بالهند^{١٢٩}، إلا أن الظفر به أصبح بمكانة من الصعوبة، حيث نفذت نسخه المطبوعة، لكثرة الراغبين في اقتناء مؤلفات هذا العالم الربّاني، وهو بركة البلاد الهندية، وله منزلة سامية عند علماء الهند، حتى لقبوه بـ(حكيم الأمة)^{١٣٠}.

فهذا الكتاب صنّفه رحمته الله ردا على بعض الناس يطولون ألسنتهم في الإمام أبي رحمته الله، ويلزمون على مذهبه، فيقولون إن مذهبه قائم على القياس من غير اهتمام بالحديث الصحيح، رغم أن أدلة الإمام أبي حنيفة رحمته الله كانت مبسّطة في كثير من الكتب التراث القديمة، وهي مبعثرة في كتب مختلفة ورسائل شتى، فأراد الشيخ التهانوي أن يجمعها في كتاب مستقل، فجمع فيه أدلة الإمام أبي حنيفة من الأحاديث الصحيحة في جميع الأبواب الفقهية، وسمّاه "إحياء السنن" ولكن مسودة هذا الكتاب العظيم قد ضاعت عن المؤلف قبل أن تطبع، ثم بعد برهة من الزمان عاد الشيخ إلى تأليفه مرة أخرى، وغيّر فيه منهجه، وسمّاه "جامع الآثار"، وجمع فيه أحاديث استنبط منها الحنفية مذهبهم، مع التنبيه الموجز على كيفية إسنادها، ووجه الاستدلال منها، ثم أضاف إليه تعليقا باسم "تابع الآثار" ذكر فيه توجيه الأحاديث التي ظاهرها التعارض مما ذكر في "جامع الآثار"، وقد طُبِع كلاهما في جزء لطيف في المطبع القاسمي بديوبند في عام ١٣١٥هـ - طبعا حجريا. ولكن كلا الكتابين كانا في غاية الاختصار ولم يتجاوزا أبواب الصلاة وكان يودّ رحمته الله أن يؤلف مثل ما ألف من قبل وييسط فيه الكلام عن الأحاديث سندا وامتناً ورواية ودراية حتى اختار لإنجاز هذه المهمة

^{١٢٩} كتابه "إحياء السنن" لم يُطبع، بل ضاع وطارت به أيادي الزمن، وقد طبع بهذا الإسم من قبل بعض أتباعه.

^{١٣٠} ظفر أحمد العثماني التهانوي (ط ٦، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م). قواعد في علوم الحديث، القاهرة: دار السلام، شارع

الأزهر، ص ١٣ - ١٤.

طالبه مولانا الشيخ أحمد حسن السنبهلي، ففوض إليه الشيخ التهانوي مسئولية التأليف، فجمع في المتن أحاديث وآثاراً مع الكلام على إسنادها باختصار، وشرحها في التعليق متناً وإسناداً بسيطاً وتفصيلاً، وسمى المتن بلاسم السابق "إحياء السنن"، والتعليق باسم "التوضيح الحسن". وكان الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ ينظر في كل ما يكتب مولانا السنبهلي، حرفاً حرفاً، ويغير في مواضع منه، حيث يجد الحاجة إليه حتى بلغ كتاب الحج^{١٣١}. فهكذا استمرت هذا الجهد حتى أن وصل دوره إلى "إعلاء السنن"، فتمت بها هذه الخدمة المنورة.

٢-إعلاء السنن: هذا العمل الموسوعي العلمي الضخم، المكمل لما بدأه حكيم الأمة التهانوي رَحِمَهُ اللهُ باسم "إحياء السنن" ثم "جامع الآثار"، ولكن قدر الله تعالى أن يقوم بإنجاز هذه الفكرة، وإكمال هذا المشروع العلمي الكبير ابن أخته وتلميذه المتخرج في علوم الحديث لديه، الشيخ المحدث الناقد والفقير البارع مولانا ظفر أحمد العثماني التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، فاستوفى رَحِمَهُ اللهُ تحت إشراف أستاذه الشيخ أشرف علي التهانوي، فبدأ أن يجمع أدلة أبواب الفقه من أحاديث الأحكام في الأبواب من مصادر صعبة المنال، مع الكلام على كل حديث في ذيل كل صفحة، بما تقضي به صناعة الحديث، من تقوية وتضعيف، وأخذ ورد على اختلاف المذاهب. فاشتغل هذا العالم الغيور بهذه المهمة الشاقة نحو عشرين سنة اشتغالا لا مزيد عليه، حتى أتم مهمته بغاية من الإجادة^{١٣٢}.

فهذا كتاب جليل القدر، وواسع المجال، ومحيط الجوانب للفنون المختلفة، ومستوفي كل أبواب لعلم الحديث، وجمع فيه فوائد علمية من علم الحديث ومصطلحاته ورجاله، وخاصة أنه رحمه الله تعالى تدارك به قسماً كبيراً من المباحث المغلقة في كتب مصطلح الحديث وعلومه، ورتب الكتاب حسن الترتيب، ونظمه خير التنظيم، وقعداً أحسن تعقيد، وأثبت فيه حق القواعد والضوابط، فهذا الكتاب نافع جداً لمن أراد البحث في علم الرجال والمصطلح والأصول والفقه والتخارج وشروح الحديث والتاريخ وما إلى ذلك، وهو الذي وفّى خلال هذا الكتاب المطالب لعصر الحاضر، وتحيّرت أذهان العقلاء والفحول من العرب والعجم بمكثدا الخدمية النادرة.

^{١٣١} ظفر أحمد العثماني التهانوي، إعلاء السنن، ص ٢٩،

^{١٣٢} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٤٩٦.

وفيه كتب أخرى في هذا الموضوع منها: تابع الآثار^{١٣٣}، وحفظ الأربعين^{١٣٤}، والمسك الذكي^{١٣٥}، والثواب الحلي^{١٣٦}، وإطفاء الفتن في ترجمة إحياء السنن^{١٣٧}، ومؤخرة الظنون عن مقدمة ابن الخلدون^{١٣٨}، والإدراك والتوصل إلى حقيقة الإشراف والتوسل^{١٣٩}، والتشرف بمعرفة أحاديث التصوف^{١٤٠}، و"حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"^{١٤١}. فإنشاء الله سيأتي ذكره في الفصل الثالث.

^{١٣٣} وهذا الكتاب جامع على الأحاديث المؤيدة لمذهب الحنفي في كثير من المسائل الفقهية، وضمه تابعاً وذيلاً مع جامع الآثار آخره. أنظر: محمد عبد الحي داکر، فهرست تأليفات حكيم الأمة، ص ٢٠٧.

^{١٣٤} : هذه رسالة صغيرة تتضمن فيها نخبة من أربعين حديثاً من صحيح المسلم، كتبها الشيخ لمشتاقين وراغبين لحفظ الحديث النبوي، حيث وضع معها ترجمتها وبعض من الشروح اللازمة والمهمة من غير التفصيل. أنظر: محمد عبد الحي داکر، فهرست تأليفات حكيم الأمة، ص ٢٠٧.

^{١٣٥} وهذا في منزلة إفاداته العلمية التي أفادها الشيخ خلال محاضراته في سنن الترمذي، فجمعها بعض الطلبة المتفوقين والراغبين في علم الحديث بين سطور دفاترهم عند إلقاءه المحاضرة. أنظر: المصدر السابق، ص ٢٠٧.

^{١٣٦} هذا الكتاب من قبيل التتمة والمكملة لـ"مسك الذكي" بأنه يحتوي على مفاد علمي عن أحاديث المشهور والمقبول من سنن الترمذي الذي يعتبره حاشية مستقلة في هذا الجانب. أنظر: المصدر السابق، ص ٢٠٧.

^{١٣٧} ، هذا الكتاب في ترجمة إحياء السنن باللغة الأوردية مع الذكر عن درجة الحديث المذكور فيه. أنظر: المصدر السابق، ص ٢٠٧.

^{١٣٨} هذه رسالة في الكشف عن الظنون والشبهات الواردة خلال مقدمة ابن خلدون لما نقل بعض روايات المنكرين لظهور إمام المهدي، فأجاب عن هذه الشبهات بإجابة ساطعة حتى توضح الأمر عن حقيقته. وصار راداً على الأفكار الزائغة عن الحق. أنظر: المصدر السابق، ص ٢٠٨.

^{١٣٩} هذه رسالة قصيرة تكلم فيها عن بعض المسائل المذكورة في كتاب "التشرف بمعرفة أحاديث التصوف" في أمر التوسل والشرك الأكبر والأصغر، فخلال هذه المسائل أنه قدم كلماته العلمية والمباحث القيمة وتحقيقاته النادرة والبدیعة، وذكر خلالها المعيار الفارق بين شرك الأكبر والأصغر، فهذه رسالة مفيدة جداً لأهل العلم. أنظر: المصدر السابق، ص ٢٠٨.

^{١٤٠} هذا الكتاب في تحقيق بعض الأحاديث الواردة في كتب المتصوفين، فبين درجة هذه الأحاديث قوة وضعفاً، وكذلك كشف الغطاء عن بعض الأحاديث الموضوعية في هذا الباب التي أشتهرت على ألسنة الناس خاصة المتصوفين، ولكنها في الحقيقة لا أصل لها، في هذا الموقف أنه سلك طريق الاعتدال والتوسط، فلم يؤكد أي شيء بدون التحقيق، بل حاول محاولة كاملة في تفتيش عن الأحاديث الأخرى في هذا الباب دليلاً، فأحياناً وجدها وأحياناً لم يجدها كما هو شأن الباحث، فإن وجدها أثبتها، بأن هذه المسئلة من الطريقة الصحيحة التي ثابتة بالحديث كذا أو بأية كذا، وإلا صرح بأنها ليست من حقيقة الطريقة بل هي بدعة وضلالة. وهو في أربعة مجلدات. أنظر: المصدر السابق، ص ٢١٩.

^{١٤١} في جمع الأحاديث في باب التصوف و تثبتنا لمسائله.

أهم التأليفات في العقيدة والتوحيد:

وفيه تصنيفات كثيرة فمن هنا أودُّ أن أذكر أهمها، وذلك على السرد الاجمالي بذكر الأسماء فقط، فهي: "أكسير في إثبات التقدير"^{١٤٢}، و"فروع الإيمان"^{١٤٣}، و"حفظ الإيمان"^{١٤٤}، وبسط البنان لكف اللسان عن كتاب حفظ الإيمان"^{١٤٥}، و"تغيير العنوان في بعض عبارات حفظ الإيمان"^{١٤٦}، و"أحكام التجلي من التعلّي والتدلي"^{١٤٧}، و"ظهور العدم بنور القدم"^{١٤٨}، و"تذليل شرح عقائد"^{١٤٩}، و"الانتباهات المفيدة عن الشبهات الجديدة"^{١٥٠}.

وهناك كتب كثيرة في العقيدة والتوحيد التي تحتاج إلى كتاب مستقل في توضيحها، وبجانب أن هذا المكان لا يتيح لي أن أعرفها بالتفصيل ولوبكلمة وجيزة، لأنه أيضاً يحتاج إلى صفحات كثيرة، فمن يجب المزيد منها فليراجع إلى كتاب "فهرست تأليفات حكيم الأمة" للشيخ محمد داكر عبد الحي^{١٥١}.

^{١٤٢} هذه الرسالة في ترجمة كتاب "التنوير في إسقاط التدوير" لحجة السلف ابن عطاء اسكندري رحمه الله تعالى، الذي أثبت فيه مسائل التقدير بالأدلة والعقلية النقلية والكشفية وحججاً قاطعة حتى لم يترك أي مجال لمنكرين مسائل التقدير، وأزال الشكوك المشككين في مسائل التقدير، وضمّ معها الملفوظات لحاجي إمداد الله المهاجر المكي.

^{١٤٣} وهو في بيان بعض خصائص الإيمان، والأوصاف الدينية، والعادات الحميدة، التي ينبغي لكل مؤمن أن يتصفوا ويتحلوا بها، فهذه الرسالة كـ زاد المؤمنين ومرء آتهم للكشف عن أحوالهم الإيمانية.

^{١٤٤} وهو في تصليح العقائد الفاسدة كطواف القبور، ونسبة أوصاف الربوبية إلى الشيوخ والكبار، والدعاء إلى غير الله تعالى، وسجدة التعظيم وما إلى ذلك، كتاب مفيد العلماء ولعامّة المسلمين.

^{١٤٥} وهذا في الرد على إعتراضات المخالفين في بعض المسائل المذكورة في كتابه "حفظ الإيمان"، وفي التفصيل على علم الغائب، والرد والجواب علي منكرين الغائب

^{١٤٦} وهذا الكتاب في تغيير بعض العبارات في كتاب "حفظ الإيمان" نظراً إلى المصلحة العلمية.

^{١٤٧} وهو في التفصيل عن مسائل رؤية الله سبحانه وتعالى والتجلي لله تبارك وتعالى، فأثبت خلال هذا الكتاب بأن رؤية الله تعالى محال في هذا العالم، ولكن يستثنى الرسول ﷺ عن هذا لأنه شاهد الله تبارك وتعالى بعينه في المعراج.

^{١٤٨} هذه كتيب في تحقيق مسائل الوحدة الوجود وشرحها مع توجيهه الرشيد.

^{١٤٩} وهو في تكملة كتاب "شرح العقائد للنسفي" بالذكر عن تعداد الفرق الباطلة وعقائدها الفاسدة، لأنه (كتاب "شرح العقائد") لم يُشر إلى هذا التفصيل.

^{١٥٠} وهذا كتاب مشهور في الردود على الشبهات الواردة من المثقفين بالحضارة الجديدة والمتأثرين بها، وفي الجواب عن شبهات واتهامات المستشرقين علي النظم الإسلامية، فهذا الكتاب مفيد جدا في مجال علم الكلام في عصر الحاضر.

^{١٥١} وهو كتاب مستقل في مجموع تصانيف الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي جميع الأبواب العلمية.

أهم ما صنّف في العبادات: في هذه النسبة اكتفي بما هو المشهور والأنفع فقط، ولا أنطرق إلى التفصيل ولا التوضيح بل أوجز الكلام بالذكر عن قائمة بعض الكتب، فيليك بعض أسماء الكتب في هذا المضمون.

"القول البديع في اشتراط المصير للتجميع". "زكواة الفرض في نبات الأرض". "سراج الزيت إلى منهاج البيت" "الساعات للطاعات" "تعليم الدين" "حيات المسلمين" "باب الريان" "بيت الديان"، "عيش الحيان"، "الخطب المأثورة من الآثار المشهورة"، "خطبات الأحكام"، "كلمة القوم في حكمة الصوم"^{١٥٢}، وغيرها كثيرة.

أشهرها صنّف في باب الأذكار: "زاد السعيد"، "خير الدلالة إلى حكم إلهاء الجلالة"، الإستبصار في فضل الإستغفار"، "الأوراد الرحماني"، "قربات عند الله وصلاة الرسول"، وما إلى ذلك.

أهم التأليفات في باب السلوك والإحسان: في هذا الدوران أنه ﷺ ألف كثيرا من التأليفات النافعة التي ترشد أهل السلوك إلى سبيل الرشاد والاعتدال، وتنير طرق السلوك والإحسان، وتوضح عن غموض الضلال والبطلان، فهناك بعض النموذج بقائمة تأليفاته المشهورة في هذا المجال. "قصد السبيل إلى المولى الجليل"، "مسائل السلوك من كلام ملك الملوك"، "التكشف عن مهمات التصوف"، "تأيد الحقيقة بالآيات العتيقة"، "كليد مثنوي معنوي شريف"، "النكة الدقيقة"، "مسائل مثنوي"، "ترتيب السالك وتنجية الهالك"، "رفع الضيق عن أهل الطريق"، "لامع علامات الأولياء"، وغيرها كثيرة فمن كان يرجو إلى التفصيل والإطناب فليراجع إلى كتاب "فهرست تأليفات حكيم الأمة".

أشهر التصنيفات في باب المعاملات: هو "الاقتصاد في التقليد والاجتهاد"، "التوريع عن فساد التوزيع"، "رافع الضنك عن منافع البنك"، "كشف الغشوة عن وجه الرشوة" تحذير الإخوان عن الربا في الهندوستان".

^{١٥٢} محمد عبد الحي داکر، فهرست تأليفات حكيم الأمة، ص ٢٧٩.

أشهر ما نجد من تصنيفاته في المعاشرات: هي "رد التوحد في طلاق ذات التعدد"، "تحقيق التشبه بأهل السفاح لمن لا يريد أداء المهر في النكاح" تعديل أهل الدهر في درجة تقابل المهر".

الكتب المشهورة في الفتاوى: "إمداد الفتاوى"، "حوادث الفتاوى"، "مسائل أهل الخلة في مسألة الظلة"، "ترجيح الراجح"، "أكمل الأديان في أسهل اللسان"، "الفعل المحرم في فصل المحرم".

أشهر التأليفات في أصول الفقه: "تلخيص المنار"، و"المدار" وغيرهما.

أهم التصنيفات في عامة العلوم الإسلامية: بوادر النوادر، الإنسداد لفتنة الارتداد، "حقوق الإسلام"، "درجة الحسام عن إشاعة الإسلام"، "حقوق العلم"، "إرشاد الهائم في حقوق البهائم"، "شهادة الأقسام بصدق الإسلام"، "شوق الوطن"، "تنوير السراج في ليلة المعراج"، "تعديل حقوق الوالدين"، "تنبيهات في الوصية"، "الاستحضار للاحتضار مع تقلبات الأطوار"، "بيان وفود في أعيان ابن مسعود"، "أخبار أهل المجد عن آثار أهل النجد". وغيرها كثيرة.

التصانيف في التجديد والإصلاح: "إصلاح الرسوم" "آداب المعاشرات" "أغلاط العوام"، "تسهيل الطريق"، "المواهب"، "الأفكار الدينية"، "آداب الأخبار"، "الإصلاح بإنقلاب الأمة"، "إصلاح المعتوه في تعريف الحرام والمكروه"، "تصحيح العلم في تقبيح الفلم"، "التحقيق الفريد في حكم آلة تقريب الصوت البعيد"، وغيرها كثيرة.

الكتب القيمة في السياسة الإسلامية: "معاملة المسلمين في مجادلة غير المسلمين"، "صيانة المسلمين عن خيانة غير المسلمين"، "أحكام الإيتلاف"، "الروضة المناظرة في تحريكات الحاضرة"، "تليين العرائك في تمجيد استرائك" في الجوابات الفقهية عن أمور اضطرابات السياسية شرعاً، وما إلى ذلك".

أهمّ التأليفات في مسائل النسوان: "إصلاح النساء"، "بهشتي زيور" أي (حلية الجنة)، "رفع الارتياح عن مسألة ثبوت الأنساب"، "كسوة النسوة"، "ثبات الستور بذوات الحدود"، "إلقاء السكينة في تحقيق إبداء الزينة"، "الحلية الناجزة للحلية العاجزة"، القول الصواب في مسألة الحجاب"، "كثرة الأزواج لصاحب المعراج"، وغيرها.

وفي السير والتراجم: "نشر الطيب في ذكر النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم"، "قصة سيدنا يوسف عليه وسلام"، "أحسن التفهيم لمقولة سيدنا إبراهيم"، "شم الطيب"، "أنوار المحسنين"، "الذكريات لمجالس الأبرار من أتباع الكبار لخواجه أجميري رحمه الله"، "خوان خليل"، "الترتيب اللطيف في قصة الكليم الحنيف"، "السنة الجليلة في الجشتية العلية"، "تحسين دار العلوم بتزئين أنوار النجوم"، وغيرها من الكتب المفيدة في سيرة الأنبياء ونبلاء العظام في مختلف الزمان.

في الأعمال الصالحات: "التقى في أحكام الرقى"، "الأعمال القرآني"، "الخواص الفرقاني"، "والآثار التبياني"، وما إلى ذلك في عنوان التقوى والزهد والصالحات التي ما زالت تفيد الشعب الهندي المسلم وغيرها من إخواننا المسلمين في أطراف العالم. وكذلك يوجد كثير من التأليفات في موضوع متفرق العناوين الدينية من الفلسفة الإسلامية، والمناظرة، والمنطق والنصائح وشتى الجوانب المتطرفة البالغ عددها زهاء ألف كتاباً ما بين المجلدات والصحف.

خدمته في المواعظ الدينية:

كما سبق أن هذه الشخصية له دور كبير في تصليح شئون الأمة الإسلامية وتجديد نشاطها الدينية بتصانيفه ومواعظه كثيرة، فكما نجد بأن أقلامه تتطرق إلى كل موضوعات دينية حتى تجاوز تعداد تصنيفاته غاية الألف تصنيفاً ما بين صغير وكبير، التي مازالت تنير سبيل المستقيم لأمة الإسلامية منذ أكثر نصف قرن في شبه القارة الهندية، كذلك أن لسانه قد سلكت في خدمة الدين عظيمًا، حتى ترك في مآثره ثروة عظيمة وخدمة شاملة وشاسعة في المواعظ الدينية التي ترشد طرق الصلحاء والأمناء في كل زاوية من حياتهم العلمية والدينية والاجتماعية والسياسية، فأثرت فيها تأثيراً عميقاً واسع النطاق. ولا تزال أعمالها وآثارها (رغم ما مضى عليها من الزمن الطويل) تفتح آفاق الفكر والعمل، وتنشط العقل والقلب وتنير الطريق للعلماء والصالحين وأرباب العرفان وقادة الجهاد والحركات الإسلامية حتى اليوم.

كان رَحِمَهُ اللهُ يعظ الناس ويدعوهم إلى الخير، وتعد له الحفلات في كل ناحية من نواحي البلاد، بل في كل بلدة من بلاد الهند، واشتهرت مواعظه في جميع أنحاء البلاد، حتى أصبحت لها جولة وصولاً،

كان الناس يوردون إليها من أدابي البلاد وأقاصيها، ويتحشمون من أجلها المشاق، ويتحملون المتاعب، ويقطعون المسافات البعيدة، وحقا كانت مواعظه كالبحر الذي لا يرى له ساحل، والعين التي لا تجف أبدا، والمنهل العذب الفياض الذي يروي غليل الباحثين عن الحق، وطالبي المعرفة، بقطوف دانية، فيها من العلم والحكمة والأمثال والنوادر واللطائف العلمية، والغرائب الدعوية ما لا تحمله الأسفار، وفيها من بدائع التفسير والحديث والفقهاء، ومعاني التزكية والإحسان ما لا يزيد في الكتب المتداولة، كان الشيخ رحمته الله ينشر فيها من لآلئ عرفانه ما يجلو القلوب وينور الأذهان^{١٥٣}.

جهود بعض أتباعه في تدوين مواعظه:

هذه المواعظ القيمة ما دامت تحتاج إلى الحفاظ عليها بالتدوين والتنسيخ، والعلماء كانوا متحيرين على ضياع هذه الثروة المتينة بدون التدوين في دوران العصور، فتحرم الأمة من الاستفادة منها، أخيرا قد قام بعض الفحول من أتباعه على تحفيظها وتنظيمها، ووقفهم الله تعالى بتحرير هذه المواعظ وجمعها وترتيبها. أول من قام بهذا المشروع العظيم هو الحاج صديق أحمد "قدس سره" فاختار لهذه الخدمة بعض الكُتّاب من أتباعه السريع في الإملاء، والمتقن في النسخ، فكلما ينتهي التسجيل والتحرير يقدم على الشيخ التهانوي من حيث مراجعتها وتصحيحها ثم يطبعها، فاستمر هذا العمل حتى جُمعت سلسلة ضخمة باسم (دعوات عبدت) التي تعتبرها أكبر مجموعة في ملفوظاته رحمته الله، وكذلك كانت توجد بعض المسلسلات الأخرى بجهود الآخرين من العلماء في نفس العصر بأسماء مختلفة، منها "التذكير" و"البلاغ" و"إحياء البشرية" و"مجمع البحور بمنظر شهود" ومواعظ التبليغ وغيرها، ولكن في الحقيقة أنّ كثيرا من المواعظ قد فات عنهم لعدم حضورهم إلى بعض محاضراته رحمته الله، وكذلك بعضها لم تأت بعد في عمليات الطباعة حتى أن توفي رحمته الله. أخيرا بعد أن تُعبّر مراحل عديدة احتاجت هذه العملية الجليلة إلى تضبيبها وجمعها كاملا نهائيا في كتاب واحد حسب موضوعاته المتنوعة، فقام بها الشيخ مولانا عبد الباري، والشيخ المفتي

^{١٥٣} كما يقول محمد رحمة الله الندوي نقلا عن العلامة عبد الحمي الحسيني رحمته الله: "وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل، واستفاد منها آلاف من المسلمين، ورفض عدد لا يحصىه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية، والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين، في بيوتهم وأفراحهم وأحزانهم، بسبب الإختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء" محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١١٢-١١٣.

محمد حسن، والشيخ منشى عبد الرحمن الملتاني، فبدأوا جهودهم في إتمامها حتى انتقلت هذه الذمة بكاملها على الشيخ منشي عبد الرحمن الذي جمع بعده هذه المواعظ قدر استطاعته الكاملة، فوجد أنها أربعمئة وأربعون (٤٤٠) موعظة وأراد أن يرتبها في ثلاثين مجلداً ويحتوي كل مجلد بسبعمئة وخمسين صفحة، ولكن هذا العمل كان صعباً ومشاقاً من حيث أنه يحتاج إلى مبلغ كبير من التمويل الذي لم يكن يسيراً على الفرد، إلا أنه سلك طريقه توكل على الله فبدأ أن يطبعه جزءاً فجزءاً حتى في سنة ١٩٧٢م نجح على تكميل أحد عشر مجلداً من الثلاثين الذي يحتوي حوالي ١٢٧ موعظة، ثم في سنة ١٩٧٧م قد أعلنت المكتبة الأشرفية أن تطبع تسعة عشر مجلداً ولكن حتى الآن^{١٥٤} ما استطاعت إلا على ثلاث مجلدات فقط، وهكذا قد تم على ١٩٠ موعظة بطباعتها والبواقي حوالي ٢٥٠ ما زالت غير مطبوعة^{١٥٥}، ونرجو من الله أن يتم نعمه برحمته الواسعة.

هذا حسبما وجدته الباحث من كلمة مولانا داکر محمد عبد الحي، في مقدمة كتابه "فهرست تألیفات حکیم الأمت" غير أن الشيخ محمد رحمة الندوي ذكر في كتابه "أشرف علي التهانوي": "وقد طبع منها نحو عشرين مجلداً، كل مجلدٍ يحتوي على ستمئة صفحة على الأقل^{١٥٦}".

الملاحظة: جدير بالذكر، هذا كما عرفناه من هذين الكتابين هو كان في وقت إصدار هذين الكتابين، وذلك لأن الأول قد طبع في سنة ١٤٠٧هـ، والثاني في سنة ١٤٢٧هـ، إلا أن الباحث قد يشاهد الآن كتابين ضخمين تحتويان على مواعظ التهانوي، الواحد باسم "خطبات أشرفية" في إثنين وثلاثين جزءاً، والآخر باسم "ملفوظات حكيم الأمة" في تسعة وعشرين جزءاً يصدر كلاهما من مكتبة "إدارة لتألیفات الأشرفية"، وهما الآن متوفران في المكتبات الإسلامية والدينية في باكستان، والهند، وبنجلاديش، وهذا ما يعرفه الباحث عن مواعظ التهانوي المدونة. والله أعلم بالصواب.

^{١٥٤} وهذا خلال سنة ١٤٠٧هـ، لأن صاحب كتاب (فهرست حکیم الأمة) يحكي عن ذلك الوقت، إلا أنها قد زادت تعدادها عبر جهود مستمرة من العلماء في هذه الخدمة.

^{١٥٥} محمد عبد الحي داکر، فهرست تألیفات حکیم الأمة، ص ٢٨٤.

^{١٥٦} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١١٤.

منهجه وميزاته في الوعظ الديني:

١- كان ﷺ يركز في مواعظه على جانب الترغيب، بدلَ التهيب، كما يقول: "قد جربت طباع الناس في هذا العصر، فوجدتهم ينتفعون بما يشوقهم ويرغبهم أكثر من انتفاعهم بما يرهبهم ويخوفهم، ولذلك أرى من المناسب التركيز على جانب الترغيب، والتقليل من جانب التهيب"^{١٥٧} عملاً على حديث رسول الله ﷺ إذا بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن وقال: (يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرًا وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا.....الآخر)^{١٥٨}.

٢- وكان ﷺ يبتهل إلى ربه تعالى ويدعو إليه قبل البدع في الوعظ، أن يوفقه لبيان ما يحتاج إليه الحاضرون والمستمعون بقوله "اللهم وفقني لبيان ما يحتاج الحاضرون إليه وما يصلح أحوالهم"^{١٥٩}.

٣- وكان من عاداته في الوعظ أنه لم يكن يقبل عليه من عوضٍ حتى لو أهدى إليه رجل بعد الوعظ شيئاً بما يجعله كالعوض صورة لم يقبله أبداً^{١٦٠}.

٤- إنه كان دائماً يستهل الوعظ بالخطبة المأثورة، ويتبعها بتلاوة آيات من القرآن الكريم، وحديث من أحاديث الرسول الكريم ﷺ^{١٦١}.

٥- كان لا يتعرض في مواعظه للمسائل الخلافية فيما بين المسلمين، إلا إذا جاءت مسألة خلافية أثناء كلامه، فيشرحها شرحاً وافياً برفق ولطفٍ، وحكمة ونصيحة، ولا يغلط فيه الكلام على مخالفه، ولا يبالي في التشنيع عليهم، وإنما يتبع أسوة الأنبياء عليهم الصلوات في قول لين وموعظة حسنة^{١٦٢}.

^{١٥٧} ظفر أحمد العثماني التهانوي (ط ٦ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م). قواعد في علوم الحديث، القاهرة: دارالسلام، شارع الأزهر، ص ١٨.

^{١٥٨} أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، رقم ٣٠٣٨، ص ٢٤٤.

^{١٥٩} ظفر أحمد العثماني التهانوي، قواعد في علوم الحديث، ص ١٨.

^{١٦٠} المصدر السابق، ص ١٨.

^{١٦١} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١١٥.

^{١٦٢} ظفر أحمد العثماني التهانوي، مقدمة إعلاء السنن، من قلم محمد التقي العثماني، ص ١٨.

- ٦- كان ﷺ يزين وعظه بالأشعار وبجسن إنشاده وصوته، ولكن لا يضيّع وقته في انتقاء العبارات المسجوعة، كما يفعل بعض الوعّاظ^{١٦٣}.
- ٧- ويسرد كلامه سردا بأسلوب سهل رشيق، وبأسلوب بليغ غاية البلاغة والفصاحة باستخدام كثير من الأشعار والآيات والأحاديث^{١٦٤}.
- ٨- وكان ﷺ يختار موضوعه من حيث متطلبات الحال ومقتضاه، فلا يقبل الطلب من الآخرين في تحديد موضوعه، بل يلقي وعظه بما يُلهم في قلبه وينشرح له صدره^{١٦٥}.
- ٩- وكان ﷺ دائم الاعتناء وشديد الاهتمام بالمسائل العقيدة، والرد على البدع، وإصلاح النفوس من حيث تخلصها من الخرافات والأفكار الفاسدة وجميع الضلالة، حيث يقول: "إني على يقين كامل أن من صلحت عقائده، وطهر قلبه من أسقام الشبهات، وأدناس الأفكار الزائغة، أدّاه ذلك يوما بيوم إلى إصلاح الأعمال إن شاء الله تعالى^{١٦٦}.
- ١٠- ومن ميزاته ﷺ أنه لا يكرر كلامه ولا يعيد موضوعه في مكان آخر، رغم أنه يلقي محاضراته في نفس الآية والحديث، بل يجدد الموضوع في كل مرة^{١٦٧}.
- وهكذا استمرت حياته طويلة في خدمة الأمة الإسلامية بكلماته الطيبة، ولكن لما اقترب وقته المنية ترك وعظه وقل في كلامه، وقليلًا ما يقدم تقريراته، وهي كذلك كانت بكلمة وجيزة، وكان يقول: "الآن وصلت إلى فترة من حياتي لا اتذوق بإلقاء التقارير الطويلة، ولا أُرغب إليها إلا بقدر ما أحتاج إليها، وقد أنهيت ما كنت أريد بها وأحب أن اتفرد وأفرغ لعبادة ربي جلّ وعلى^{١٦٨}".

^{١٦٣} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٨٧.

^{١٦٤} المصدر السابق، ص ٨٧.

^{١٦٥} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٨٥.

^{١٦٦} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي النهانوي، ص ١١٦.

^{١٦٧} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٩٤.

^{١٦٨} المصدر السابق، ص ٩٤.

المبحث الثالث: دوره التجديدي في التصوف الإسلامي

و يشتمل هذا المبحث على:

المطلب الأول: مفهوم التجديد وأهم وسائل تجديده ﷺ

المطلب الثاني: جهوده التجديدي في مجال السلوك والإحسان

المطلب الثالث: أهم أتباعه في مجال السلوك والإحسان

المطلب الرابع: جهوده في جمع الأحاديث الشريفة في أبواب التصوف، وأشهر تصنيفاته فيها

المبحث الثالث

دوره التجديدي في التصوف الإسلامي

قبل أن نخوض هذا المبحث لا بد لنا أن نعرف بمعرفة صحيحة لمفاهيم الأساسية للتجديد والإصلاح وفق مقاصد شريعتنا الإسلامية، وهذا يتطلب منا أن نأخذ مدلولاتهما من مصادر الإسلامية ونفهمها بضوء القرآن والسنة النبوية، ولا نستوردها من حضارة أخرى من الخارج، (وهي التطوير في بعض الأحوال المادية والديناوية في الدولة، والترقية في بعض الشؤون الاقتصادية والسياسية)، بناءً على ذلك كثير من المفكرين المعاصرين - المسلمين وغيرهم - جعلوا أن يختاروا كأمثال مصطفى كمال، ورضا شاه مجددًا ومصلاً في الأمة الإسلامية، ولا شك فيه أن هذا الزعم خاطئ بالوضاحة، وهذا أيضاً تشويه لصورة الإسلام، وانتحال مبطل لتعليم الإسلام، كما يظهر بأدنى تأمل لكل من يحمل المعرفة الأساسية بالإسلام وتعليمه، ويكون مطلعاً على طبيعة التاريخ الإسلامي.

المطلب الأول

مفهوم التجديد وأهم وسائل تجديده ﷺ

التجديد في فهم صحيح: هو الوصول إلى المصادر الأصلية من القرآن والسنة والحفاظ على الشريعة الإسلامية عن الأفكار الفاسدة والاعتقاد المنحرفة أو التأثيرات السلبية من مصادر أجنبية أو عوامل داخلية مغايرة لتعليم الدين الحنيف.

وفي هذه النسبة نرجع إلى ما قال به الشيخ محمد الغزالي: "التجديد والإصلاح لهما مفهوم واضح في ضوء محكمات الكتاب وبيانات السنة النبوية. فلننظر أولاً ما هو هذا المفهوم: التجديد كما فهمناه من بيان السنة النبوية عبارة عن ثلاث نقاط:

(١) نفي تحريف الغالين.

(٢) نفي انتحال المبطلين.

(٣) ونفي تأويل الجاهلين.

وهذا يعني أن عملية التجديد من وجهة نظرنا تهدف إلى الوصول إلى المصادر الأصلية للهداية الربانية من خلال القضاء على ما طرأ على الفكر والاعتقاد من انحرافات أو تأثيرات سلبية من مصادر أجنبية أو عوامل داخلية مغايرة لتعليم الدين الحنيف، حتى يتحرر الفكر من تحريفات الغلو وانتحالات الأبطال وتأويلات الجهل، ويظهر الوجه المشرق للتعليم الإسلامي من جديد أمام الناس ويتميز الاعتدال من الغلو والحق من الباطل والعلم الصحيح من الجهل السقيم^{١٦٩}.

وأما الإصلاح وهو مقابل الإفساد فمعناه تصحيح الأحوال والشئون عن الفساد والضلال والعودة إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، كما يقول الشيخ محمد الغزالي في خطابه: "وكذلك نرى أن مفهوم الإصلاح أيضا جاء واضحا بينا في محكمات القرآن والسنة. والقرآن الكريم في كثير من المناسبات يورد الإصلاح في مقابل الإفساد، فالإصلاح إذن يكون عبارة عن العودة إلى حالة الصلاح من حالة الفساد. والصلاح هو سلامة الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها من كل ما من شأنه أن يشوّه هذه الفطرة أو يضعفها"^{١٧٠}.

الأمور التي تجب التوفير في المجدد:

فالمجدد لا بد له أن يتوفر لديه بعض الصفات والسمات التي نص عليها علماء الكبار^{١٧١} بضوء القرآن والسنة، وهي الصفات فيما تلي:

- (١) أن يكون المجدد والمصلح متبعا للشريعة وبعيدا عن البدعة.
- (٢) وأن يكون محيياً للسنة، طامسا للبدعة.
- (٣) وأن يشتهر بين أبناء عصره بالعلم، ويكون مشارا إليه بالبنان.
- (٤) وأن يكون أكثر من العلم ناصراً لأهله، ذائداً عن حمي الدين، متصفاً بالصفات الكاملة، حتى أن يكون قائدا لعلماء عصره ومحورا للمصلحين من الأمة.
- (٥) وأن يكون شهرته على رأس مئة هجرية^{١٧٢}.

^{١٦٩} محمد الغزالي، (١٩-٢١ يناير ٢٠٠٩) عند مؤتمر "اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث بعنوان رواد الإصلاح الديني في شبه القارة الهندية، الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية.

^{١٧٠} المصدر السابق.

^{١٧١} فمن أمثال هؤلاء الكبار، الحافظ بن حجر العسقلاني، والسيوطي، والمناوي، والحجي، وشمس الحق العظيم آبادي، أبي زهرة وغيرهم.

فوفوق الضوابط المذكورة للمجدد والمصلح يتجلى لنا أن الإمام التهانوي كان نجما ساطعا في سماء التجديد والإصلاح، بل كان أبرز الشخصيات في هذا المجال بلا نزاع. لأنه قد تحققت هذه ضوابط التجديد والمجدد في شخصيته ﷺ بكل معانيها ولا خفاء فيها، و كل دارس لشخصيته يجد هذه الصفات والميزات متحققة فيه بالواضحة، و كل من عنده معرفة ولو أدنى المعرفة عن هذه العبقرية يجد هذه الصفات متوفرة بأروع أشكالها وأكمل معانيها فيه.

أهم وسائل تجديده ﷺ:

إن جهوده ﷺ في إصلاح الدين عظيمة، وفي هذه العجلة نحن نكتفي بالإشارة إلى أهم الأسباب والوسائل التي اختارها ﷺ لهذا الهدف الجليل، وفي الحقيقة أنه لم يترك أي وسائل في هذه الغاية إلا تطرق بها وسلك بها، ومن أهم هذه الوسائل، تأليفاته ومواعظه وتدريسه وقدوته الحسنة. كما يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي ﷺ عن جهوده الإصلاحية عامة: "كان من كبار علماء هذا العصر الربانيين، وأعظم مؤلف في هذا العصر بالإطلاق، ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة، والعمل، والرجوع إلى الله وإصلاح النفس، وانتفع الناس بكتبه انتفاعا لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان"^{١٧٣}. فهذه الوسائل المتنوعة تنحصر في وسيلتين الجليلتين، وهما عملية وعلمية.

أما العملية: كما نعرف أن هذا الفحل الجليل كان بنفسه قدوة حسنة لشعبه المسلمين في الهند عامة، و لأتباعه خاصة، وكان صاحب لواء التوحيد والدين الحنيف، والذي رفع رؤية التوحيد على قمة المنزل في وقت لما كان المسلمون مفترقين ومتضاعفين للتشتيت فيما بينهم بسبب سيطرة المستعمرين الغربيين عليهم، وهذه الحالة كانت أسوء الحالة للمسلمين في الهند، فكان ﷺ رفع صوت التوحيد بمواعظه ودعواته ورحلاته ومجلسه بين شعبه ليلا ونهارا، وهكذا أستم طول حياته في هذه الخدمة الجليلة، وحارب بكامل جهده خلاف التقاليد الباطلة والخرافات القديمة الجاهلية فيما بين المسلمين في الهند، فحياته مليئة بهذه الأمثال الكثيرة، وقد اعتنت كثير من التصنيفات

^{١٧٢} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١٩١-١٩٢.

^{١٧٣} عبد البارى الندوي (ط ١، ١٩٦٣) بين التصوف والحياة. دمشق: مكتبة دار الفتح، ص ١٢-١٣.

بتفصيل هذه الأمثال ومن أهمها "أشرف السوانح" للشيخ الخواجه عزيز الحسن المجدوب، و "حكيم الأمة مجدد الملة الشيخ أشرف علي التهانوي" لنجم الحسن التهانوي، و "الشيخ التهانوي: شئ من أحواله ومآثره وخدمته" لشيخ السيد منور حسن الكاظمي، و "سيرة الشيخ أشرف علي التهانوي" وغيرها كثيرة، التي حاول بها العلماء والأتباع أن يفصلوا عن جهوده المباركة في الإصلاح والتجديد، فمن يرغب إلى التفصيل فليرجع إليها.

وأما من ناحية العلمية: إن نشاطه العلمية في هذا الجانب عظيم لا يحصى، فنجد كثيرا من تصنيفاته^{١٧٤} يتحدث عن إصلاح شؤون المسلمين عامة من العبادات والمعاملات والمعاشرات والآداب والعادات وما إلى ذلك، وقد اعتنى ﷺ فيها بتصحيح كثير من العادات القديمة الفاسدة، وبعض الرسوم الهندوسية التي تأثر بها المسلمو الهند عبر العصور والدهور بطول عيشهم مع الهندوس.

وكثير من العلماء من يعاصره أو من جاء بعد عصره قد فصلوا عن هذا الفحل الجليل بالتفصيل الكامل في تصانيفهم الكثيرة، فلذا لا نتطرق إلى جميع جوانب تجديده، بل نكتفي بالذكر عن جهوده الإصلاحية في التصوف الإسلامي مع تثبيت هذا الموضوع بمنظور السنة النبوية، ونذكر أهم ما صنفه ﷺ في هذا الموضوع.

المطلب الثاني

جهوده التجديدية في مجال السلوك والإحسان

كان الشيخ التهانوي ﷺ من هؤلاء العباقرة في الإسلام الذين وُلدوا في هذه الأمة لتصحيح شؤون الأمة ظاهرة وباطنة، و بواسطتهم نشطت حركة الإصلاح والتجديد، فكان ﷺ من أبرز هؤلاء الذين جددوا هذا الدين، وحفظوا الإسلام من الخرافات والإفراط والتفريط عبر العصور المختلفة. فله جهود عظيمة في تجديد شؤون المسلمين، وخاصة في التصوف الإسلامي من حيث تنقيح هذا

^{١٧٤} ومن تصانيفه الإصلاحية مثل: إصلاح الرسوم، و إصلاح إنقلاب الأمة، و أغلاط العوام، تسهيل الطريق، وآداب الأخبار، والأفكار الديني، والرسائل في النصائح، والمواهب، وإصلاح المعتوه في تعريف الحرام والمكروه، تصحيح العلم في تقبيح الفلم، وما إلى ذلك.

الفن من البدع والخرافات الجاهلية، وتسهيله لأهل العصر، وتلويته بضوء السنة النبوية، وتلخيصه من الزوائد المضلة فيه، وقد وفقه الله تعالى لهذا العمل الجليل، فقام بالتمحيص في هذا الباب، ونقح مثل هذه الأخطاء المختلفة.

من المعلوم، أن الناس في أمر التصوف والسلوك ما بين إفراط وتفريط، فطائفة تزعم أن التصوف والسلوك من مجموعة البدعات والمحدثات، ليس له أصل في الكتاب والسنة. وأخرى تعتقد أن التصوف والسلوك إسم لبعض الكشوف والمواجيد والإشراقات التي تعترض لسالك هذا الطريق، وإن هذه الأحوال والتجارب النفسية هي مقصودة بالدين، ومن فاز بها تخلص عن ربة الأحكام الشرعية الظاهرة، والذي صدرت منه بعض الشعوذة والتصرفات أو ظهرت له بعد الكشوف والمواجيد في اليقظة أو المنام اتخذه الناس قدوة وإماماً، مهما زاعت عقيدته أو فسدت أعماله وأخلاقه. فقام حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمته الله بالردّ على هاتين الفكرتين نظرياً وعملياً.

أما نظرياً: فقد أثبت في كتبه وخطبه ومواعظه ومجالسه بأن التصوف جزء من أجزاء الدين وشعبة من شعب الإسلام، وأن أحكام الكتاب والسنة تنقسم إلى قسمين: قسم يتعلق بالأعمال الظاهرة التي تصدر من الأعضاء والجوارح مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج وما إلى ذلك من الأحكام الشرعية التي بسطها الفقهاء في كتبهم، والقسم الثاني من أحكام الكتاب والسنة يتعلق بالأعمال الباطنة التي محلها القلوب والأرواح، وفيها مأمورات ومنهيات، أما المأمورات فمثل الصدق والإخلاص، والخشية والرجاء، والشوق والأنس، والصبر والشكر، والتواضع والخشوع، وحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والإنابة والإحبات إليه تعالى وما إلى ذلك. وأما المنهيات فمثل الرياء والسمعة، والعجب والتكبر، والحقد والحسد، واليأس والقنوط، وحب المال والجاه، وكثير من أمثالها^{١٧٥}.

فإنما المراد بالتصوف: "هو التخلق بالأخلاق الفاضلة، واجتناب الرذائل النفسية، والفائز الناجح في هذا الطريق هو الذي تحلى بهذه الفضائل مع الامتثال التام للشريعة الإسلامية والاتباع الكامل للسنة النبوية، فإن أعطاه الله بعد ذلك نصيباً من فراسة الإيمان، أو حظاً من الكشوف الصادق فهو منة وزائدة من الله تعالى، وأما الذي حرم من هذه الأخلاق الفاضلة واتباع السنة النبوية، ولم يتجنب

^{١٧٥} أنظر: أشرف علي التهانوي (ط ١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٢م) حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة. تحقيق: مفتي محمد عفان

المنصور فوري، الهند: مكتبة الاتحاد، ص ٥١ و ٥٣.

هذه الرذائل النفسية فهو بعيد كل البعد عن التصوف والطريقة والولاية والسلوك، سواء كان يطير في الهواء، أو يمشي على الماء أو يرقى في السماء^{١٧٦}.

فهذه الفكرة التي أرشد إليها الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ لَلْأَمَةِ خلال تصنيفاته ومواعظه بضوء الكتاب والسنة مع الاقتباس من سير الصحابة والتابعين والصالحين المهديين، وكذلك ذب عن التصوف الإسلامي من قبائح الخرافات والبدعات والضلالات، وأعان الأمة في التعريف عن كثرة الواردين للدجالين والفتانين والمضلين في هذا المجال.

وأما عملياً: فرد الشيخ التهانوي على هاتين الفكرتين بعمله الموافق للسنة المحمدية، وسلك فيه مستقيماً معتدلاً من غير ميوله إلى الإفراط والتفريط، فكان كلما رجع إليه أحد للبيعة أمره أولاً بأداء واجبه في الشريعة، سواء كان من حقوق الله أو حقوق العباد، وكانت عنايته بحقوق العباد أكثر وأهم، لما شاهد رَحِمَهُ اللهُ أحوال كثير من الناس بأنهم يواظبون على العبادات ويكثرُونَ في ذكر الله، ولكنهم يقصرون في حقوق العباد، ويخالفون الشرع في بعض من المعاملات، كان يقول: "إني أصرف أكثر عنايتي إلى أن لا يؤذي الخلقَ أحدٌ مني أو من أصحابي، سواء كان ذلك الإيذاء بدنياً أو مالياً أو عرضياً - كإهانة رجل واغتيابه - أو نفسياً، وإن صدر شيئاً من ذلك خطأ فالواجب أن يبادر إلى طلب العفو والصفح.

وإني أهتم بهذه الأشياء أكثر من اهتمامي بغيرها، حتى لو رأيت أحداً يخالف الشريعة في وضعه الظاهر فإن ذلك يحدث في نفسي نوعاً من الألم، وأما إذا رأيت أحداً لا يبالي بأداء هذه الحقوق فإنه يحزنني حزناً شديداً، وأدعو الله تعالى له بأن ينجيه من هذه الموبقات^{١٧٧}".

وفي الحقيقة كان مجالسه قائمة على الحق، ومرجعة للصالحين لاسترشادهم إلى طريق الحق المستقيم، وقليلاً ما يرى في العالم نظيره، كما يقول الشيخ محمد تقي العثماني في مقدمة إعلاء السنن: "فكان (الخانقاه الامدادية) دار تربية فريدة في منهاجها في العالم، تهذب فيها الأخلاق، وتثقف فيها الأفكار، وتعلم فيها آداب الحياة الفردية والاجتماعية، يجتمع فيه المسلمون من أنحاء الهند وجوانبها، فيهم العلماء والمشائخ الكبار، وفيهم الأطباء والمهندسون، وفيهم الموظفون والمدرسون، وفيهم

^{١٧٦} أنظر: محمد ظفر أحمد العثماني التهانوي، مقدمة إعلاء السنن، من قلم محمد تقي العثماني، ص ٢١.

^{١٧٧} غياث الدين أحمد، أشرف جوريت، ص ٣٥٩-٣٦١.

أصحاب الزراعة والصناعة، وفيهم رجال من جميع مجالات الحياة يأتون إليه ويسكنون عنده فترة طويلة، فيشرف الشيخ على أحوالهم، ويعلمهم دينهم، ويدربهم على الأخلاق الإسلامية. وكان لهذه الخانقاه نظام محكم في كل شيء، يلزم على كل أن يتبعه، وكان هذا النظام نفسه مثالا حياً لآداب المعاشرة الإسلامية يحض المرء على أن ينظم حياته ويضبط أوقاته ويعني بأداء الحقوق والاحتراز عن إيذاء الآخرين^{١٧٨}.

نماذج الإصلاح لبعض الأفكار الفاسدة الشائعة بين الصوفية

التنبه على الفهم الخاطئ: إن المطلوب من التصوف هو تزكية القلوب التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية ولا غير، كما فهمه أسلاف هذه الأمة، ومن هنا يقول الشيخ عبد الباري الندوي رحمته الله في كتابه "بين التصوف والحياة" مقتبساً من أفكار الشيخ التهانوي رحمته الله: "إن من الخطأ والالتباس العظيمين ما وقع فيه بعض كبار العلماء، بأن حسبوا طرق التزكية السائدة اليوم هو التصوف الإسلامي بعينه، ولذلك دخل الإشراقيون على وجه العموم، ورهبان البراهمة على وجه الخصوص في زمرة المتصوفة، وهذا الالتباس الخاطئ لم يدخل في عقول الناس إلا من الكلمة المعروفة الذائعة: " أن الصوفي لا مذهب له " فتحرر التصوف بذلك من قيد الإسلام، وجاز له أن يتحد إذا شاء مع كل عقيدة. وقد استنكره الشيخ التهانوي الذي نقله عبد الباري الندوي: " ليست كل تزكية تصوفاً وإنما التصوف هو التزكية التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية وتحصل باتباعها والامتثال لها، وإنما هي التي تصلح للمرء أمر آخرته، ويدخل صاحبها تلك الجنة التي وعد بها المتقون، إن الله تعالى قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩ ، ١٠)، ذلك باتباع الشريعة الإسلامية، لا بمخالفتها.

أما الرياضات الروحية، والمجاهدات البدنية يأتيها رهبان من البراهمة وغيرهم، فليست من التزكية والتصوف في شيء، مهما قيل عنها، مهما سميت بأسماء التصوف، ولن تحمل تلك الأسماء والألقاب معنى، ولا حقيقة ولا شأن لها بالتصوف، إنها ألفاظ مجردة ومردودة عند الله غير مقبولة، وبالتالي

^{١٧٨} محمد ظفر أحمد العثماني التهانوي، مقدمة إعلاء السنن، من قلم محمد التقي العثماني، ص ٢٢-٢٣.

لا يمكن لرجل أن يحرز رحمة الله، وينال الفلاح يوم الآخرة، وحياته متعارضة مع الشريعة الإسلامية^{١٧٩}.

حسن التعامل مع الناس من أهداف التصوف:

نرى كثيرا من المتصوفين قليلا ما يهتمون بالمعاملات والمعاملات الصحيحة، ويستغرقون في الذكر، وفي ترديد لفظ الجلالة ألف ألف مرة، ولكن يغفلون عن هدف ذكر الله وغايته الأصلية. فمن هنا يصرح الشيخ التهانوي رحمته الله في إحدى مواعظه بما نقله الشيخ محمد رحمة الله الندوي في كتابه: "يظن الناس بعد ترديدهم لكلمة "الله" مئة ألف مرة، أنهم أتوا بالذكر، مع أنهم لم يأتوا بحقيقة الذكر، بل إنما أتوا بصورة الذكر وبأثر من آثاره، لأنهم لو كانوا أتوا بحقيقة الذكر لم تخل حياتهم من الأعمال الحسنة الأخرى، بل نجد أن كثيرا من الذين يرددون كلمة "الله" مئة ألف مرة ولكن لا توجد فيهم الأعمال الأخرى بتاتا"^{١٨٠}.

مجرد الذكر اللساني لا يغني عن الحق شيئا:

وأیضا أنه رحمته الله نبه السالکین لسلوک التصوف عن الخطأ الجسيم، الذي يصدر من الشيوخ والمریدین كثيرا، إذ حسبوا أن مجرد الذكر يكفي لإصلاح جميع الأعمال والأخلاق، وهم أشد خطأ حينما يحتجون لزعمهم هذا بأنه قيل "أنا جليس من ذكري"^{١٨١}، فيظنون أن هذا يدل على أن العبد يتقرب إلى الله بالذكر، فإذا تقرب إلى ربه فكيف يمكنه أن يعصيه، أو يأبى أوامر ربه؟ فإذا لا حاجة إلى وسائل أخرى لإصلاحه، وقد تأثر به كثير السالکین حتى كبار شيوخهم، ولكن كما هو ظاهر، أن هذه الفكرة فكرة خاطئة بالصراحة، وهي مخالفة لهدى القرآن والسنة وآثار

^{١٧٩} عبد الباري الندوي، بين التصوف والحياة، ص ٢٦.

^{١٨٠} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١٥٤-١٥٥.

^{١٨١} رواه البيهقي في شعبه: "أخبرنا أبو عبد الله الحافظ و أبو سعيد بن أبي عمرو قالا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أسيد بن عاصم ثنا الحسين بن حفص عن سفيان عن عطاء بن أبي مروان أبي مصعب الأسلمي قال: حدثني أبي عن كعب قال: قال موسى عليه السلام: يا رب أقریب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فقيل له: يا موسى أنا جليس من ذكري فقال: إني أكون على حال أجلك عنها قال: ما هي يا موسى؟ قال: عند الغائط و الجنابة قال: اذكرني على كل حال". أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ط ١، ١٤١٠) شعب الإيمان للبيهقي. تحقيق: محمد السعيد بسبوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية. "الفصل الثاني في ذكر آثار و أخبار وردت في ذكر الله عز و جل"، ج ١، ص ٤٥١.

الصحابة، وكان الشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ يقول في إحدى المناسبات: "إن مجرد الورد والذكر لا يكفي أبداً، أحلف بالله أن شيوخ الأوراد المجردة لا يجد لديهم الإصلاح، والإصلاح لا يأتي إلا باختيار طرق الإصلاح"، بل في مكان ثاني يقول: "هذا الظن الواهن لا يغني عن الحق شيئاً ، وبعيد عن الصراط الحق المستقيم، لأن وسائل الإصلاح داخلية في كلمة (ذكرني) ، فلا يثبت ذكر الله بدون معالجة الأمراض ومداواتها، إقرأ (الحصن الحصين) تجد فيه لفظ (بل كل مطيع الله ذاكراً) فمعنى الذكر التذكير، والتذكير يأتي من طرق مختلفة". أخيراً قد صرح الشيخ التهانوي في هذه النسبة بجوابه الحاسم^{١٨٢}: "وهكذا تجد كثيراً من الجهلة يحسبون أن الأذكار والأشغال والمراقبات والرياضات أو الأحوال، غايات ومنشودات أصيلة للتصوف والولاية، وهذه جهالة خالصة، لأن المقصود هو أعمال الظاهر والباطن لاغير، أما بقية الأذكار والأشغال المتعارفة أو الرياضات والمراقبات، فليست إلا التدابير ووسائل لإصلاح الأعمال، وأما الأحوال فهي الثمرات التي ليست بلازمة، أي الثمرات لا يلزم أن تظهر، وليس تحصيلها بواجب ولا منشود^{١٨٣} .

التصوف الحقيقي برئى من الإفراط والتفريط: ومن البدهي أن الإسلام بناحية نظامه وسطية المنهج، فلا مجال فيه للإفراط والتفريط، وهو طريق سوي لا عوج فيه، كما يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.....﴾ (سورة البقرة، الآية ١٤٣) ، وقال صاحب الظلال في تفسيره " أُمَّةً وَسَطًا " الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، وكذلك يقول: أمة وسطاً في التصور والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد متلبس به روح . وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها ، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع ، بلا تفريط ولا إفراط ، في قصد وتناسق واعتدال^{١٨٤} .

^{١٨٢} عبد البارى الندوي، بين التصوف والحياة، ص ٧٨-٨١.

جدير بالذكر، أن هذه الكلمة مع أمثالها التي سيأتي ذكرها، نقلها الشيخ عبدالباري الندوي من مواعظ الشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وهو يعتبر من أجل خلفاء الشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، من كان يلزمه في سفره وحضره، وخاصة عند آخر حياته.

^{١٨٣} المصدر السابق، ص ٧٨-٨١.

^{١٨٤} سيد قطب، ظلال القرآن، ج ١، ص ١٠٠.

فالتصوف الإسلامي من حيث جزء هذه الشريعة الغراء لا مجال فيه للإفراط والتفريط. ولكن كثيرا ما نشاهد قد تطرق فيه الغلو والفساد، الإفراط والتفريط، و كثير من أصحابه يغفلون في هذا السبيل غلوًا كبيرًا، حتى يمتنعون عن منافع الدنيا وملذاتها الجائزة، ويحسبون أن المجاهدة هي أن تبخس حقوق النفس، وتمحق مطالبها جمعاء، ويحسبون ذلك طريقًا إلى نجاة الروح وفلاحها. فالشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ يردّ على هذه المزاعم الفاسدة الصوفية المنحرفة، ويقول: "أصبح الصوفية يزعمون أيضاً أنّ رضاء الله لا يحصل إلا بمخالفة النفس، وكلما كانت هذه المخالفة أشد، كان رضا الله أعظم وأقوى، ولو كانت هذه المخالفة لا تتفق مع الشريعة الإسلامية، حتى إنه قد يبدو لبعضهم فيحرمون على أنفسهم اللحم، فلا يأكلونه، ويمتنعون عن البارد من الماء فلا يشربونه، ومنهم من يجتنب الفراش والوثير فلا يضطجع فيه، وغلت طائفة ممن حرمت من نعمة الإسلام فتجاوزت إلى حدّ أنهم قد يجففون جوارحهم ويميتونها"^{١٨٥}، فيخالف رَحِمَهُ اللهُ هذا المنهج مخالفة صريحة، ويذكر بالحديث المعروف في حكاية الإخاء التي وقعت بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي، كما جاء به البخاري في صحيحه^{١٨٦}.

فهذا هو الإسلام الذي يدلنا على وسطية المنهج في كل ناحية من الحياة، وهو النظام الوحيد الذي أعطى الحق للمادة والروح سواءً بسواء، واهتم بأمور الغيبية من الروح والإله، ولكنه لم ينسى عن المادة من الجسد والحياة الدنيوية، بل جعلها دار الأسباب من حيث الوسائل للوصول إلى الغاية المنشودة، وهي الآخرة مع النجاح فيها برضا الله والفوز فيها، فلذلك الشيخ التهانوي يقول في

^{١٨٥} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٦١-٢٦٢.

^{١٨٦} الحديث: عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها ما شأنك قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال كل قال فيني صائم قال ما أنا بأكل حتى تأكل قال فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال ثم فنام ثم ذهب يقوم فقال نم فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن فصليا فقال له سلمان إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق سلمان. راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، رقم ١٩٦٨، ص ١٥٤.

موضع آخر، مستدلاً بقول شيخه الحاج إمداد الله المهاجر المكي رَحِمَهُ اللهُ: " فليس الإقلال من الأكل زهداً، وليس غاية منشودة، لأننا إذا زهدنا في شيء، لم نستطيع أن نزيد في خزائن الله شيئاً، مع أنه يجب أن لا يأكل الرجل إلى أن يتخم أو يتألم من بطنه، أما الشيخ إمداد الله رَحِمَهُ اللهُ فكان من رأيه أن يمتنع الرجل نفسه، ويبي رغبته، ثم يستخدمها في أعمال الخير ويجهدا"^{١٨٨}.

الأمور الخارقة ليست علامة للولاية: قد أنكر الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ أشد الإنكار على الجهلة الصوفية الضالة وأتباعهم الذين يعتبرون خوارق الأمور من أهم علامات الأولياء والصالحين، وهم يعتقدون بأن كلما كان إظهار الخوارق أغرب وأعجب من الرجل، كانت مكانته في الولاية أعظم وأقوى، ولو كان هذا الرجل يخالف أمور الشريعة ويرتكب بالبدعة والذنوب والعصيان، فهؤلاء الذين غيروا مفهوم التصوف رأساً على عقب، ولا يلتفتون إلى أوامر الشريعة من الوجوب والسنن، فهم من الجهلة والسفهاء الذين أضلوا فأضلوا. ومن هنا الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ يقول: "إن كرامات الأولياء لا تصلح ولا تقبل إلا إذا كانت صادرة من رجل ورع تقي بار، فالتصوف لا يقبل عند الله إلا إذا كان في رجل ورع وتقي، عامل بالشريعة، خاضع لها، ولا بدع في ذلك....."^{١٨٩}.

هذا كان نموذج قصير من إصلاح الشيخ التهانوي وتجديده في مجال السلوك والإحسان، وإلا هذا المجال واسع كما أشرنا إليه من قبل، لأنه رَحِمَهُ اللهُ كان يبذل جهده الكامل في هذا المجال طول حياته، ونبه الأمة عن تضليل جهال المتصوفين المظهرين صلاحهم وبراعتهم بإظهار الأمور الخارقة من السحر والمعونة والاستدراج، رغم أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن حقيقة السلوك، ولا يوجد لديهم أي علاقة مع هدى النبي ﷺ وسننه، بل هم من أتباع الدجالين والطاغين، ومظهرين بأنهم

^{١٨٧} وهو شيخ أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ في السلوك والإحسان، وينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه. وكان حنفي المذهب، إماماً في الطريقة، ولد في الثاني والعشرين من صفر عام ١٢٣٣ هـ في نانوته بسهارنفور، وقضى حياته الكاملة في خدمة الدين وإصلاح الأمة حتى أن لقي ربه في ١٤/٦/١٣١٧ هـ، من أشهر خلفائه الشيخ أشرف علي التهانوي، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، والشيخ قاسم النانوتوي مؤسس دار العلوم ديوبند، والشيخ خليل أحمد السهارنفوري، شارح سنن أبي داود وعنه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس جماعة التبليغ.

^{١٨٨} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٦٣.

^{١٨٩} عبد البارئ الندوي، بين التصوف والحياة، ص ٣١-٣٢.

على سبيل الرشد. فالشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ اتخذ مختلف الأسباب من التصنيفات والمواظ
والمحاضرات لهذه المحنة الجليلة، حتى سماه الأمة بحكيم الأمة^{١٩٠}، ونجح في جهوده كل نجاح، حتى أن
جاء النداء من ربه تعالى فتلى بكل سرور وفرح. أكرمه الله تعالى حق تكريمه. آمين.

المطلب الثالث

أهم أتباعه في مجال السلوك والإحسان

كما ترك الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ في مآثره ثروة كبيرة من التأليفات الدينية، كذلك ترك خلفه عددا
كبيرا من خلفائه الذين سلكوا هداه ورشده، واستمروا بدعواه الإصلاحية في إصلاح الأمة
الإسلامية عبر العصور، وما زالت خدماتهم باقية حتى عصرنا هذا، ونرى أن أغلبية علماء العظام
وأصحاب الفضل والشرف والكمال في شبه القارة الهندية ينتمون إلى هذه العبقرية الجليلة،
وينتهجون نهجه دعوةً وتربيةً وإصلاحاً وإرشاداً، وأتباعه منتشرون في كل أنحاء العالم، حتى أن
اعتبره الناس كمرجع الصالحين والراشدين وعلماء الربانيين.

فاستفاد منه خلق كثير من مشارق الأرض ومغربها، وما زال يزداد تعداد أتباعه يوما بيوم، الذين
جعلوا أن يتبعوا مناهجه العلمية والتربوية والسلوكية، وهذا العدد غير محدود، ولكن هناك عدد
كبير من خلفائه الذين اختارهم الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ للقيام لحركته التجديدية والإصلاحية واعتمد
عليهم للتربية والإرشاد، وما كان يخطأ الشيخ التهانوي في انتخابه للخلفاء بل كان حصيفا وخبيرا
في هذا، الذين وضحوا براعتهم بعد مماته رَحِمَهُ اللهُ بقيام المهام الجليل والعبء العظيم، فقاموا بكل ما
ألقي عليهم من المسؤوليات خير قيام في مجال التربية والإصلاح، وأسسوا المراكز الروحية التربوية،
فاستفاد منهم العلماء والعوام من الفوائد العلمية والسلوكية، ولا يمكن كل ذلك إلا بالتأييد الرباني،
والإرادة الإلهية، والقبول من الله سبحانه وتعالى، وهذه النخبة من العلماء وصفوة من الصلحاء
مازالت تنير نور الإيمان والهدى في مناطق مختلفة من العالم عامة وفي الهند خاصة.

^{١٩٠} أي طبيب الأمة، وذلك لجهوده الكبيرة في معالجة أمراض النفسية والاعتقادية للأمة الإسلامية في الهند، ولمساهمته
الكبيرة في تعين جميع المفاصل الاعتقادية من البدعات والخرافات التي تأثرت بها الأمة في هذه المنطقة، فقام في معالجتها
علاجاً بصيرة ودقيقة كما هو الشأن للطبيب الماهر.

ومن هنا بعض المشاهير من خلفائه الذين قاموا بنشر دعوة الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ، ووقفوا حياتهم في هذا السبيل، وأنفقوا كل طاقتهم، وصرفوا كل إمكانياتهم لتحقيق هذا الغرض النبيل، فنحتاج أن نسعد بذكر حياتهم ولو باختصار شديد.

نبذة قصيرة عن سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ

١٨٨٤-١٩٥٣م

هذا الفحل الجليل وُلِدَ فِي أُسْرَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ عَرِيقَةٍ حُسَيْنِيَّةِ النَّسَبِ، بِقَرْيَةٍ (دِيسَنَةَ) مِنْ وِلَايَةِ (بِيَهَار) بِالْهِنْدِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِسَبْعِ بَقِيَّةٍ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ سَنَةِ اثْنَتَيْ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، الْمَوْافِقِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ نَوَفَمْبَرِ سَنَةِ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِيلَادِي^{١٩١}. أَثْنَى عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالِدُّعَاةِ^{١٩٢}.

مكانته العلمية: فكان رَحِمَهُ اللهُ عالماً موسوعياً بمعنى الكلمة، يحمل في صدره مكتبة واسعة في الفنون والعلوم من التفسير والحديث والفقه والتاريخ والأدب، وله مآثر خالدة من التصنيفات في كل ناحية من العلوم الإسلامية، حتى بلغ ذروة النبوغ في العلوم الإسلامية، وصار مرجعاً للعلماء و المثقفين في الديار الهندية، ومأوى الكُتَّابِ وَالباحثين^{١٩٣}.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: رغم علو قدره في المجال العلمي وشهرته في كثير من أمور الدين والدنيا كان يشعر بحاجة إلى من يرشده إلى دقائق إصلاح النفس، وكمال الإخلاص والتحقيق، فسأقه التوفيق والمناسبة العلمية إلى مرشده الشيخ أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، وبايعه في شهر رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، وأذعن له بالثقة والاعتماد، والتفويض

^{١٩١} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٨٢.

^{١٩٢} كما قال شيخه أشرف علي التهانوي: "يتشابه شبلي النعماني وسليمان الندوي تشابه ابن تيمية وصاحبه ابن القيم". و يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "كان السيد سليمان الندوي راسخاً في العلوم العربية وآدابها علي الكعب، دقيق النظر في علوم القرآن وعلم التوحيد والكلام، واسع الاطلاع، غزير المادة في التاريخ، وعلم الاجتماع والمدنية، منشئاً صاحب أسلوب أدبي في اللغة الأردنية، كاتباً مترسلاً في اللغة العربية، شاعراً مقللاً في اللغتين، مع إحسان وإجادة.

^{١٩٣} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٨٤.

والانقياد، ونال عند شيخه الزلفى في أقل مدة، فأجاز، واستخلفه لعشر خلون من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف^{١٩٤}.

وفاته: بعدما أمضى عمره الحافل بالعمل الدؤوب، والمآثر الخالدة، والخدمات العلمية والدينية الجليلة، وافاه الأجل بباكستان في غرة ربيع الآخر عام ١٣٧٣هـ الموافق ٢ نوفمبر عام ١٩٥٣م^{١٩٥}.

لمحة سريعة من حياة الشيخ المفتي محمد شفيع رحمته الله

١٣١٤-١٣٩٦هـ

ولادته ونشأته: هذا الفحل الجليل المتمكن في قلوب علماء الهند بكثير لخدماته الدينية الوافية، ولد في الواحد والعشرين من شعبان المعظم سنة ١٣١٤هـ، وترعرع في حجر العلم والعرفان، إذ عكف على تلقي العلم من العلماء الكبار منذ نعومة أظفاره، والتزم صحبة العارفين من بداية عمره^{١٩٦}. التحق بدار العلوم ديوبند سنة ١٣٢٥هـ وهو لم يتجاوز من عمره إحدى عشرة سنة، واستفاد من أساتذة الأفاضل من علماء الربانيين^{١٩٧}، حتى أن تخرج فيها سنة ١٣٣٦هـ، وهو ابن ٢٢ سنة^{١٩٨}.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: كان رحمته الله منذ ميعة صباه في اشتياق شديد نحو الاستفاد من صحبة الإخيار من أساتذته الأبرار، فكان في البداية يلازم صحبة الإمام الداعية المجاهد الكبير شيخ الهند محمود الحسن، وما زال يستفيد من بحار عرفانه حتى أن توفاه الله تعالى، ثم بعد وفاته أخذ البيعة على يد الشيخ أشرف علي التهانوي، وكان يستفيد بصحبته حول ست وعشرين سنة حتى

^{١٩٤} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٨٩.

^{١٩٥} أنظر: المصدر السابق، ص ٢٨٩.

^{١٩٦} أنظر: المصدر السابق، ص ٢٩٣.

^{١٩٧} منهم الشيخ أنور شاه كشميري، الفقيه عزيز الرحمن، الشيخ السيد أصغر حسين الهاشمي الحسني، شيخ الإسلام مولانا شبير أحمد العثماني صاحب (فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم)، الأديب مولانا إعزاز علي و الشيخ محمد إبراهيم البلياوي وغيرهم كثير الخلائق من أهل البراعة والسفرة البررة. أنظر: سيد محبوب الرزوي (ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) تاريخ دار العلوم ديوبند. المنقل إلى اللغة البنجالية: أبو الفتاح محمد يحيى، دكا: المؤسسة الإسلامية بنجلاديش، ص ٦١٣.

^{١٩٨} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٩٣.

أن توفي الشيخ التهانوي في سنة ١٣٦٢هـ، ونال على الخلافة السلوكية من التهانوي سنة ١٣٤٩هـ^{١٩٩}.

عنايته البالغة في العلوم الإسلامية: قد اشتهرت هذه الشخصية الجليلة في الفقه والفتيا أكثر من كل ناحية من العلوم الأخرى، حتى لقب بـ(مفتي الجمهورية الباكستانية)، وله جهود كبيرة في التهذيب والتحقيق لفتوى دار العلوم ديوبند، مع ذلك أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد فاض بقلمه السيل، ولياقته العلمية أُلّف في كثير من الفنون الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتصوف والأدب والعقائد والآداب الاجتماعية وغيرها.

وفاته: توفاه الله تعالى ليلة الحادي عشر من شوال سنة ١٣٩٦هـ، الموافق ليلة سادس أكتوبر عام ١٩٧٦م، وشهد جنازته نحو خمسين ألف رجلاً^{٢٠٠}، رحمه الله رحمة واسعة، وتقبل منه سعيه المشكور، ورفع درجاته في أعلى عليين. أمين.

قبس من حياة الشيخ المقرئ محمد طيب

١٣١٥-١٤٠٣هـ/١٨٩٧-١٩٨٣م

تعريفه ونشأته: هو الشيخ المقرئ محمد طيب بن حافظ أحمد بن محمد قاسم النانوتوي المؤسس لدار العلوم ديوبند رحمهم الله، قد أكرمه الله تعالى بشرف النسب العالي حيث يصل نسبه إلى أمير المؤمنين الأول سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولد في شهر محرم سنة ١٣١٥هـ، الموافق شهر مايو عام ١٨٩٧م في قرية (ديوبند). بمديرية سهارنפור بولاية (أترا براديش) الهند.

تعليمه: بدأ تعليمه تحت رعاية علماء الأفاض في دار العلوم ديوبند، وهو ابن سبع سنين، وانتهى من حفظ القرآن الكريم مع إتقان التجويد والقراءات في ظرف سنتين، وبعد ذلك مازال يستفيد من

^{١٩٩} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٩٧.

^{٢٠٠} أنظر: سيد محبوب الرزوي، تاريخ دار العلوم ديوبند. المنقل إلى اللغة البنجالية: أبو الفتاح محمد مجي، ص ٦١٤.

علماء الكبار في العلوم والفنون حتى تخرج في هذه الجامعة عالماً متضلعا عام ١٣٣٧هـ، الموافق ١٩١٩م، وهو ابن نحو ٢٢ سنة فقط.

خدمته العلمية والدينية: بعد تخرجه من جامعة دار العلوم ديوبند، اشتغل فيها مدرسا، وفي سنة ١٣٤١هـ عين نائب الرئيس لهذه الجامعة، ثم رئيسا مستقلا لها في ٢١ شوال سنة ١٣٤٨هـ، وظهرت براعته العلمية والإدارية كثيراً خلال هذه الفترة، وقد شهدت الجامعة على عهد رئاسته تقدماً مادياً وعلمياً بكثير، وتخر في عهده أكبر عدد من دفعات العلماء والدعات والمفتيين والمفكرين من هذه الجامعة^{٢٠١}.

وكان رَحِمَهُ اللهُ سابقاً في الدفاع عن الإسلام والمسلمين اتباعاً لمشائخه وآبائه الكبار في الدين، فسلك خطوتهم في محاربة الفرق الباطلة والطوائف المنحرفة بما فيها القاديانية والبريلوية والحركات المستهدفة للإسلام من قبل الإحيائية الهندوسية والتبشير المسيحي.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: كان رَحِمَهُ اللهُ في البداية يلازم الشيخ محمود الحسن الديوبندي، وبايعه على يده حتى أن تشرف بالخلافة منه، ثم بعد أن توفي الشيخ الديوبندي بايع على يد الشيخ أشرف علي التهانوي عام ١٣٥٠هـ ونال منه الإجازة السلوكية، وما زال يستفيد من صحبة الشيخ التهانوي حتى أن انتقل الشيخ إلى رفيقه الأعلى عام ١٣٦٢هـ^{٢٠٢}.

وفاته: كان رَحِمَهُ اللهُ مازال يفيد الناس بخدمة الأمة الإسلامية بلسانه وقلمه وجهوده العلمية والفكرية، حتى أن لَبَّى نداء ربه تبارك وتعالى في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة تماماً من يوم الأحد من ٦ شوال سنة ١٤٠٣هـ الموافق ١٧ يوليو سنة ١٩٨٣م، وصَلَّى عليه في داخل الحرم الجامعي بعد صلاة العشاء، ودفن في المقبرة القاسمية الملاصقة للجامعة. وكان رَحِمَهُ اللهُ لدى وفاته في الثماني والثمانين من عمره^{٢٠٣}. منحه الله تعالى رحمته الواسعة ودرجاته العالية. آمين.

^{٢٠١} أنظر: سيد محبوب الرزوي، تاريخ دار العلوم ديوبند، المنقل إلى اللغة البنجالية: أبو الفتاح محمد يحيى، ص ٦١٦ -

٦١٨.

^{٢٠٢} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣٠٠.

^{٢٠٣} أنظر: المصدر السابق، ص ٣٠٤.

لمحة سريعة عن حياة الشيخ عبد الباري الندوي

١٣٠٦-١٣٩٦هـ / ١٨٩٠-١٩٧٦م

تعريفه وولادته: هو الشيخ عبد الباري بن الحكيم عبد الخالق، من أجل خلفاء الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ مِنْ اعْتَمَدَ عَلَيْهِمُ الشَّيْخُ كَثِيرًا فِي جُهِودِهِ التَّجْدِيدِيَّةِ وَالْإِصْلَاحِيَّةِ، وَأَحَدَ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِمَعْرِفَةِ الْأَدَبِ وَالْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَدَ فِي ١٤ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٣٠٦هـ، الْمَوْافِقِ آبِ أَيْسُطُسِ عَامِ ١٨٩٠م فِي قَرْيَةِ (سْتَرْكَهو). بِمَدِيرِيَّةِ (بَارَهْ بَنْكِي) ثُمَّ أُسْتَوْطِنَ وَالِدُهُ مَدِينَةَ (لَكْنُو)، وَكَانَ وَالِدُهُ مِنْ مَشَاهِيرِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ، يَصِلُ نَسَبُهُ الشَّرِيفِ إِلَى الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ ٢٠٤.

تعليمه: بدأت رحلته العلمية منذ بكورة عمره برحلاته العلمية إلى المراكز الدينية العديدة، ولكن دار العلوم ندوة العلماء هي أكبر ما ظفر منه استعداده العلمي هذا الفحل الجليل، وترى فيه تحت رعاية كثير من علماء الأفاضل^{٢٠٥}، حتى أن تخرج من ندوة العلماء سنة ١٩١٠م.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: كان من أجل خلفاء الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، وَقَدْ بَايَعَهُ فِي يُونِيُو عَامِ ١٩٢٨م، وَمِنْذُ مَبَايَعَتِهِ كَانَ شَدِيدَ الصَّلَةِ مَعَ شَيْخِهِ حَتَّى لَمْ يَكُنْ يَرْضَى أَنْ يَضِيعَ أَيُّ فُرْصَةٍ سَاحِخَةٍ حَتَّى فِي إِجَازَتِهِ الصَّيْفِيَّةِ كَانَ يَقْضِيهَا فِي صَحْبَةِ الشَّيْخِ التَّهَانَوِيِّ^{٢٠٦}، كَمَا يَقُولُ بِنَفْسِهِ: "تَتَوَقَّعُ دَائِمًا أَنْ أَقِيمَ إِقَامَةً دَائِمَةً فِي (تَهَانَهُ بِهُون) لَكِنْ كَسَرَ سُلَاسِلَ الْوَضِيفَةِ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا مَيْسُورًا، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الشَّيْخَ التَّهَانَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَدْ أَرْسَلَ بِنَفْسِهِ رِسَالَةً إِلَى الْوَالِي وَحَاكِمِ حَيْدَرَابَادِ

^{٢٠٤} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣٠٦.

^{٢٠٥} منهم الشيخ فرنكي محلي، والشيخ توكل حسين، والشيخ محمد إدريس الندوي، والشيخ العلامة شبلي نعماني، والشيخ العلامة السيد سليمان الندوي، والشيخ عبد الحفيظ، والشيخ عبد السلام الندوي، والشيخ محمد حسين الحيدر آبادي رحمه الله، وغيرهم من الأخيار وعلماء الأفاضل.

^{٢٠٦} محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣١٠.

يشفع لي فيها، لكن الجامعة العثمانية رفضت الطلب قائلة بأنها إلى الآن لم تجد من ينيب عني ويتولى مسؤولياتي، فاعتذرت عن قبول استقالتي، وإعفائي من العمل^{٢٠٧}

خدمته العلمية والإصلاحية: كان رَحِمَهُ اللهُ من هؤلاء العظام الذين بذلوا جهودهم كاملة في خدمة الإسلام، سواء كان في جانب علمي أو في جانب إصلاحي، وكانت له مهارة عجيبة في الفلسفة المستحدثة، فقد أن يقوم رادا على ما صدر من المدارس الفكرية الحديثة في أوروبا، ويقول الشيخ الندوي رَحِمَهُ اللهُ مدحا على لياقته الفلسفية: "كان معلما للفلسفة الحديثة،..... ودرّس طوائف من الشباب الأذكياء والنابعين الفلسفة وعلوم الدين، واجتاز مراحل القلق الفكري والارتياحة السوفسطائية، وكان متصلا بالمدارس الفكرية الحديثة في أوروبا^{٢٠٨}.

وقد برزت عبقريته أكثر بمساهمته المشكورة في نشر الدعوة الإصلاحية والتجديدية لحكيم الأمة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ ، وبذل جهوده الكبيرة لهذا الغرض الجليل^{٢٠٩}.

وفاته: وبعد عمر حافل بالخدمات العلمية والدعوية والمآثر الإصلاحية والتربوية استأثرت به رحمة الله ووفاته المنية في ٢٨ المحرم الحرام سنة ١٣٩٦هـ، الموافق ٢٠ (يناير) عام ١٩٧٦، إنا لله وإنا إليه راجعون^{٢١٠}. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الله مقاما كريما في داره البقاء. آمين.

^{٢٠٧} عبد الباري الندوي، بين التصوف والحياة، ص ١٤.

^{٢٠٨} عبد الباري الندوي، بين التصوف والحياة، ص ١٣-١٤.

^{٢٠٩} كما يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي: "اختار الله تعالى لعرض دعوة حكيم الأمة وفكرته- التي احتوتها آلاف من الصفحات- أستاذا كبيرا الشيخ عبد الباري الندوي، أحد تلاميذه الروحيين، وقد كان أجدر الناس بهذا العمل الجليل" أنظر: عبد الباري الندوي، بين التصوف والحياة، ص ١٣-١٤).

^{٢١٠} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣١٤.

نبذة قصيرة عن الشيخ الأديب عبد الماجد الدرايبادي

١٣٠٩-١٣٩٧هـ/١٨٩٣-١٩٧٧م

تعريفه وولادته: هو عبد الماجد الدرايبادي، من أحد العلماء البارعين في الأدب والتفسير، ولد بقرية (دريباد) من أعمال (باره بنكي) بولاية (أترابرايش الهند) سنة ١٨٩٣م.

تعليمه: أخذ العلوم الابتدائية في قريته، ثم سافر إلى مراكز عديدة لحصولها حتى أن تمهر في العلوم المختلفة من الأدب والفلسفة والعلوم العقلية الأخرى، وأيضاً أتقن في اللغات العديدة.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: رغم أن هذا الفحل العبقري في بداية حياته كان يتأثر بأنواع من الإنحرافات الفكرية الفلسفية، من الشكوك والشبهات تجاه العقائد الإسلامية، ولكن التوفيق الإلهي ساقه فجائياً إلى معرفة الحق والصدق، فسعد بلقاء الشيخ التهانوي، وقضى فترة طويلة في ظل التربية العالية منه، واستمرت هذه العلاقة تربط بمرشده إلى آخر لحظات حياته^{٢١١}.

خدمته العلمية والإصلاحية: إن عبقريته غنية عن التعريف في شبه القارة الهندية، كان رحمته أديبا بارعا، صحفيا قديرا متقنعا لعدة لغات أجنبية، مفكرا فلسفيا عديم النظير في شبه القارة الهندية، فجاء بخدمة الإسلام من جانب الفكر الإسلامي بكثير، وذلك بما أعطاه الله تعالى لياقة عجيبة في استنباط نواذر النكات الإصلاحية، فاستخدم هذه اللياقة الدينية في استخراج الفوائد الدعوية والدقائق التربوية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وهكذا ساق حياته الكاملة في خدمة الإسلام بمشاركته مع الحركات التجديدية والإصلاحية لحكيم الأمة أشرف على التهانوي رحمته^{٢١٢}.

وفاته: وبعد عمر حافل بالأعمال الدعوية والإصلاحية، وخدمة العلوم الدينية، استأثرت به رحمة الله تعالى في صفر الخير ١٩٧٧م، إنا لله وإنا إليه راجعون^{٢١٣}.

^{٢١١} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣١٦.

^{٢١٢} أنظر: المصدر السابق، ٣١٥-٣١٨.

^{٢١٣} أنظر: المصدر السابق، ص ٣١٥-٣١٨.

نبذة قصيرة عن حياة المصلح الكبير الشيخ وصي الله الفتحفوري

١٣١٤-١٣٨٧هـ

تعريفه وولادته: هو الشيخ الجليل وصي الله الفتحفوري، أحد المشاهير من العلماء البارزين في حركة التجديد والإصلاح للشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، ولد ونشأ بقرية من أعمال (فتح فور) بمدينة (أعظم كره) بولاية (أترايراديش) الهند، سنة ١٣١٤هـ.

تعليمه: كان بيته رَحِمَهُ اللهُ مركزاً لتعليمه الابتدائي، ودرس فيه مبادي العربية والفارسية، وأكمل حفظ القرآن الكريم وهو ابن إثني عشر عاماً، وفي سنة ١٣٢٨هـ التحق بدار العلوم ديوبند، ومن خلال سبع سنين تخرج منها متشرفاً بالعلوم والأخلاق ولم يتجاوز عن عمره ٢١ عاماً، وذلك في سنة ١٣٣٥هـ.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: كان رَحِمَهُ اللهُ منذ معية صباه في اهتمام شديد بجانب تزكية النفس، فوفق بلقاء الشيخ التهانوي، فمنذ اللقاء الأول لازم صحبة الشيخ التهانوي حتى أن أصبح من كبار ملازمي الشيخ، فزادت حياته رونقاً وبهاءً، وعلماً وعملاً بحسن صحبته رَحِمَهُ اللهُ^{٢١٤}.

مكانته في التربية والإصلاح: وقد تربي هذه العبقرية بأيادي جهابذة العلماء من المحدثين والفقهاء والمحققين^{٢١٥}، وأيضاً من حسن حظّه أنه وُفق بصحبة حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللهُ التي زادت حياته رونقاً وبهاءً، وساعدته بكثير في استعداده العمل التجديدي والإصلاحي، حتى قبله الناس مرشداً و مرجعاً في التربية والإرشاد بعد أن توفي شيخه التهانوي رَحِمَهُ اللهُ.

كان الشيخ وصي الله رَحِمَهُ اللهُ من أجل خلفاء حكيم الأمة الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، الذي كان مداوماً في جهوده الإصلاحية والتجديدية حتى أن جاء أجله المنية، فلذلك نرى حياته مليئة بالنشاط الدعوية والإصلاحية، بمختلف الوسائل ومتنوع الأسباب من المواعظة الحسنة والرسائل الدينية والتأليفات

^{٢١٤} أنظر للمزيد: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣١٩-٣٢٠.

^{٢١٥} وعلى رأسهم المحدث الكبير، إمام العصر، العلامة أنور شاه الكشميري، وشيخ الهند العلامة محمود حسن الديوبندي، ومفسر العصر الشيخ شبير أحمد العثماني، وشيخ الحديث حسين أحمد المديني وغيرهم رحمهم الله جميعاً.

العلمية، ومن هنا بعض تأليفاته خير دال على هذا السبيل، منها (وصية السالكين) و (وصية الإخلاص) و (وصية الأخلاق) و (توقير العلماء).

وفاته: بعد عمر حافل بالأعمال الدعوية، والتربية والإرشاد، استأثرت به رحمة الله تعالى ووافته المنية في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٧م في رحلته المباركة إلى الحج المبرور، رحمه الله رحمة واسعة^{٢١٦}.

قبس من حياة الشيخ العلامة المحدث محمد يوسف البنوري

١٣٢٦-١٣٩٧هـ

تعريفه وولادته: هو السيد محمد يوسف بن زكريا بن مير مزمل شاه البنوري رَحِمَهُ اللهُ. ولد ليلة الخميس، السادس من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وست وعشرين من الهجرة، الموافق ألف وتسعمائة وثمانية للميلاد، في قرية (مهابت آباد) من أعمال مروان باكستان، وكان جده الأعلى السيد آدم رَحِمَهُ اللهُ أقام في قرية (بنور) من مديرية (أنباله، الهند) ولذا تنسب هذه الأسرة الكريمة إلى (بنور).

تعليمه وتربيته: هذا الفحل الجليل تربى في بيت العلم والعمل، وترعرع في أسرة الورع والتقوى، فتعلم القرآن والعلوم المبادية بأيدي والده السيد محمد زكريا، وخاله الشيخ فضل حمداني البنوري، وقرأ النحو والصرف على الشيخ عبد الله البشاوري، والكتب المتوسطة من الفنون المختلفة من الفقه والأصول والمنطق، والمعاني والبديع على علماء بشاور وكابل، ومن أكبر مشائخه في هذه الفنون الشيخ عبد القدير اللقماني الأفغاني، ثم انتقل إلى أم المراكز العلمية (دار العلوم ديوبند) سنة ١٣٤٥هـ، واستفاد في العلوم الشرعية العالية من علماء الأفاض والأساتذة الأبحار في العلوم الإسلامية^{٢١٧}، وما زال يستفيد في هذه الجامعة تحت رعاية هؤلاء الرجال حتى تخرج منها سنة ١٣٤٧هـ.

^{٢١٦} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣١٩-٣٢٢.

^{٢١٧} ومن أمثال هذه العباقر في الإسلام، الشيخ شبير أحمد العثماني، (صاحب فتح الملهم شرح صحيح مسلم)، والشيخ محمد أنور شاه الكشميري رحمهما الله تعالى.

علاقته بالشيخ في السلوك والإحسان: كان الشيخ يوسف رَحْمَةُ اللهِ فِي أَوَّل وهلة قد ربط علاقته الروحية مع الشيخ شفيع الدين خليفة الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي رحمهم الله، ثم ساقته القدرة الإلهية إلى لقاء الشيخ أشرف على التهانوي رَحْمَةُ اللهِ، بحضور جلسة الشيخ التهانوي في (تهانه بهون) وذلك في سنة ١٣٥٢هـ، ثم واصل مراسلاته بعد زيارته الثانية له عام ١٣٥٤هـ في الاستفادة السلوكية، ثم تشرف بمناولة الإجازة منه في السلوك والإحسان عام ١٣٥٨هـ قد ٢١٨ .

خدماته العلمية والإصلاحية: وله خدمة كثيرة في مجال شتى من العلوم الإسلامية^{٢١٩}، وهذه الشخصية ما كانت خدماته منحصرة في ناحية التعليم فقط، بل كان له حظ كبير في السياسة الإسلامية أيضاً، حيث كان رئيساً لجمعية علماء الهند في بلاد (كجرات) و (بومباي) عدة سنوات.

وكان الشيخ يوسف البنوري متمسكاً بصحبة الشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ طول حياته بالحضور في مجالسه أو بمراسله الرسائل إليه. واستفاد بصحبته كثيراً في مجال التزكية والسلوك والإحسان وعلم الحديث، حيث تظهر في حياته رَحْمَةُ اللهِ آثار هذه الصحبة الكريمة، في خدماته العلمية والإصلاحية والسياسية كثيراً.

وفاته: وقد توفي رَحْمَةُ اللهِ فِي حين سفره إلى إسلام آباد للحضور في المجلس الإسلامي الاستشاري، واستأثرت به رحمة الله نوبة قلبية، وذلك يوم الإثنين الثالث من ذي القعدة عام ١٣٩٧هـ، الموافق

^{٢١٨} أنظر للمزيد: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣٣٠.

^{٢١٩} حيث أنه كان صدر المدرسين وشيخ الحديث في الجامعة الإسلامية بدابيل في مقاطعة بومباي الهند، وعضواً للمجلس العلمي لها، ثم مبعوثاً من حيث المنسوب للإشراف على طبع عدة كتب من المجلس العلمي إلى القاهرة عام ١٩٣٧م، وكذلك كان عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق وعضواً لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة. هاجر الشيخ يوسف بالنوري إلى باكستان عام ١٩٥١م، وذلك بعد أن استقلت باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧م، فاستمر حياته فيها بخدماته الدينية والعلمية، حيث أقام كرئيس التفسير في جامعة دار العلوم الإسلامية ثلاث سنوات، ثم أسس في (نيوتاون) بكراتشي جامعة باسم جامعة العربية الإسلامية. أنظر: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

١٧ أكتوبر عام ١٩٧٧م، ونقل جثمانه إلى كراتشي، ودفن في رحاب جامعته التي هي من أكبر مآثره الخالدة، رحمه الله رحمة واسعة وتغمده بعفوه وغفرانه^{٢٢٠}.

هذه كانت صورة قصيرة لحياة بعض النبلاء من أتباع الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، من كانت حياتهم حافلة ووافية بخدماهم الدينية والتجديدية والإصلاحية، وقد ألحنا عنها بالاختصار الشديد قدر مايسعنا في هذه العجلة السريعة، مع ذلك هناك يوجد كثير الرجال من فضلاء العظام من أتباع هذه العبقرية رحمهم الله، الذين مازالوا ينيرون مصابيح التجديد والإصلاح في أطراف شبه القارة الهندية حتى الآن، فنكتفي في هذه العجلة بذكر أسمائهم فقط.

فمنهم: الشيخ عبد الحي السهارنفوري ثم الحيدرآبادي، والشيخ عبد الغني الفولفوري، ومقدم العلماء المصلح الرباني من علماء الأفذاذ الشيخ شمس الحق الفريد الفوري، والشيخ العلامة القائد السياسي الكبير مولانا أظهرعلى البنجلاديشي، و الإمام الكبير والداعية الجليل العلامة الشيخ محمد الله الحافظجي البنجلاديشي، نور الله مرقدتهم جميعاً. آمين.

هذا نموذج لبعض الكبار والعظام من أتباع الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، وهم من اعتمد عليهم الشيخ التهانوي كثيرا لحركاته التجديدية والإصلاحية، رغم عددهم كبير ولكننا اكتفينا في هذه العجلة بذكر بعضهم نموذجاً.

^{٢٢٠} أنظر: سيد محبوب الرزوي، تاريخ دار العلوم ديوبند، المنقل إلى اللغة البنجالية: أبو الفتاح محمد يحيى، ص ٦٤٣ -

٦٤٤. و محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٣٣٢-٣٣٦.

المطلب الرابع

جهوده في جمع الأحاديث الشريفة في أبواب التصوف الإسلامي، وأشهر تصنيفاته في هذا الباب.

وكان له دور كبير في جمع آيات وأحاديث في جميع أبواب التصوف، وله جهود عظيمة في الإستنباط من هذه الآيات والأحاديث كثيرا من المسائل السلوكية والتزكية، ومن هنا في أول وهلة صنف الشيخ التهانوي كتابين مشهورين بضوء الآيات القرآنية أولهما: باسم "مسائل السلوك من كلام ملك الملوك" وثانيهما: "تأيد الحقيقة بالآيات العتيقة"، ثم كمرحلة ثانية شرح كتابه "مسائل السلوك" بضوء السنن الصحيحة، وأثبت هذه المسائل بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وفيه ألف كتابين جليلين وهما: "التشرف بمعرفة أحاديث التصوف"، كتاب كبير في أربعة مجلدات، حَقَّق خلال هذا الكتاب على هؤلاء الأحاديث التي استدل بها علماء المتصوفين في تأليفاتهم وتقريراتهم، ثم بين درجات هذه الأحاديث وفق تحقيقات علوم الحديث ومصطلحاتها، مع تعيين مظانها من كتب الحديث، وكذلك كَشَفَ الغطاء عن بعض الأحاديث المذكورة في هذا الباب التي أشتهرت على ألسنة المتصوفين و لكنّها في الحقيقة لا أصل لها، في هذا الموقف أنه سلك طريق الاعتدال والتوسط، فلم يؤكد أي شيء بدون التحقيق، بل حاول محاولة كاملة في التفطيش عن الأحاديث الأخرى في هذا الباب دليلا، فأحيانا وجدها وأحيانا لم يجدها كما هو شأن الباحث، فإن وجدها أثبتها، بأن هذه المسئلة من الطريقة الصحيحة التي ثابتة بالحديث كذا أو آية كذا، وإلا صرح بأنها ليست من الحقيقة الطريقة بل هي البدعة والضلالة.

ثم ألف كتابا ثانياً مستقلا في هذا الباب المسمى "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" في جمع الأحاديث الصحيحة على كل باب للتصوف الإسلامي موضوعا موضوعا، لكي يتم هذه الخدمة بكاملها، فلا يحتاج الناس إلى البحث والتحقيق من جديد في هذا الموضوع، فأتم جهده قدر استطاعته، إنشاء الله سيأتي التفصيل على هذا الكتاب في الفصل التالي بعنوان: "التعريف عن الكتاب: حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة".

ثم صنف رسالة صغيرة باسم "النكت الدقيقة مما يتعلق بالحقيقة" شرح فيها بعض المسائل الدقيقة للتصوف التي ذكرت في "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" وكانت هذه المسائل تحتاج إلى شيء من

التوضيح والتفصيل، فوضحها توضيحاً كاملاً، ووضعت هذه الرسالة ذيلًا في آخر كتابه "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" ^{٢٢١}.

المبحث الرابع

وفاته وأهم توصياته ﷺ للمسلمين

بعد أن قضى ﷺ حياته حافلةً بالمآثر الخالدة، والخدمات الجليلة، قد جاء موعد رحلته إلى ربه العليّ القدير، وذلك في النصف الأول من ليلة الأربعاء، لست عشرة خلون من شهر رجب سنة إثنين وستين وثلاثمائة وألف، الموافق ٢٠ يوليو عام ١٩٤٣م ^{٢٢٢}.

توفي ﷺ وقد ترك في مآثره ثروة عظيمة من خدماته العلمية والعملية الإصلاحية، وأسلف خلقاً كثيراً ينتهجون على نهجه، ويسلكون على مسلكه، ويتنورون برشده، وخلف من ورائه ملايين الأكباد والألسنة تدعو له، وتذكره بالحب والمواساة والتوقير والاحترام.

ويرتحل إلى ربه راغباً ومتمنياً إلى رحمته جلّ وعلا، ولكنه لم ينسى نصيب شعبه في آخر لحظته من الحيات من توصياته القيمة، فمن هنا نود أن نلقي الضوء على أهم توصياته ﷺ بما أوصى بها شعبه خاصة الأمة عامة، لعلها تفيد المسلمين ديناً ودنياً في كثير المجال.

وفيما يأتي نص هذه الوصايا ^{٢٢٣}:

١- أوصي كل الإخوان والأحباء والزملاء خصوصاً، وسائر المسلمين عموماً بضرورة الاهتمام بطلب العلم الديني، فإنه فرض عين على جميع المسلمين رجالاً ونساءً، وذلك لأنه لا سبيل لمقابلة تحديات العصر الحاضر إلا بالتسلح بسلاح المعرفة بالتعليم الديني، والاطلاع على أحكام الشريعة الإسلامية، وتطبيق ديننا الحنيف في الحياة.

^{٢٢١} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، من قلم محمد عفان منصور فوري، ص ٤٧ - ٤٨.

^{٢٢٢} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٧٦.

^{٢٢٣} أنظر للمزيد: المصدر السابق، ص ٧٧ - ٨٢.

٢- أُوصي طلبه العلم ومهارة المعرفة والسالكين طريقها أن لا يغتروا بما تعلموه من الكتب، لأن الفائدة الحقيقية لهذا العلم هو العمل به، وتطبيقه في الحياة، وذلك لا يمكن إلا بملازمة العلماء وأولياء الله الصالحين.

٣- نظراً إلى ما يترتب من المضار في الدين والدنيا بسبب اقتراف بعض الذنوب، والاجترأ على بعض المعاصي، أُوصي إخواني المسلمون جميعاً بالعمل بما يأتي، والعض عليه بالنواجذ:

- كف النفس عن العمل بمقتضيات الشهوة أو ما تمواه النفس ويتطلبه دافع الغضب.
- إن العجلة من الشيطان، وهي أمر لا تحمد عواقبه.
- الاهتمام بالاستشارة مع أصحاب الشورى قبل الإقدام على شيء.
- تجنب الغيبة وما يماثلها من الأخلاق السيئة، والعادات القبيحة، تجنباً قاطعاً.
- تجنب كثرة الكلام ولو كان محبباً، وحفظ اللسان وكفه عن كل أنواع المعاصي.
- الامتناع عن كثرة الاختلاط مع غير المسلمين ومخالفى الدين من غير مصلحة دينية، وخاصة إذا وصل هذا الاختلاط إلى درجة الصداقة، والاعتماد عليهم بالأسرار.
- تعويد النفس على فضائل الأخلاق والرفق واللين والحلم، وتجنب القسوة والغلظة والشدة والجفاف، والخلق السيئ.
- تجنب الرياء والتكلف لما لا داعي له، في الأقوال والأفعال، والمأكل والملبس.
- يجب على الرعايا المعاملة الحسنة والتعامل بالاحترام مع الأمراء وولاة الأمر، وتقليل التردد عليهم ومخالطتهم، وعدم اتخاذهم نصب الأعين لنيل المناصب الدولة.
- الاهتمام بصفاء المعاملة ونقاها، أكثر من العبادات والأذكار.
- كن محباً للحق وعاملاً به مهما كان، وحيثما كان، ولا تكن مُصرّاً وجامداً على قولٍ لا يسانده الدليل ولا يوافق البرهان.

● عدم تعليق النفس بالدنيا وزخارفها قدر الاستطاع، وعدم إغفال فكرة الآخرة، ولو للحظة واحدة.

فهذه الوصايا مقتبسة من توصياته القيمة، التي تحتاج إليها الأمة جميعاً بالغ الاحتياج، ولعل الأمة تسترشد بها في كثير من نواحي حياتهم فرديا واجتماعيا وسياسياً. ونسأل الله عزوجل أن يوفقنا جميعاً لاتباعها حق الاتباع. آمين.

الفصل الثالث: التعريف بالكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"

ويتضمن هذا الفصل على:

التقديم

المبحث الأول: حقيقة التصوف ومكانته في الإسلام

المبحث الثاني: إلقاء الضوء على كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"

المبحث الثالث: مضامين التصوف في كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"

المبحث الرابع: حقيقة الترابط بين الحديث والتصوف وكيفيته

التقديم:

إن الإسلام وسطية الدين والمذهب، يسلك بين الروح والمادة، وهو يشتمل على ثلاث مهمات عظيمة من الإيمان والإسلام والإحسان، كما ورد في حديث جبريل عليه السلام^{٢٢٤}، وكلها ثابتة بالقرآن والسنة، فمسائل الإيمان قد تعرض لها العلماء المتكلمون الذين وضحو مسائله توضيحا كاملا عبر الآلاف من الكتب العلمية، كذلك مسائل الإسلام قد قام بتوضيحها فقهاء الإسلام من الأمة، بحيث نرى جهودا مكثفة قد بذل هؤلاء العلماء المخلصون في هذه الجوانب، وكذا موضوع الإحسان فهو لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية بتاتا، بل هو من عينها، ومن تكملة الإيمان، وفي منزلة الروح للإسلام.

لقد وجدنا القرآن يُنوّه شعبة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة، الذي يعبره بلفظ التزكية ويذكرها كركن من الأركان المهمة التي بعث بها الرسول الأعظم..... ﷺ لتحقيقها وتكملتها، كما يقول المولى عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^{٢٢٥}، فالإحسان (الذي سماه القوم^{٢٢٦} بالتصوف أو تزكية النفس أو السلوك وما إلى ذلك) ليس شيئا مستورداً من خارج الإسلام مثل الفلسفة الغربية أو الشرقية أو الديانة الأخرى مثل اليهودية والمسيحية والمجوسية، كما زعمه ويزعمه بعض علماء الحديث قديما وحديثا، بل التصوف أو الإحسان بكيانه الأصلي من صميم قلب الشريعة الإسلامية، فهذه الحقيقة لا تُنكر ولا تعارض علميا أبدا.

^{٢٢٤} عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسوله وتؤمن بالبعث قال ما الإسلام قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..... الآخر. راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان.....، رقم ٥٠، وكتاب تفسير القرآن، باب قوله: إن الله عنده علم الساعة، رقم ٤٧٧٧. ص ٦، و ٤٠٥.

^{٢٢٥} الجمعة: ٢

^{٢٢٦} وهم أهل السلوك والإحسان.

رغم أن هذا الفن جاء ذكره في القرآن والحديث بألفاظ مختلفة وتعبيرات متغايرة، فأحياناً بالتركية أو الإحسان أو الإصلاح أو غيرها من التعبيرات الأخرى ولكنه شئ واحد من دون أي تعارض وتفارق، فالتصوف هو الإحسان، هو التزكية. وكثيراً ما نرى أن أسلافنا عبروا هذا الفن بالتصوف كما يقول إمامنا مالك رحمه الله بقوله المشهور: "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق" وقال أبو طالب المكي: "هما علمان أصليان لا يستغني أحدهما عن الآخر بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل منهما بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحد عن صاحبه"^{٢٢٧}، ويقول الإمام الشافعي: "حُبَّ إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والافتداء بطريق أهل التصوف"^{٢٢٨}. فيظهر من هذه الأقوال أن التصوف والتزكية والسلوك كلها شيء واحد مع تعبيراته المختلفة، كما قال الشيخ يوسف القرضاوي في توضيح حقيقة الدعوة لإخوان المسلمين: "إن الإخوان المسلمين هي دعوة صوفية لأنهم يعملون على أساس التزكية وطهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير. فهذا هو التصوف، وهذه هي الصوفية الحقيقية عند حسن البناء"^{٢٢٩} انتهى.

هذا ما علمنا من أقوال علمائنا سلفاً وخلفاً. ولكن بأسف شديد نرى كثيراً من الناس في عصرنا الحاضر يطولون ألسنتهم في جرح التصوف الإسلامي وإطعانه، ويظنون بأن التصوف لا مجال له في الإسلام، بل هو مخالف الشريعة الإسلامية، وهو من مجموعة الخرافات والبدعات وما إلى ذلك من الأقاويل المختلفة، ولكن في الحقيقة هذه المفاهيم والأقاويل تدل على أن صاحبها متقاصر عن فهم حقيقة التصوف، وقصير النظر والفهم في معرفة أسرار الشريعة ورموزها ودقائقها، لأن القرآن والسنة مليان بالدلائل التي تثبت هذا الفن إثباتاً تاماً، كما أثبتت الفنون الأخرى من أمور الدين. ولكن هذا الأمر كان في حاجة إلى دليل قاطع يثبتته حتى يكون واضحاً بينا أمام الناس، بحيث قام الشيخ التهانوي كمتخصص في الحديث والتصوف، وأثبت بالدليل القاطع بوجود العلاقة بين

^{٢٢٧} الملا على القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج ٢، ص ١٩٠.

^{٢٢٨} إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني (ط ٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من

الاحاديث على ألسنة الناس. بيروت: دار الكتب العلمية، ج ١، ص ٣٤١.

^{٢٢٩} انظر: موقع انترنت بتاريخ: ٢٨/٨/٢٠٠٩م. www.daraleman.org/Main%Al-Tasawof_al.../index.htm.

الحديث والتصوف، فكان محققاً ومصيباً في هذا العمل الجليل. وهو أول من أخذ القلم في الديار الهندية بجمع الآيات القرآنية والأحاديث المتعلقة في أبواب التصوف الإسلامي، فصنف كتباً عديدة في هذا الجانب، ولكن الكتاب الذي أعجب به الباحث في هذا المضمون هو كتابه المشهور المسمى "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، الذي يُبرز مكانة التصوف في الإسلام وأهميته في الدين عن ٣٣٠ حديثاً.

قبل أن نخوض في الوصف عن هذا الكتاب نحتاج أن نذكر كلمة قصيرة عن حقيقة التصوف ومكانته في الإسلام مع ضم أقوال العلماء فيه، والخلفية التاريخية لكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" كي ينكشف الأمر لدى القراء بأنه كيف كانت تطلبات العصر لتصنيف هكذا الكتاب الجليل؟ وكم كان المعتدلون من المحدثين والمتصوفين يحتاجون إلى هذه الخدمة القيمة؟ حتى تظهر أهمية هذا الكتاب لدى طلاب الدين.

المبحث الأول

حقيقة التصوف ومكانته في الإسلام

أ - تعريف التصوف:

أولاً- التصوف في اللغة: اختلف الباحثون في تحديد أصل كلمة "التصوف" حيث كثرت أقوالهم وتعددت اتجاهاتهم في ذلك^{٢٣٠}، فقالوا إنه يتأصل من الكلمات الآتية:

(١)- "الصُّفَّة"، موضع مظلّل في آخر مسجد المدينة^{٢٣١}. وقال ليث سعود جاسم: "هي صفتان، صفة الرجال وصفة النساء"^{٢٣٢}.

(٢)- "الصفاء" وهو مصدر "صفا"، يعني الهناء^{٢٣٣}.

(٣)- "الصف" أو "الصف الأول"، وهو سطر مستقيم من كل شيء، أو الجماعة^{٢٣٤}.

(٤)- "الصُّوف" وهي الخيوط والأقمشة المصنوعة من جلد الشاة^{٢٣٥}.

(٥)- إنه مصدر "تصوف" وهو طريقة في السلوك تعتمد على التحلي بالفضائل تركيةً للنفس سعياً إلى مرتبة الفناء في الله تعالى، فـ "علم التصوف" هو مجموعة من المبادئ التي يعتقدونها المتصوفة والآداب التي يتأدّبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم^{٢٣٦}.

^{٢٣٠} أنظر: أبو بكر محمد الكلاباذي (د. ط، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) التعريف لمذهب أهل التصوف. تحقيق: محمود أمين النوي، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٢٨-٣٥.

^{٢٣١} محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (ط ١، د. ت) لسان العرب. بيروت: دار صادر. ج ٩، ص ١٩٤،

^{٢٣٢} ليث سعود جاسم، (ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) الرعاية والندامات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها. كوالالمبور: دارالتجديد للطباعة والنشر والترجمة، ص ٣٥-٣٦.

^{٢٣٣} أنظر: جماعة من كبار اللغويين العرب (د. ط، ١٩٩٩م / ١٤٢٠هـ)، المعجم العربي الأساسي، لاروس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٧٤١.

^{٢٣٤} أنظر: المصدر السابق، ص ٧٣٩.

^{٢٣٥} أنظر: المصدر السابق، ص ٧٥٧.

^{٢٣٦} أنظر: المصدر السابق، ص ٧٥٧.

ثانياً- التصوف في الاصطلاح: وكذلك تعددت أقوال العلماء في التصوف اصطلاحاً. وإن اختلافهم في ذلك باختلاف منهاج التصوف وتعاليمه. فقال السراج الطوسي^{٢٣٧}: "إن التصوف علم من علوم الدين، وهو علم يتحدث في حقائق الإيمان الذي بني على أساس مبدأ الإحسان، كما روى الرسول ﷺ في حديث الإيمان^{٢٣٨}. والصوفية من أولي العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء"^{٢٣٩}. وقال: "... فكل من أشكل عليه أصل من أصول الدين وفروعه وحقوقه وحقائمه وحدوده وأحكامه ظاهراً وباطناً فلا بد له من الرجوع إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة، أصحاب الحديث والفقه والصوفية، وكل صنف من هؤلاء مترسم بنوع من العلم والعمل والحققة والحال، ولكل صنف منهم في معناه علم وعمل ومقام ومقال..."^{٢٤٠}.

ومن هنا نود أن نذكر بما يعتقدها الشيخ التهانوي في أمر التصوف، وهي مبسطة في مختلف مؤلفاته، فالحاصل منه: "إن التصوف هو التخلص بالأخلاق الفاضلة، واجتناب الرذائل النفسية، والفائز الناجح في هذا الطريق هو الذي تحلى بهذه الفضائل مع الامتثال التام للشرعية الإسلامية والاتباع الكامل للسنة النبوية، فإن أعطاه الله بعد ذلك نصيباً من فراسة الإيمان، أو حظاً من الكشوف الصادق فهو منة وزائدة من الله تعالى، وأما الذي حرم من هذه الأخلاق الفاضلة واتباع السنة النبوية، ولم يتجنب هذه الرذائل النفسية فهو بعيد كل البعد عن التصوف والطريقة والولاية والسلوك، سواء كان يطير في الهواء، أو يمشي على الماء أو يرقى في السماء"^{٢٤١}.

وهذا ما قاله الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أيضاً، في الجزء العاشر من مجموع الفتاوى: "... فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم،

^{٢٣٧} هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، عالم صوفي، توفي سنة ٣٧٨هـ.

^{٢٣٨} لعله أشار إلى حديث جبريل، وقد سبق تخريجه من قبل. فانظر: الهامش رقم ١، ص ٢.

^{٢٣٩} أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ط ٢، ١٩٦٣م) **اللمع في التصوف**. تحقيق: رنولد الن نيكلسون، ليدن: مطبعة برييل، ص ١، و ٥-٦.

^{٢٤٠} أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، **اللمع في التصوف**، ص ٦.

^{٢٤١} محمد تقي العثماني، **إعلاء السنن**، ص ٢١.

وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحذور إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم^{٢٤٢}.

ب - "التصوف" في أقوال العلماء:

رغم أن هذا الفن جاء ذكره في القرآن والحديث باصطلاحات مختلفة وتعبيرات متغايرة، فمرة جاءت إما بالتركية أو بالإحسان ومرة جاءت بالإصلاح أو غيرها من التعبيرات الأخرى، ولكنه في الحقيقة شيعي واحد دون تعارض وتفارق، فالتصوف هو الإحسان، وهو التزكية. وكثيرا ما نرى أن أسلافنا عبروه بالتصوف كما يقول الإمام مالك رحمته الله "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"^{٢٤٣}، ويقول الإمام الشافعي: (حب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والافتداء بطريق أهل التصوف)^{٢٤٤}، ويقول الشيخ يوسف القرضاوي في توضيح حقيقة الدعوة لإخوان المسلمين: "إن الإخوان المسلمين هي دعوة صوفية لأنهم يعملون على أساس التزكية وطهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير. فهذا هو التصوف، وهذه هي الصوفية الحقيقية عند حسن البناء"^{٢٤٥}.

^{٢٤٢} أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ط ٣، ١٤٢٦هـ/٦٠٥م) مجموع الفتاوى. تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، المنصورة:

دار الوفاء، ج ١٠، ص ٥١٦.

^{٢٤٣} الملا على القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (مصدر الكتاب: المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث)، كتاب

العلم، الفصل الثالث، ج ٢، ص ١٩٠.

^{٢٤٤} إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني (ط ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من

الاحاديث على ألسنة الناس. بيروت: دار الكتب العلمية، ج ١، ص ٣٤١.

^{٢٤٥} موقع الإنترنت: www.daraleman.org/Main%20Al-Tasawof_al.../index.htm

فيظهر من هذه الأقوال أن لفظ التصوف واستعماله كان شائعاً بين العلماء في الماضي والحاضر، رغم استعماله ما كان موجوداً من أول وهلة الإسلام من عصر النبوي وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يتأخر عن عصر التابعين وتابعي التابعين، كما هو الظاهر من أقوالهم، فلا يعاب على من يستخدم لفظ "التصوف" بناءً على قول: بأن هذا الاصطلاح ما كان معروفاً في أول الإسلام، وذلك، لأن هذا الاصطلاح كأمثال هؤلاء الاصطلاحات -مثل العقيدة والفقهاء والحديث والنحو والبلاغة وغير ذلك- التي ما كانت تستعمل في عصر الصحابة ولا بعدهم من التابعين ثم الذين يلونهم، ولكنها تستعمل الآن ولا يعاب أحد بسببها، فلا يعاب به أيضاً.

ج - نطاق التصوف الصحيح:

وجدير بالذكر، أن التصوف هو التزكية التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية وتحصل باتباعها والامتثال بها، وهي التي تصلح للمرء أمر آخرته، ويدخل صاحبها تلك الجنة التي وعد بها المتقون، حيث قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾^{٢٤٦} ، وذلك باتباع الشريعة الإسلامية، لا بمخالفتها.

أما الرياضيات الروحية، والمجاهدات البدنية الكثيرة التي يأتيها الرهبان من البراهمة وغيرهم، فليست من التزكية والتصوف في شيء، مهما قيل عنها، ومهما سميت بالتصوف، ولكنها لاحقيقة ولا شأن لها بالتصوف^{٢٤٧}.

^{٢٤٦} الشمس: الآية، ٩ - ١٠ .

^{٢٤٧} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٢٥٢-٢٥٣.

المبحث الثاني

في إلقاء الضوء على كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"

أولاً - كلمة قصيرة في خلفية تصنيفه: قد أكمل الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ تَصْنِيفَهُ في أوائل ربيع الأول سنة ١٣٢٧هـ وفق ١٩٠٩م، الذي أُلِّف بعد فراغه عن تأليف كتابه المشهور "الاقتصاد في التقليد والاجتهاد" التي كانت راداً قويا على الإفراط والتفريط في التقليد والمذهب، ودعوة للناس إلى سبيل الاعتدال والتوسط، فهذا الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" كذلك يرشد الناس إلى الاعتدال في السلوك والإحسان^{٢٤٨}، وذلك لأن علماء هذه البلاد الواسعة العريضة كانوا يحتاجون إلى مثل هذه الخدمة كثيراً، وقد مست الحاجة إليها علما وعملا، كي ينكشف جميع الغموض عن التصوف والسلوك ويتضح الأمر مع دلائله.

في هذه النسبة أراد الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يثبِت حقيقة جليلة، وهي: أنه يجب على جميع المسلمين بتصحيح أعمالهم الشرعية ظاهرة وباطنة، فيقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: " كما يجب على جميع المسلمين أن يصححوا أعمالهم الشرعية الظاهرية، كذلك يجب عليهم أن يُصلحوا أعمالهم الباطنية، لأن كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدل على وجوب تصحيح هذا الجانب الباطني، ولكن أغلبية الناس يغفلون عن هذه المهمة الجليلة، فمن لا يعرف أنه ذُكر في أماكن كثيرة من القرآن والسنة عن فضائل الزهد والقناعة والصبر والشكر والحب الإلهي والرضا بالقضاء والتوكل وما إلى ذلك من المسائل الخلقية والأعمال القلبية؟ وكم من آيات وأحاديث تحرض المسلمين على حصول هذه الأوصاف الحميدة الباطنية! و كم من أماكن قد ذمّ فيه القرآن والحديث على الصفات الرذيلة، من الحرص والتكبر والغضب والحسد والميول إلى الشهوات وغيرها، وورد الوعيد عليها! وهكذا قد أمكن القرآن والحديث في إصلاح الأعمال الباطني، وهذا هو المقصود الأصلي بالتصوف الإسلامي، الذي يثبت بالقرآن والسنة بالوضاحة^{٢٤٩}.

فالكتاب كان من متطلبات الحال في هذه الديار، والذي جاء بجواب ساطع ضد مخالفتي التصوف الإسلامي، وقام ردا قويا على شرزمة من الناس من كانوا يزعمون بأن التصوف الإسلامي يخالف

^{٢٤٨} أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ٤٨ و ٥٢.

^{٢٤٩} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥١.

الحديث النبوي صريحاً، ولا أصل له في الحديث النبوي والشرع الإسلامي، فأطالوا ألسنتهم في جنب هذه الخدمة الجليلة التي كانت مسلكاً عاماً لجمهور المسلمين في تلك البلاد الواسعة العريضة، ولا يوجد في هذه الديار أيّ محدّثٍ أو مفسّرٍ أو فقيهٍ إلا وكان له نسبة عميقة مع التصوف الإسلامي، كما سبق ذكره في الفصل الأول تحت عنوان "لحة تاريخية لمراكز الدينية ورجالها وتقاليدها في عصره رَحِمَهُ اللهُ"

فهذه الحقيقة كانت ظاهرةً وباهرةً في ذلك الزمان بأنّ هاتين الوظيفتين لا يوجد بينهما أيّ تعارض أو أيّ خلاف، بل أنّهما مكتملان بعضها بعضاً، ولكن عبر العصور تمكن الجهل والتعصب في مكان العلم والتوسع، فجعل الناس يتعصب بما لديهم كما هو الحال للجهال والضعفاء في العلم، فتحزب الناس بأحزاب كثيرة، وكان كل حزب بما لديهم فرحين، وأغلبيتها تتصف إمّا بالإفراط أو التفريط، مع ذلك أنّ بعض المتصوفين انغمسوا في الخرافات والبدعات، وصار مجالس التصوف منبئاً للضلال والبطلان، وذلك الذي دعا بعض الناس إلى تنفير هذه الخدمة الجليلة.

هكذا كان شأن كل فريقٍ يدعون بأنهم على الحق المستقيم، وطريق الهدى هو الوحيد الذي ينحصر عليهم فقط، والآخرون بعيدون عن الحق كل البعد ولا يغنون من الحق شيئاً، ولكن العلماء الراسخين في العلم كانوا باحثين عن الحق طول حياتهم ولم يتعصبوا بما لديهم، الذي هو شأن العلماء المتوسعين بالعلوم العقلية والنقلية، كما نجد صورته الواضحة في سيرة أئمتنا الهدى في الإسلام.

فكان بعض العلماء قائمين على الحق والاعتدال في هذه الديار منذ البداية، وهم من هؤلاء الرجال الذي أخبر عنهم النبي ﷺ في هديه، بما جعله البخاري باباً مستقلاً في صحيحه: "باب قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم" ٢٥٠ .

فالشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ وقف في وجه جميع الفرق الباطلة يتصدى لرد كل الأفكار الزائغة والمتعصبة والجهلة، وسلك طريق الاعتدال، ومنهج أكابره وأساتذته من حيث إثباته الربط بين التصوف والحديث، كما ظهر في أعمال أكابره وشيوخه في هذا المجال، وبدأ أن يُبطل جميع الدعوى الباطلة

٢٥٠ راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب "قول النبي ﷺ: لا تزال

طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم"، ص ٦٠٩.

متلونة بالافراط والتفريط بتأليفاته العديدة، وأثبت خلال تأليفاته بأن التصوف مع جميع أبوابه ثابت بأحاديث كثيرة، والحديث والتصوف مكتملان بعضه بعضاً. فأعجب الباحث مما ألفه الشيخ لهذه الغاية: هو كتابه الجليل "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، وقد أثبت هذا الفن بدلائل القرآن والسنة خلال كتب مختلفة للشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ كلياً وجزئياً، ولكنه رَحِمَهُ اللهُ أراد خلال هذا الكتاب أن يُثبت هذا الفن مع موضوعاته بالأحاديث غير ظاهرة دلالتها فيها، ولم يُذكر هذه الأحاديث من قبل في كتب المتصوفين الآخرين دليلاً من حيث إثبات هذه الموضوعات، فأورد في هذا الكتاب بعض الأحاديث غير صريحة استدلالها في مضمونها، ثم قام بالاستنباط في هؤلاء الأحاديث من حيث التتبع والتكشاف في إظهار دلالتها فيها.

ذلك لأن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كان يريد به أن يُكشف جانباً جديداً في هذه الناحية التي لم يسلك بها العلماء في تصانيفهم التزكية والسلوكية من قبل، وكذلك أراد الإعراض عن التكرار غير المفيد في جمع الأحاديث التي وردت في كتب المتصوفين لهذا الموضوع كثيراً، فيتسبب للتشويش والتنفير الذهني، ثم لا يأتي شئ جديد في هذا الموضوع، فإعراضاً عن ذلك ضم ناحية جديدة في دلائل التصوف من السنة النبوية، وأثبت صلة عميقة للتصوف الإسلامي مع الحديث النبوي، كي يتبين لدى العلماء خاصة والعوام عامة بأن التصوف أو التزكية أو الإحسان يلتصق مع السنة التصاقاً قوياً، ويوجد بينهما ترابطاً وثيقاً وطيداً، ويظهر بمطالعتها أنه لا يوجد أي أنشطة للتصوف إلا ولها أصل ثابت في السنة، ولا يلزم عليها أنها من البدعة أو الضلالة. فيليك التعريف عن هذا الكتاب.

ثانياً- الوصف عن الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة":

أ- إسم الكتاب ومحتوياته: قد تبين لنا اسم هذا الكتاب بتصريح الشيخ التهانوي رحمه الله نفسه في مقدمتها بـ "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" كما هو يقول بنفسه: "نؤدُّ أن نسمي هذه الرسالة على وفق مضمونها وموضوعها بـ(حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة)"^{٢٥١} قد يحتوي هذا الكتاب في ضمنها حوالي ٣٣٠ حديثاً، ويؤيد به ١٣ موضوعاً أساسياً في التصوف (من حيث رتبته في هذا الكتاب)، الذي يضمن كثيراً من المسائل الجزئية للسلوك والإحسان.

^{٢٥١} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٢.

ب- **مضان أحاديث الكتاب:** مظان أغلبية هذه الأحاديث هو الكتاب المشهور في زمنه رحمته الله (تيسير الأصول) وأحانا أخذ بعض الأحاديث من مشكوة المصايح للخطيب التبريزي، ولكن عند التخريج يظهر للباحث أن أغلبية هذه الأحاديث وردت في كتب الستة الصحيحة، ومزيداً ما يوجد بعضها في مسند أحمد، وشعب الإيمان للبيهقي، ومعجم الطبراني والرزين وغيرها من الكتب السنة الصحيحة.

ج- **منهج التأليف:** كما سبق أن هذا الكتاب يتضمن بثلاثمائة وثلاثين حديثاً مستدلاً على بعض موضوعات التصوف الإسلامي، التي يبلغ عددها ثلاثة عشر موضوعاً بالضبط، مع الذكر عن وجه الاستدلال بهذه الأحاديث، ولكن هذه الموضوعات غير مرتبة ومنظمة تحت عناوين خاصة، بل هي منتشرة في أطراف هذا الكتاب ضمناً لشرح هذه الأحاديث مع الرمز "ف" إشارةً إلى أن هذا الموضوع ثابت بهذا الحديث، مع الذكر عن وجه الاستدلال بهذه الأحاديث، وذلك بالاختصار.

لما كان هذا الأمر يحتاج إلى الاستنباط والاجتهاد فتطرق إلى الاستنباط والاجتهاد الذي أعانه في إخراجِه وانتاجِه كثيراً من المسائل السلوكية من هذه الأحاديث.

فالموضوعات التي وردت في هذا الكتاب منتشرة في أطراف هذا الكتاب هي: (١) الأخلاق (٢) أحوال (٣) أشغال (٤) تعليمات (٥) علامات (٦) فضائل (٧) عادات (٨) رسوم (٩) مسائل (١٠) أقوال (١١) توجيهات (١٢) إصلاح (١٣) متفرقات.

قد بدا لنا بعد إمعان النظر في هذا الكتاب (حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة) أن الشيخ التهانوي رحمته الله قد سلك في تأليف هذا الكتاب مسلكاً نفسياً معيناً، بعد تلخيصه إياه نستطيع أن نلمح إلماحاً سريعاً في هذه العجلة السريعة هكذا:

(١) إنه رحمته الله بدأ كتابه هذا بخطبة حكيمة، بين فيها مكانة التصوف في الإسلام وأهمية إصلاح الناس أعمامهم الباطنية مستدلاً بعدد من الآيات والأحاديث مع تحذير الناس عن الإفراط والتفريط فيه.

(٢) إنه لم يرتب الأحاديث على الفصول أو الأبواب من حيث الموضوع إنما يكتبها مرقمة بالرقم التي تبدأ من الرقم الأول من الحديث حتى تنتهي بحديث ثلاثمائة وثلاثين، وضمناً تشمل موضوعات هذا الكتاب التي تبلغ عددها ثلاثة عشر موضوعاً.

(٣) وقد شرح هذه الأحاديث من حيث الترتيب للحديث قطع النظر عن ترتيب موضوعاتها وتنظيمها، لذلك يجد الباحث معالجته المسائل في الموضوع الواحد متفرقة في أماكن مختلفة، لعل هذا لقلّة وقته في ترتيبها بسبب مزدحم الأشغال من النشاط الأخرى الدينية.

(٤) ومن المعروف لدينا أن بعض الحديث لا يقتصر على موضوع واحد فإذا كان في الحديث أكثر من مدلول من مصطلحات التصوف ومسائله يذكرها الشيخ ويشرحها من غير تطرق إلى إطناب الممل والقصر المخل.

(٥) وعادةً أنه لم يذكر آراء العلماء المتقدمين في شرح هذه الأحاديث، وهذا لا يعني أنه اعتمد على رأيه فقط عند شرح الحديث، بل أنه أراد أن يعترض عن التفصيل والإيجاز في الكتاب، لأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتبه مؤيدا لكتابه المشهور "التكشف عن مهمات التصوف" وما ورد فيه من مسائل السلوك والإحسان وقد سبق فيه التفصيلات عن هذا فلذا لم يحتاج إلى جمع الأقوال الذي يدعي إلى التفصيل.

(٦) وقد شرح هذه الأحاديث باللغة الأردية الفصيحة البليغة مع إمعان النظر بالنقط العلمية في إثبات مسائل السلوك والرباط بين هذه المسائل السلوكية والحديث.

(٧) سوف يشعر القراء خلال هذا الشرح براعته العقلية والذهنية وحذاقته النادرة في هذا الفن، لأنه كما سبق الكلام فيما قبل أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وضع في هذا الكتاب الأحاديث الجديدة من حيث الاستدلال لهذه الموضوعات، ثم قام بالاستنباط من هذه الأحاديث في إظهار الاستدلال بما التي لم يكن يظهر استدلالها بالوضاحة، بل كانت تحتاج إلى الاستنباط والرأي لإظهار دلالتها فيها، فقام بالبرهنة العقلية فيما يحتاج إليه لإثبات ما ذهب إليه من الرأي، وهكذا جمع الدليل العقلي والنقلي في هذه الرسالة.

(٨) وقد تنزه في شرح الحديث عن كل أسلوب جدل وتعصب، بل سلك فيها أسلوباً سليماً إصلاحياً يجذب بها عقول الناس إلى دعواه الإصلاحية، وهي الدعوة التي تتصف بالوسطية والإعتدالية.

(٩) بعد إمعان النظر نجد أنه جمع عند كل حديث ثلاثة أمور: الأول - ذكر المتن - والثاني - الترجمة باللغة الأردنية - والثالث - شرح الحديث - وأفاد خلال شرحه للحديث بعض النتائج العلمية التي تثبت مسائل التصوف بالوضاحة.

(١٠) إنه اكتفى في تخريج بعض الأحاديث تخريجا إجماليا بإشارة سريعة إلى مرجعها ومخرجها واحداً أو اثنين فقط كقوله: "أخرجه أحمد" وهذا أحياناً في نهاية الحديث وأحياناً بعد فراغه عن شرح الحديث.

(١١) وأغلبية هذه الأحاديث أسندها الشيخ إلى الكتاب المشهور والمتداول في زمنه رحمه الله "تيسير الوصول" ويليها "مشكاة المصابيح" وقليلاً ما أشار في بعض الأحاديث إشارة مباشرة إلى مصادرها الأساسية من الكتب الصحاح الستة وغيرها، ولكن بعد البحث يظهر لنا أن أغلبية هذه الأحاديث تنتهي نسبتها إلى الكتب الستة.

المبحث الثالث

مضامين التصوف في كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"

المسائل التي وردت في هذه الرسالة عرفها الشيخ التهانوي رحمه الله في مقدمتها بكلمته القصيرة، التي قلّت ولكنها دلت على هدفها تماماً، ومن هنا نكتفي على كلمة الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ إِعْرَاضاً عن الإطناب مع أن تعريفه شامل وكامل رغم تقصيره بألفاظ عديدة، فيقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ في تعريف هذه المسائل: "إن المراد الأصلي بالطريق الباطني والتصوف الإسلامي هو إصلاح جميع الأعمال القلبية والنفسية، فهذه الأنشطة الإصلاحية الباطنية تسمى بـ (الأخلاق أو المقامات) في اصطلاح التصوف، والذي يعتبره المقصد الأصلي في التصوف الإسلامي.

والمعروف لدينا أن لكل مقصد وغاية بعض المتعلقات واللوازم فمن بعضها الثمرات غير الاختيارية التي تسمى بـ (الأحوال).

وهناك بعض الأسباب التي تساعد على حصول هذه الثمرات أحياناً، فهي تسمى بـ "الأشغال" في هذا الفن.

ويوجد بعض من المتعلقات واللوازم التي تعالج الأمراض الباطنية أو تدافع عن الاشتباهات والاختلاط النفسية والعقلية، أو تعبر عن بعض القواعد أو المسائل لهذا الفن التي تسمى بـ(التعليمات) في هذا الفن.

والآثار الظاهرية التي تظهر من هذه الثمرات الاختيارية وغير الاختيارية، تعبرها بـ(العلامات) في هذا الفن.

والبشارة التي وردت في القرآن والسنة في هذه الغاية أي في الأخلاق والصفات الحميدة هي تليق أن تُعبرها بـ(الفضائل)

هناك يوجد بعض الأفعال الإختيارية والعادية بمنزلة الأمور الطبيعية للسالكين على هذا الطريق، التي تعرّف بـ(العادات والآداب).

وفيه بعض الأفعال الزائدة لهذا القوم غير مخالفة الشريعة بما يمارسونها لمصالح الغير الضرورية الدينية، هي بمنزلة (الرسوم) في هذا الفن.

ويوجد في هذا الفن بعض الأمور من التحقيقات العلمية المحضة، فالأفضل أن نعبرها بـ (المسائل). ومن أهم اللوازم في هذا الفن هي بعض التعبيرات الصوفية، من حيث اصطلاحاتهم الخاصة في هذا الفن، وأنسب لنا أن نعبرها بـ(الأقوال).

وفيه بعض الأمور من ظاهرها تدل على أنها خارجة من حدود الشريعة رغم أنها داخلية في حدود الشريعة، وهذه الحقيقة لا تظهر إلا ببعض التأويلات العلمية والتطبيقات الحكيمة لإظهار هذه العلاقة مع الشريعة، فهذه التأويلات والتطبيقات أنسب لنا أن نعبرها بـ(التوجيهات).

ولكن أحياناً يصدر بعض التصرفات من هذا القوم التي تخالف الشريعة بكاملها واقعةً وظاهرةً، فيحتاجون إلى التنبيه والتصليح، فيُعبر في اصطلاح هذا الفن بـ(الإصلاح)، ومع ذلك هناك بعض الحقائق العلمية المتفرقة في هذا الفن التي لا تلتحق مع الأمور المذكورة فيما قبل، فهو معروف باسم (المتفرقات)^{٢٥٢}. هذا كما ذكره الشيخ باختصار وإلا سنفصلها خلال الفصل القادم مع الدليل إنشاءً الله.

^{٢٥٢} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ٥٣.

المبحث الرابع

حقيقة الترابط وكيفيته بين الحديث والتصوف

أولاً: حقيقة الترابط:

قبل أن نخوض مبحث الترابط بين التصوف الإسلامي والحديث النبوي نهتم في تحقيق لفظ الترابط تحقيقاً لغوياً، فالترابط أصله من مادة (ر ب ط) يدور في معان منها العلاقة، والصلة، والاقتران بين الشيئين، فيقال: رَبَطَهُ أَي شَدَّهُ، وكذلك يقال: رَبَطْتُ الشَّيْءَ أَرَبَطُهُ، وَأَرَبُطُهُ، أَي شَدَدْتَهُ، وأيضاً من معانيه حبس الشيء في مكان خاص كما يقال: ترابط الماء في المكان لم يبرحه ولم يخرج منه، وقال صاحب معجم الوسيط: "الترابط (في علم الفلسفة) قيام علاقة بين مدركين لاقتراحهما في الذهن بسبب ما^{٢٥٣}.

فالترابط في هذه النسبة معناه: العلاقة والمناسبة بين المدركين أي التصوف الإسلامي والحديث النبوي، أي أن الباحث سيحاول خلال بحثه أن يثبت حقيقة بأن التصوف الإسلامي له علاقة قوية مع الحديث النبوي وله أصل ثابت في الحديث وليس مستحدثاً في الإسلام ولم يستورده من خارج الإسلام، وهو في دائرة السنة النبوية لم يبرحها ولم يخرج منها، ولكن هذه الحقيقة ليست ظاهرة لدى الكثير من الناس، بل الشرزمة من الناس يظنون أن التصوف مخالف السنة والحديث خلاف بعيد، فهذه الرسالة محاولة قصيرة على إبراز هذه الحقيقة الجليلة استناداً على بعض الأحاديث الواردة في الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، للشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، بناءً على ذلك قد اختار الباحث هذا اللفظ "الترابط" في عنوان رسالته هذه، وبالله التوفيق والسداد.

^{٢٥٣} أحمد الزيات وزملائه (ط ٣، ١٩٩٧م) المعجم الوسيط. عدد الأجزاء ٢، تحقيق: مجمع اللغة العربية، بيروت: دار

الدعوة، كلمة البحث "ترابط"، ج ١، ص ٣٢٣.

ثانيا: نظرية الترابط بين الحديث والتصوف:

سوف يظهر هذا الترابط في هذه الرسالة بضوء بعض الأحاديث التي أوردها الشيخ التهانوي رحمته الله في كتابه "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، فرتب الباحث هذه الأحاديث في ضمن المباحث الأربعة تحت الفصل الرابع القادم. إنشاء الله تعالى. منها:

أ- مبحث بعنوان: "الترابط بين الحديث والتصوف بتأييد غاية التصوف ونتائجها وما يتعلق مع هذه النتائج" فهذا المبحث يشتمل على أربعة مضامين التصوف المذكورة في "الحقيقة" وهي الأخلاق، الأحوال، الأشغال، وعلامات.

ب- ومبحث بعنوان: "أنشطة المتصوفين وعلاقتها مع السنة النبوية" الذي يبحث عن بعض الأنشطة الصوفية قولاً وفعلاً، فهذا المبحث يتضمن على ثلاثة مضامين التصوف المذكورة في "الحقيقة"، وهي العادات أو الآداب، الرسوم، والأقوال.

ج- ومبحث بعنوان: "التحقيقات العلمية والإرشادات النبوية في دور التصوف" فهذا المبحث يبحث عن بعض الإرشادات السلوكية والدينية، والتحقيقات العلمية في هذا المجال، والدور التجديدي والإصلاحي في شئون التصوف والسلوك، فهكذا يشتمل هذا المبحث على أربعة مضامين التصوف المذكورة في "الحقيقة"^{٢٥٤} وهي تعليمات، مسائل، توجيهات، والإصلاح.

د- والمبحث الأخير بعنوان: "الترابط حول بعض المتفرقات والفضائل"، فهذا المبحث يشتمل على مطلبين، وهما الفضائل والمتفرقات.

فهذه المباحث الأربعة مجموعة لجميع مسائل التصوف الإسلامي بما ذكرت في كتاب الشيخ التهانوي رحمته الله (حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة) التي تشتمل على كثير من جزئيات هذا الفن، وكل الجزئيات تثبت بالدلائل الكثيرة من السنة، ومن هنا يثبت العلاقة بين الحديث والتصوف مع الدليل، وعدد هذه الأحاديث تتفاوت من حيث الموضوع، لأنه رحمته الله قد أورد هذه الأحاديث في كل الموضوع قدر ما احتاج إليها، ففي بعض من هذه الموضوعات يكتفي رحمته الله بقليل من الدلائل بقدر الكفاية لما كانت مكانتها واضحة في الإسلام لدى الجمهور من المسلمين وهي غنية عن التفصيل والتطبيب، ولكن بعضاً منها تحتاج إلى التطبيب والتفصيل بالدلائل والبراهين لأنها من

^{٢٥٤} أي الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" للشيخ التهانوي رحمته الله.

المتشابهات لدى الناس، وغير واضحة حقيقتها أمام المسلمين عامة وخاصة، فمن هنا مال الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي إثباتها إلى إتيان كثير من الأحاديث دليلاً، وهكذا تبلغ عدد جميع هذه الأحاديث ٣٣٠ حديثاً.

فالباحث اكتفى من هؤلاء الأحاديث قدر ما تكفيه الغاية، وهي إثبات الترابط بين التصوف الإسلامي والحديث النبوي، لأن هذه العجلة السريعة لا تتيح للباحث أن يستوعب بحته بجميع الأحاديث الواردة في الكتاب "الحقيقة" وكذلك جميع جزئيات الموضوعات، لأن موضوع الرسالة لا يدعي إلى ذلك، بل إنما يدعي إلى أن ينصب الترابط بين التصوف الإسلامي والحديث النبوي وذلك يمكن بقدر الكفاية من الأحاديث والمسائل الجزئية.

الفصل الرابع: الترابط بين الحديث والتصوف خلال الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"

ويحتوي هذا الفصل على:

التقديم

المبحث الأول: الترابط بين الحديث والتصوف بتأييد غاية التصوف ونتائجه وما يتعلق بهذه النتائج، وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: "الأخلاق" وحقيقة الترابط

المطلب الثاني: "الأحوال" ونظرية الترابط في هذا الجانب

المطلب الثالث: "الأشغال" ووجه الترابط فيه

المطلب الرابع: "العلامات" في نظر السنة وأقوال المحدثين فيها

المبحث الثاني: الأنشطة المتصوفة وعلاقتها مع السنة النبوية، وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: عادات المتصوفين وآدابهم وإبراز علاقتها مع السنة النبوية

المطلب الثاني: "الرسوم" وحقيقة الترابط مع السنة النبوية

المطلب الثالث: "الأقوال" وحقيقتها في السنة النبوية

المبحث الثالث: الحقائق العلمية والإرشادات النبوية في دور التصوف

المطلب الأول: "التعليمات" وحقيقتها في ضوء السنة

المطلب الثاني: "المسائل" وحقيقتها في نظر السنة النبوية

المطلب الثالث: "التوجيهات" في رد الشبهات عن التصوف

المطلب الرابع: "الإصلاح" والدور التجديدي في التصوف الإسلامي بضوء الحديث النبوي.

المبحث الرابع: الترابط حول بعض المتفرقات والفضائل، وفيه مطلبان

المطلب الأول: الترابط بين الحديث والتصوف خلال ما بقي من مختلف مسائل التصوف

المطلب الثاني: الأحاديث الواردة في فضائل التصوف

المبحث الأول

الترابط بتأييد غاية التصوف ونتائجه وما يتعلق بهذه النتائج

كما سبق من قبل أن غاية التصوف والهدف الأصلي في هذا الفن هو الأخلاق والمقامات، لأن جميع أنشطة لهذا القوم تدور حول هذا المحور، ومن المعلوم أن لهذا الهدف الأصلي بعض نتائج إما اختيارية أو غير اختيارية، وبعض الأمور المتعلقة مع هذه النتائج الاختيارية وغير الاختيارية، وهكذا يضمن هذا المبحث أربعة مضامين التصوف المذكورة في "الحقيقة" وهي الأخلاق، الأحوال، الأشغال، وعلامات، ويضمن هذه الموضوعات كثيرا من الجزئيات المتعلقة مع التصوف الإسلامي التي أيدها الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بِأَحَادِيث كثيرة، فالباحث انتخب منها بعض الجزئيات والأحاديث من غير استيعابها مراعيًا لموضوع رسالة الباحث، وابتعادا عن التطنيب والتفصيل، بل اكتفى في هذا الجانب بقدر ما يكفي لغايته، وهي إبراز الترابط بين الحديث والتصوف فيليك التوضيح عن الأخلاق والمقامات من حيث الترابط بين الحديث والتصوف، ثم يليه الأحوال و الأشغال وعلامات من حيث الترتيب.

المطلب الأول

"الأخلاق" و"المقامات" و"حقيقة الترابط"

مفهوم الأخلاق والمقامات:

المراد بالأخلاق أوالمقامات في هذا الفن هو بعض الأنشطة العملية والنفسية في إصلاح القلوب وتدريب النفوس على حسن السلوك، أي المجاهدة في إصلاح جميع الأعمال الباطنية والقلبية، الذي اعتبرها الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بِأَسَاس التصوف وهدفه الأصلي، والبواقي من الموضوعات هي تتعلق معه من حيث الفروع أو المتعلقة لها، فيقول رَحِمَهُ اللهُ فِي هذه النسبة: "إن الهدف الأصلي من الطريق الباطني والتصوف الإسلامي هو إصلاح جميع أعمال القلب والنفس، الذي يسمى بـ (الأخلاق أوالمقامات) في اصطلاح هذا الفن، والذي يعتبرها المقصد الأصلي في التصوف"^{٢٥٥}، فالأخلاق هي

^{٢٥٥} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

من قبيل الأساس في التصوف الإسلامي، والنشاطات التي يشتملها هذا الفن كلها لمعالجة هذا الأساس الأصلي، وقد جاءت أحاديث كثيرة تبين الأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها عباد الله حتى ينالوا درجة عالية وقدرا رفيعا عند الله.

الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

لما كانت الأخلاق شيء ثبت بالقرآن والسنة بالدلائل غير تحصى، فهي غنية عن التظنيد والتفصيل، ولذلك نرى أنه ﷺ لم يهتم بجمع الأحاديث الكثيرة في هذا الموضوع، كما اهتم بجمعها في الموضوعات الأخرى، ومن هنا نجد أنه ﷺ ذكر في هذا الموضوع حوالي ثمانية أحاديث فقط، ومن خلالها أيد بعض المسائل القلبية والأخلاقية مثل مراقبة القلب، و تربية النفس بالإخلاص وبرائها من السمعة والرياء، و دوامها على مخافة الله، والتوكل على الله، الصبر والتحمل عند معاشرّة الناس والرفق معهم، والتعود بالتواضع والعجز والإنكسار، واللين، وإيثار النفس في معاونة الناس، وغيرها من مسائل الأخلاق التي يعتبرها من أهم الموضوعات التصوف الإسلامي، ولكن هذه الأحاديث لا تباشر بدلائلها على هذه الأمور صراحة، إلا أن الشيخ التهانوي ﷺ استدل بهذه الأحاديث ببراعة استنباطه العقلية والذهنية ومهارته الفنية، ويليك التفصيل بخوض بعض الجزئيات من هذا الموضوع.

(١) مراقبة القلب ونظرية الترابط بين الحديث و التصوف:

إن من أهم مسائل الأخلاق والمقامات هي مراقبة القلب، فالمراقبة كما عرفها إمام ابن القيم ﷺ: " المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة"^{٢٥٦}.

فهذه الحقيقة ثابتة في حياة الرسول ﷺ، حتى أنه ﷺ لم يزل يطالع شواهد الحق ويدعم ملاحظة المراقبة حتى كان إذا نامت عيناه فقلبه لم ينم.

^{٢٥٦} محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (ط ٢، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك

نستعين. تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي، ج ٢، ص ٦٥.

وقد جاء الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بِأَحَادِيثٍ فِي هَذَا الْمَضْمُونِ، وَاسْتَدَلَّ بِهَا فِي تَثْبِيْتِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فِيلِيكُ حَدِيثٌ مَعَ إِبْرَازِ التَّرَايُطِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَدِيثِ.

الحديث الشريف: ١/٣٧- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شَبِّتَ قَالَ: «شَبَّيْتَنِي هُوْدٌ وَالْوَأَقِعَةُ» الحديث ٢٥٧. (أخرجه الترمذي) ٢٥٨.

تخريج الحديث: أخرجه الإمام الترمذي في سننه من طريق أبي كريب عن معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحق عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ٢٥٩، والحاكم في المستدرک، من نفس الطريق ٢٦٠.

الحكم عليه: قال الترمذي: " هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلا من هذا الوجه ٢٦١ " وقال الحاكم: "صحيح على شرط البخاري" ووافقه الإمام الذهبي ٢٦٢.

٢٥٧ ذكره الشيخ بالاختصار، وإنما الحديث الذي أخرجه الترمذي هو بلفظه: "حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله قد شبت قال شبيتي هود والواقعة والمرسلات و ﴿عم يتساءلون﴾ و ﴿إذا الشمس كورت﴾.

٢٥٨ ذكره الشيخ برقمه الخاص ٣٧ وأسنده إلى الترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٩٨.

٢٥٩ راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، (ط ٣، طبعة إيطالية، محرم ١٤٢١هـ / أبريل ٢٠٠٠م) سنن الترمذي. مصدر الكتاب: موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة. إشراف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الواقعة، رقم ٣٢٩٧، ص ١٩٨٨.

٢٦٠ محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري (ط ١، سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠) المستدرک علی الصحیحین. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، كتاب التفسير، تفسير سورة هود، وسورة الواقعة، رقم ٣٣١٤، و ٣٧٧٧، ج ٢، ص ٣٧٤ و ٥١٨.

٢٦١ راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، رقم ٣٢٩٧، ص ١٩٨٨.

٢٦٢ محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج ٢،

ص ٣٧٤.

الثَّكَّت العلمية حول هذا الحديث:

يرى المحققون^{٢٦٣} أن الاستقامة على مخافة الله والمداومة على هيئته نوع من المراقبة، لأن المراقبة عبارة عن التدبر التام في ذات الله وصفاته أو في مضمون خاص، وترسيخه في القلب، فالمتصوف المراقب في ذات الله الذي يدوم على شدة الخوف والرجاء من الله تعترى عليه الحالات النفسية التي تؤدي إلى تغير الأحوال الظاهرية كتشيب الرأس وضعف البدن وغيرهما، فهذه الحالة حصلت في حياة الرسول ﷺ كما عرفناها في الحديث السابق، وكذلك حصلت في حياة أتباعه رضوان الله أجمعين أيضاً، خاصة الذين كانوا متصفين بالمراقبة والمشاهدة، فكانوا يدومون على خشعة الله من بطشه وعذابه، حتى يظهر أثرها على الظاهر بتغيير الحالات الظاهرية.

قال أبو عبدالله عند شرح هذا الحديث: "فالفرع يورث الشيب وذلك أن الفرع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع، ومنه يعرق، فإذا انتشف الفرع رطوبته يبست المنابع فييس الشعر وبيض، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه، فإذا ذهب سقاؤه يبس فاييض، وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده، فالنفس تذهل بوعيد الله، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به، فمنه تشيب. وقال الله تعالى: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [الزمل: ١٧] فَإِنَّمَا شَابُوا مِنَ الْفَرْعِ."^{٢٦٤}

ومن هنا نجد نموذجاً كثيراً من حياة أتباعه ﷺ الراشدين المهديين رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان كانوا مداومين على خشعة عقاب الله وبطشه حتى تتغير أحوالهم الظاهرية.

وهذا ثاني الخليفة للمسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حانت منيته قال: لو أن لي طلاع الأرض ذهباً، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه. وبكى أبو هريرة رضي الله عنه في مرضه، فقيل له: ما يبكيك

^{٢٦٣} كما يراه الإمام المناوي والعلامة الجرجاني في تعريف المراقبة: "هي استدامة علم العبد باطلاع الرب في جميع أحواله".

الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ط ١، سنة ١٤١٠هـ) التوقيف على مهمات التعاريف. تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت: دار الفكر المعاصر، ص ٦٤٧.

و علي بن محمد بن علي الجرجاني (ط ١، ١٤٠٥) التعريفات. تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ص ٢٦٦.

^{٢٦٤} شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي الخرجي (د.ط، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) الجامع لأحكام القرآن.

تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب، ج ٩، ص ١.

؟ فقال : أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلة زادي، وإني أمسيت في صعود على جنة أو نار، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي^{٢٦٥}.

نظرية الترابط في هذا الحديث:

ومن المعلوم أنّ المراقبة هي التدبر التام في ذات الله وصفاته أو في الحقائق الأخرى أو المواظبة على تصور الشيء المعين بصميم القلب، كما يقول الشيخ التهانوي رحمته الله في تعريفه : "إن المراقبة هي استدامة علم العبد باطلاع الرب من حيث الصفات والذات في جميع أحواله"^{٢٦٦} فهذه الحقيقة ثابتة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو الظاهر من هذا الحديث، وكذلك أنها ثابتة في حياة أتباعه رضوان الله أجمعين. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن سبب شبيهة رأسه: شَيَّبَتْنِي هُوْدُ وَالْوَأَقَعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وذلك لأن هذه السور وأمثالها تحكي عن عذاب الله على الأمم السابقة و تذكر أسباب غضب الله عليهم، وفيها التفاصيل عن شدة عذاب أهل النار ونعيم الجنة.

وقد ثبت في تحقيق العلماء أن الشبهة لا تفاجيء بيوم أو يومين بل إنها تحدث عبر السنوات و الزمان، فالحديث يدل على أن تدبر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه السور ما كان لوقت بسيط، إنما كان متواصلًا عبر وقت طويل، فهذا هو شأن المراقبة، وهي المراقبة التي ثبتت بهذا الحديث.

الأمور المستفادة مما سبق:

الأمور التي استفدناها من التفاصيل السابقة هي:

- (١) أن المراقبة من أهم أمور الأخلاق التي تتعلق بمسائل القلب والجانب الباطني الأخلاقي.
- (٢) والمراقبة هي التدبر في الشيء المعين مع المواظبة عليه، فالتفكير في الشيء لوقت من الأوقات لا يسمى بالمراقبة.

^{٢٦٥} الحسين بن مسعود البغوي (ط ٢، ١٤٠٣هـ/، ١٩٨٣م) شرح السنة. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: المكتب

الإسلامي، ج ١٤، ص ٣٧٣.

^{٢٦٦} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٩٨.

(٣) إن المراقبة ثابتة بهذا الحديث، رغم أن هذا الحديث لا يباشر بدلالته على المراقبة ولكن عند إمعان النظر العميق يظهر ثبوتها به، بما أبرزها الشيخ التهانوي رحمته الله بمهارته الفكرية والعقلية من دون احتياجه إلى الآخرين.

(٤) كما أن المراقبة نموذجها موفرة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك نجد كثيرا من الأمثال من حياة أتباعه عليهم السلام الراشدين المهديين الذين كانوا متصفين بالمراقبة.

(٢) الزهد والتوكل وحقيقة الترابط بين الحديث والتصوف:

إن الزهد والتوكل من أهم صفات هذا القوم "المتصوفين"، ولكن ما هو الزهد والتوكل في تعريف العلماء وفي السنة النبوية؟ وهل الزهد والتوكل كما فهمهما عامة المتصوفين أم لهما معنى خاص الذي ترشد إليه الأدلة الشرعية؟ وما هي علاقة الزهد والتوكل مع السنة النبوية؟ ومن هنا يوجد أقوال المحققين والعلماء المعتدلين في معنى الزهد والتوكل، فقال سفيان الثوري: **الزهد في الدنيا: قصر الأمل ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.** وقال الإمام أحمد: **الزهد في الدنيا: قصر الأمل،** وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: **الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع.** وأما التوكل: قال الشيخ أبو حامد الغزالي رحمته الله: **"قد يُظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كلحم على وضم، وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع"**^{٢٦٧}، وقال الإمام أبو القاسم القشيري اعلم أن التوكل محله القلب وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعدما يحقق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى فإن تعسر شيء فبتقديره وإن تيسر شيء فبتيسيره^{٢٦٨}، فالتوكل الحقيقي في تعريف العلماء هو الذي يكون فيه الأخذ بالأسباب ثم الاعتماد على الله، وأما الاعتماد على الله من غير أخذ الأسباب فهو تواكل وليس بتوكل، فالتوكل لا ينافي النظر إلى الأسباب، والتوكل الحقيقي لا يضاده الغدو والرواح في

^{٢٦٧} محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا (د.ط، ١٤٢٣) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي.

بيروت: دارالكتب العلمية، ج ٧، ص ٨.

^{٢٦٨} المصدر السابق، ج ٧، ص ٨.

طلب الرزق، ولهذا سئل الأمام أحمد عن رجل جلس في بيته، أو في المسجد وقال : لا أعمل شيئاً حتى يأتي رزقي، قال أحمد : هذا رجل جهل العلم^{٢٦٩}، فيليك الحديث في هذا المضمون.

الحديث الشريف: ٢/١٠٢ : عن أبي ذر^{رضي الله عنه}: قال رسول الله ﷺ: «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة: أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يديك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بما أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك». أخرجه الترمذي. وزاد رزين في كتابه : «لأن الله تعالى يقول : {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٣]»^{٢٧٠}.

تخريج الحديث: أخرجه الترمذي من طريق عمرو بن واقد عن يونس بن حلبس عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر^{رضي الله عنه}^{٢٧١}، وابن ماجه من نفس الطريق^{٢٧٢}.

الحكم عليه: "إسناده ضعيف جدا" لأن عمرو بن واقد منكر الحديث، كما قال الإمام الترمذي: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو إدريس الخولاني اسمه عائد لله بن عبد الله، وعمرو بن واقد منكر الحديث"^{٢٧٣}، فعمرو بن واقد هو مولى قريش، الهاشمي، أو الأموي، الدمشقي أبو حفص. ذكره الدارقطني في الضعفاء والمتروكين، وقال متروك الحديث. قال أبو مسهر: "ليس بشيء". قال البخاري: "منكر الحديث"، وقال أبو مسهر ودحيم: "ليس بشيء"،

^{٢٦٩} أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١١، ص ٣٠٦.

^{٢٧٠} ذكره الشيخ برقمه الخاص ١٠٢ وأسنده إلى الترمذي والرزين بالزيادة على لفظهما. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٩٨.

^{٢٧١} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، رقم ٢٣٤٠، ص ١٨٨٧.

^{٢٧٢} أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ط ٣، طبعة إيطالية، محرم ١٤٢١هـ / أبريل ٢٠٠٠م) سنن ابن ماجه. مصدر الكتاب: موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة. إشراف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دارالسلام، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، رقم ٤١٠٠، ص ٢٧٢٦.

^{٢٧٣} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، رقم ٢٣٤٠، ص ١٨٨٧.

وقال النسائي والدارقطني: "متروك"، وقال ابن حبان: "يقلب الأسانيد ويروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك"^{٢٧٤}.

قلت: رغم أن الحديث ضعيف نظراً إلى سنده ورجاله، ولكنه مقبول من حيث المعنى، لأنه يوافق مقاصد شريعتنا الإسلامية ولا يعارضها بتاتا، فلذلك نرى أن المحققون سلفاً وخلفاً قبلوا وعملوا به من غير اعتراض نظراً إلى ضعف سنده.

مفهوم الحديث من شروح المحدثين:

هذا الحديث ورد في حقيقة الزهد والتوكل، فهو رد قوي على اعتقاد بعض العوام الذين يزعمون بأن الشخص لا يمكن أن يكون ولياً إلا أن يتجنب جميع الملمات سواء كانت من المحرمات أو المباحات اجتناب الحرام، ولا ينبغي للولي أن يكتز الأموال ولا يحفظها بل ينبغي له ما يأتيه من المال يصرفه فوراً من غير تدبر وفكر ولو في غير مصرفه، فهذا بزعمهم أنه من أهم أشرطة الولاية^{٢٧٥}، ولكن هذا زعم خاطئ وفساد عند المحققين من علماء هذا الدين الحنيف المعتدلين كما سبق.

فقال الإمام المناوي في شرح هذا الحديث: "الزهادة في الدنيا" أي ترك الرغبة فيها و ليست بتحريم الحلال على نفسك كأن لا تأكل لحماً ولا تجامع "ولا إضاعة المال" بإخراجه من يده كله، ولكن الزهادة في الدنيا حقيقة هي أن لا تكون بما في يديك من المال أوثق منك بما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك فليس الزهد بتجنب المال بالكلية بل أن يتساوى وجوده وفقده عندك ولا يتعلق به قلبك البتة^{٢٧٦}.

^{٢٧٤} عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي (د. ط. ١٤٠٦ هـ) الضعفاء والمتروكين. تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٢٣٣.

^{٢٧٥} هم بعض المتصوفين المسلمين المغتلبين في الزهد، الميالين إلى الفكرة الإشراقية، يحسبون أن المجاهدة هي أن تبخس حقوق النفس، وتمحق مطالبها جمعاء، ويحسبون ذلك طريقاً إلى نجاه الروح وفلاحها، وأشهر من هؤلاء الإشراقيين المسلمين الشيخ شهاب الدين السهروردي (٥٤٩ - ٥٨٧ هـ) المعروف بالمقتول. لمزيد من التفصيل عن هذه الفرقة، أنظر: أبا الحسن علي الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ٣، ص ١٩١ - ١٩٣.

^{٢٧٦} الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير. عدد الأجزاء ٢، الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، ط ٣، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م) ج ٢، ص ٩١.

نظرية الترابط في هذا الحديث:

يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَحْدِيدِ مَعْنَى الزَّهْدِ وَالتَّوَكُّلِ وَفِي تَوْضِيحِ عِلَاقَتِهِمَا مَعَ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ: "إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَشْرَحُ عَنِ الزَّهْدِ وَالتَّوَكُّلِ، الَّذِينَ مِنْ أَهَمِّ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مَعَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ جَوَابٌ سَاطِعٌ عَلَى الزَّعْمِ الْفَاسِدِ الَّذِي يَزْعَمُ بِهِ بَعْضُ السُّفَهَاءِ مِنَ الْمُتَصَوِّفِينَ وَيُظَنُّونَ أَنَّ الزَّاهِدَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ الَّذِي يَتْرِكُ جَمِيعَ مِلذَّاتِ الدُّنْيَا وَلَوْ كَانَ حَلَالًا، وَيَجْتَنِبُ عَنْ بَعْضِ مِلذَّاتِ الْحَلَالِ كَأَنَّهَا حَرَامٌ، وَمَا يَأْتِيهِ مِنَ الْمَالِ يَصْرِفُهُ فَوْرًا وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَصْرَفِهِ، وَلَا يَدْبِرُ لِدَفْعِ الْبَلَاءِ وَالْمُصِيبَةِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ، فَهُوَ فِي زَعْمِهِمْ وَلِيٌّ بِكَامِلِهِ، هُوَ الَّذِي تَوْفَى شُرُوطَ الْوَلَايَةِ حَقًّا، وَلَكِنْ هَذَا الْحَدِيثُ يُوَضِّحُ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَيْسَتْ مِنْ شُرُوطِ الْوَلَايَةِ، بَلِ الْوَلَايَةُ الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ أَكْثَرَ مِنَ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْمَحْصُولِ لَدَيْهِ وَلَدَى الْمَخْلُوقِ"^{٢٧٧}.

قلت: فالترابط الذي نشأه خلال هذا البحث العلمي هو بتصحيح معنى الزهد والتوكل، فالزهد المرغوب في هذا الفن هو الزهد الذي ثابت بالأدلة الشرعية من القرآن والسنة، وليس بما مال إليه السفهاء من المتصوفين، وكذلك التوكل، وفي الحقيقة أن هذين المهيمين من أحوال القلوب وليس من مظاهر الأحوال، كما ذكر في هذا الحديث: "ليست الزهَّادَةُ في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهَّادَةُ: أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدَيْكَ... الآخر"، كما قال سفيان الثوري: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا: قَصْرُ الْأَمَلِ لَيْسَ بِأَكْلِ الْغَلِيظِ، وَلَا لِبَسِ الْعَبَاءِ، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ "الزهَّادَةُ فِي الدُّنْيَا" أَي تَرَكَ الرِّغْبَةَ فِيهَا وَ لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ عَلَى نَفْسِكَ كَأَنَّ لَا تَأْكُلُ لِحْمًا وَلَا تَجَامِعُ (وَلَا إِضَاعَةَ الْمَالِ) بِإِحْرَاجِهِ مِنْ يَدِهِ كُلِّهِ، وَلَكِنْ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَةٌ هِيَ أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ مِنَ الْمَالِ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ، هَذَا هُوَ الزَّهْدُ الْمَطْلُوبُ وَالتَّوَكُّلُ الْمَرْغُوبُ فِي هَذَا الْفَنِّ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ الشَّيْخُ التَّهَانَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَبِهِ قَالَ عُلَمَاءُ الْكِبَارِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ كَمَا سَبَقَ، فَهَكَذَا أُثْبِتُ رَحِمَهُ اللهُ التَّرَابُطَ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالْحَدِيثِ، وَأَنْصِبُ مِنْهَجَهُ التَّوَسُّطَ بَيْنَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِينَ.

^{٢٧٧} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٦١.

الأمور المستفادة مما سبق:

الأمور التي استفدناها من المبحث السابق هي:

- (١) إن الزهد والتوكل من أهم صفات هذا القوم.
- (٢) المطلوب من الزهد والتوكل هو ما أشارت إليه السنة، وليس كما فهمها بعض السفهاء من المتصوفين.
- (٣) إن الزهد والتوكل من أحوال القلوب ولا من مظاهر الحال.
- (٤) الزهد والتوكل بينهما صلة عميقة يلتصق بعضه بعضاً، ولا يفترق أحدهما عن الآخر.
- (٥) جميع الأنشطة في الإسلام تابعة لمصدره الأصلي وهو القرآن والسنة.
- (٦) وما ثبت من الترابط بين الحديث والتصوف خلال هذا المبحث هو لاتباعه ﷺ وسطية منهجه وإعراضه عن التعصب المذهبي.

(٣) الإيثار على النفس ونظرية الترابط بين التصوف والحديث:

إن الإيثار على النفس هو من الأحوال القلبية والصفة الخلقية التي يعتبرها من أهم صفات الأولياء، وقد ربي الرسول ﷺ أصحابه على هذه الصفة الحميدة منذ بداية رسالته، وكان أول عمل لرسول الله ﷺ بعد الهجرة: المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار بتعليمهم الإيثار على النفس، فكان الأنصاري يشاطر أخاه ماله، حتى أن بعضهم يقول: عندي زوجتان، فانظر أيهما تطيب لكم لأنزل لك عنها، فهي كانت من حسن إيثار أصحابه ﷺ، وكان أصحابه قدوة لكافة البشرية من مشارق الأرض ومغاربها في هذا المجال، حتى أن كانوا مخاطبين لقوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (سورة الحشر، الآية ٩)، فما هو الإيثار على النفس في آراء العلماء؟ وما هي حقيقتها في السنة؟ وما هي علاقتها مع التصوف الإسلامي؟

الإيثار على النفس في آراء العلماء:

قال صاحب التعريفات: "الإيثار أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه وهو النهاية في الأخوة"^{٢٧٨}، وفي المعجم الوسيط: "تفضيل المرء غيره على نفسه"^{٢٧٩}، هذا كما قال به علماء اللغة،

^{٢٧٨} علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، ج ١، ص ٥٩.

وأما المحدثون لديهم تفصيلات كثيرة، كما يقول صاحب تحفة الأحوذى في التحفة: الإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة وذلك ينشأ عن قوة اليقين ووكيد المحبة والصبر على المشقة يقال أثرته بكذا أي خصصته به فضله^{٢٨٠}، وفي هذه النسبة يقول الشيخ التهانوي رحمته الله: "الإيثار هو تفضيل مصلحة الآخرين على مصلحة نفسه"^{٢٨١}، ومن هنا نذكر حديثنا في هذا المضمون الذي أورده الشيخ التهانوي في "الحقيقة" ويليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ٣/٤٨ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الْآيَةَ، «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ بَاتَ بِهِ صَيْفٌ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا قُوَّتُهُ وَقُوَّةُ صَبِيَانِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ نَوْمِي الصَّبِيَّةَ وَأَطْفِئِي السَّرَاجَ وَقَرَّبِي لِلضَّيْفِ مَا عِنْدَكَ فَتَزَلَّتْ الْآيَةُ». (أخرجه الترمذي وصححه)^{٢٨٢}

تخریج الحديث: أخرجه الإمام الترمذي من طريق فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه.^{٢٨٣}

قلت: وأخرجه الإمام مسلم من نفس الطريق^{٢٨٤}، واللفظ لإمام مسلم والترمذي، و كذلك الإمام البخاري في صحيحه نحوه في حديث طويل من نفس الطريق (فضيل بن غزوان)^{٢٨٥}.

^{٢٧٩} أحمد زيات وزملائه، المعجم الوسيط، كلمة البحث "الإيثار"، ج ١، ص ٦.

^{٢٨٠} محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، باب سورة الممتحنة، ج ٩، ص ١٤٠.

^{٢٨١} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ١١٠.

^{٢٨٢} ذكره الشيخ برقمه الخاص ٤٨، نقلا عن لفظ الإمام الترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ١١٠.

^{٢٨٣} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الحشر، رقم ٣٣٠٤، ص ١٩٨٩-١٩٩٠.

^{٢٨٤} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري بن مسلم النيسابوري (ط ١، سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠) صحيح مسلم. مصدر الكتاب: موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة. إشراف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم ١٧٣. ص ١٠٤٥.

الحكم عليه: قلت أخرج الشيخان في الصحيحين، وابن حبان في صحيحه، ورجاله من رجال الشيخين، وقال الترمذي هذا "حديث حسن صحيح" ^{٢٨٦}.

نظرية الترابط بين التصوف والحديث في هذا الحديث:

قال الشيخ التهانوي رحمته الله في إبراز الترابط بين التصوف والحديث خلال شرحه للحديث: "إن الإيثار على النفس وتفضيل مصلحة الآخرين على المصلحة الشخصية، بما نشاهده من أهم صفات هذا القوم، فهو ثابت بهذا الحديث، وحياة الرسول ﷺ وأصحابه مليه بهذه الأمثال كثيرا، وهذا الحديث خير شاهد عليه، حيث أن الصحابي من الأنصار لما بات به ضيف وما كان لديه إلا قوته وقوت صبيانه، فاحتال هو وامرأته حتى نوما صبيانهما، وقام إلى السراج كأنه يصلحه فأطفأه، ثم جلس مع الضيف يريه أنه يأكل معه ولم يأكل، فلما غدا على رسول الله قال له: عجب الله من صنعكما الليلة. ونزلت الآية ^{٢٨٧}.

وكثير من السلف والخلف ومن أهل السلوك والإحسان كانوا متصفين بهذه الصفة، والإيثار كان من زينة حياتهم، يؤثرون بفطورهم وهم صائمين ويصبحون صائمين، منهم: عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وداود الطائي، وعبد العزيز بن سليمان، ومالك بن دينار، وأحمد بن حنبل وغيرهم. وكان ابن عمر لا يفطر إلا مع اليتامى والمساكين، وربما علم أن أهله قد ردهم عنه فلم يفطر في تلك الليلة. ومنهم من كان لا يأكل إلا مع ضيف له، قال أبو السوار العدوي: كان رجال من بني عدي يصلون في هذا المسجد، ما أفطر أحد منهم على طعام قط وحده، إن وجد من يأكل معه أكل، وإلا أخرج طعامه إلى المسجد فأكله مع الناس، وأكل الناس معه ^{٢٨٨}، وهذا ما كان في الطعام فقط بل كان في مختلف شؤون الحياة.

^{٢٨٥} راجع: أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾، رقم ٣٧٩٨، وكتاب التفسير، باب قوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾، رقم ٤٨٨٩. ص ٣٠٨ و ٤١٨.

^{٢٨٦} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث ٣٣٠٤، ص ١٩٩٠.

^{٢٨٧} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ١١٠.

^{٢٨٨} ابن رجب الحنبلي، اختيار الأولى في شرح حديث اختصاص المأ الأعلى، باب إطعام الطعام، ج ١، ص ١٠.

فهذه الصفة من أهم تعليمات الصوفية اقتبست من حياة الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، فهذا الحديث خير دال على هذه الحقيقة، وهكذا ترتبط أنشطة حياة الصوفية مع صفة الرسول وأصحابه ﷺ.

الإيثار بين المدح والذم:

قلت: إن الإيثار على النفس شيء ممدوح ومطلوب في الإسلام مع تطبيق أحكام الشريعة واتباع قوانينه من غير مخالفتها، فهو مرغوب في الإسلام من دون تجاوز حد الشريعة، ولكن كثيرا ما نرى في هذا السبيل من الغلو بما يحصل من بعض العوام من غير علم ولا دليل، حيث يبذل بعضهم كل ما في يده من غير فكر ما هو الواجب عليه من المسؤولية لنفسه ولأهله، ولا يلتفت إلى حق أهله وعياله، ثم في شدة الحاجة يستل الناس إلهافا، فهكذا الإيثار ليس مرجو في الإسلام لأن ديننا الإسلام يدعونا إلى الاعتدال والوسطية في كل ناحية من الحياة، ولا مجال فيه الغلو والفساد، وفي هذه النسبة يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي (شرح على صحيح المسلم) شارحا على اللفظ (فقال لإمراته هل عندك شيء قالت لا إلا قوت صبيان قال فعليهم بشيء) "هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجبا ويجب تقديمه على الضيافة وقد أثنى الله ورسوله ﷺ على هذا الرجل وامرأته فدل على أنهما لم يتركا واجبا بل أحسنا وأجملا ﷺ وأما هو وامرأته فأثرا على أنفسهما برضاهما مع حاجتهما وخصاصتهما فمدحهما الله تعالى وأنزل فيهما ويؤثرون على أنفسهم" ٢٨٩.

ومن هنا عرفنا أن الإيثار له حد ولا يجوز التجاوز عن هذا الحد، فيقول الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : ١٤٢١هـ): والإيثار أفضل ولكن ليعلم أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: ممنوع والثاني: مكروه أو مباح، والثالث: مباح .

^{٢٨٩} أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (ط ٢، ١٣٩٢هـ) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت: دار

إحياء التراث العربي، باب إكرام الصيف وفضل إيثاره، رقم ٢٠٥٤، ج ١٤، ص ١٢.

القسم الأول: وهو الممنوع: وهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعا فإنه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعا. فالإيثار في الواجبات الشرعية حرام، ولا يحل لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك .

القسم الثاني: وهو المكروه أو المباح: فهو الإيثار في الأمور المستحبة وقد كرهه بعض أهل العلم وأباحه بعضهم لكن تركه أولى لا شك إلا لمصلحة، ومثاله: أن تؤثر غيرك في الصف الأول الذي أنت فيه، مثل أن تكون أنت في الصف الأول في الصلاة فيدخل إنسان فتقوم عن مكانك وتؤثر به، فقد كره أهل العلم هذا وقالوا: إن هذا دليل على أن الإنسان يرغب عن الخير، والرغبة عن الخير مكروهة، .

القسم الثالث وهو المباح: وهذا المباح قد يكون مستحبا وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبدية أي تؤثر غيرك وتقدمه على نفسك في أمر غير تعبدية^{٢٩٠}. ومثاله: أن يكون معك طعام وأنت جائع وصاحب لك جائع مثلك، ففي هذه الحال إذا آثرت فإنك محمود على هذا الإيثار.

فالحاصل مما سبق: أن الإيثار على النفس هو بذل المال والعرض لمنافع الغير عند حاجته مقدما غيره على نفسه، وتقديم الغير على النفس مع الحاجة والخصاصة، والإيثار ينشأ عن شدة الحب والصبر على المشقة، ولكن الإيثار المطلوب في ديننا هو الإيثار لوجه الله مع الاعتدال من غير إفراط وتفريط، وكانت حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين خير دال على هذا، الذين كانوا قدوة لنا في هذا السبيل.

^{٢٩٠} محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين، ج ١، ص ٥٨٧.

المطلب الثاني

"الأحوال" ونظرية الترابط في هذا الجانب

الأحوال:

إنَّ "الأحوال" اصطلاح خاص لهذا القوم، يعتبرها في هذا الفن كالثمرات الغير الاختيارية العرضية، التي تعتري على أهل السلوك من دون اختيارهم، وهي من أهم المتعلقات واللوازم للأخلاق والمقامات، التي تنتج من نشاطهم الإصلاحية القلبية والباطنية بسبب مداومتهم واستقامتهم على هذا السلوك، وهذه الأحوال أحيانا تكون إيجابية^{٢٩١}، وأحيانا تكون سلبية^{٢٩٢}، فالسلبية بظواهرها يرى أن صاحبها خرج من حدود الشريعة أو ارتكب بالذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة، ولكن حقيقة الأمر ليس كذلك، لأن الشارع يُسامح عن هذه الحالة، كما ثبت بأحاديث كثيرة خلال الكتاب: "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، ولكن أهل السلوك لا يتغي إلى الحصول إليها إلا أنها تتوارد بنفسها من دون اختيارهم بها، كما يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي تعريفه: " والمعروف لدينا أن لكل المقصد والهدف بعض المتعلقات واللوازم فمن بعضها الثمرات الغير الاختيارية التي تسمى بـ(الأحوال)^{٢٩٣}".

الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

قد ورد في هذا الموضوع حوالي إثنين وأربعين حديثاً الذي ينتشر في أطراف "الحقيقة" بمختلف الأرقام، وخلال هذه الأحاديث قد أمكن الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يُؤَيِدَ هَذَا الْمَوْضُوعَ مَعَ جُزْئِيَّاتِهِ الْكَثِيرَةِ، وَيَسْنِدُ نِسْبَةَ قُوَّةِ بَيْنَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ السَّلُوكِيَّةِ وَالسَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَاَلْمَسَائِلُ الَّتِي أَخْرَجَهَا الشَّيْخُ التَّهَانَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ هِيَ بَعْضُ الْكَيْفِيَّاتِ أَوَالْحَالَاتِ لِلْسَّالِكِينَ الَّتِي تَرِدُ عَلَيْهِمْ، مِثْلَ الْمَشَاهِدَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالْعُلُومِ الْقَلْبِيَّةِ الْوَهْبِيَّةِ اللَّدْنِيَّةِ، وَبَعْضُ الْكَيْفِيَّاتِ الْقَلْبِيَّةِ الْغَرِيبَةِ، وَالْكَرَامَاتِ الَّتِي تَصْدُرُ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأُمُورِ الْغَرِيبَةِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، كَذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمُ الْقَبْضَ وَالْبَسْطَ وَالْوَجْدَ وَ الْهَيْبَةَ وَالْخَوْفَ، وَ أَيْضاً السُّكْرَ، أَيْ زَوَالِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرِيَّةِ بِسَبَبِ غَلْبَتِهِمُ الْأُمُورَ الْغَيْبِيَّةِ، وَفِرَاسَتِهِمْ

^{٢٩١} من حيث موافقتها مع الشريعة ظاهرة وباطنة.

^{٢٩٢} حيث تظهر مخالفتها مع الشرع ظاهرة ولكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك، بل أنها توافق الشرع تماماً.

^{٢٩٣} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

أي مكاشفتهم القلبية والباطنية يقف بها السالك على أحوال الناس الباطنية، وغيرها كثيرة، ويليك التفصيل عن بعضها.

(١) من الأحوال السلبية "حال السكر"

السكر عند المتصوفين: السكر هو من أحوال المتصوفين تعترى عليهم من دون اختيارهم، فالسكر في اصطلاح المتصوفين: وهو عبارة عن غياب التميز بين أحكام الوارد الغيبي الظاهرة والباطنة، وضده صحو وهو عود ذلك التمييز إليه^{٢٩٤}.

أقوال المحدثين في معنى السكر ومفهومه:

وفي تحديد معنى السكر نرجع إلى بعض أقوال المحدثين، ثم نحدد معناه المطلوب في هذا السبيل، فقال العلامة المناوي: "السكر حالة تعرض بين المرء وعقله وأكثر ما يستعمل في الشراب المسكر وقد يعترى من الغضب والعشق، أو غفلة تعرض لغلبة السرور على النفس بمباشرة ما يوجبها"^{٢٩٥} وقال الجرجاني: "السكر عند أهل الحق هو غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والالتذاد وهو أقوى من الغيبة وأتم منها"^{٢٩٦}، وقال الكلاباذي في -التعرف لمذهب أهل التصوف-: "هو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء وهو أن لا يميز بين مرافقة وملاذه وبين اضدادها في مرافقة الحق فإن غلبت وجود تسقطه عن المميز بين ما يؤلمه ويلذه، كما روي في بعض الروايات في حديث حارثة أنه قال استوى عندي حجرها ومدرها وزهبها وفضتها، وقال عبد الله بن مسعود ما أبالي على أي الحالين وقعت على غنى أو فقر إن كان فقرا فإن فيه الصبر وإن كان غنى فإن فيه الشكر، ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضده وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر والشكر"^{٢٩٧}، فالحاصل والمفهوم من أقوال العلماء في معنى السكر: هو الحال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ولا مراعاة

^{٢٩٤} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٩٥.

^{٢٩٥} الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ط ١، ١٤١٠هـ) "التوقيف على مهمات التعاريف" تحقيق: محمد رضوان

الداية، بيروت: دار الفكر المعاصر، ص ٤٠٩-٤١٠.

^{٢٩٦} علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، ص ١٥٩.

^{٢٩٧} محمد أبو بكر الكلاباذي (د. ط. ١٤٠٠هـ) التعرف لمذهب أهل التصوف. بيروت: دار الكتب العلمية، ص ١١٦.

الأدب والصحو هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه. ومن هنا ورد أحاديث في "الحقيقة" وإنشاء الله سوف نقدم بعضها نموذجاً في توضيح هذا الأمر.

الحديث الشريف: ٤/٣٤ : عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا تُؤْفِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا خَيْرِنِي اللَّهُ. (أخرجه الخمسة إلا أبا داود) ^{٢٩٨}.

تخريج الحديث: أخرجه الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما والنسائي ابن ماجه في سننهما من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، ^{٢٩٩}.

قلت: وله شاهد أخرجه الإمام الترمذي في حديث طويل، عن طريق عبد بن حميد عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن محمد بن إسحق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن

^{٢٩٨} ذكره الشيخ برقمه الخاص ٣٤ نقلاً عن الأئمة الخمسة دون أبي داود. أنظر: أشرف علي التهانوي، *حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة*، ص ٩٤.

^{٢٩٩} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ رقم ٤٦٧٠، وباب قوله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ رقم ٤٦٧٢، وكتاب اللباس، باب لبس القميص ومسلم، رقم ٥٧٩٦، ص ٣٨٦-٣٨٧، و ٤٩٤-٤٩٥. وأبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، *صحيح مسلم*، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم ٢٥ - (٢٤٠٠)، وكتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم ٣ - (٢٧٧٢)، ص ١١٠٠، و ١١٦٢.

والنسائي، أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، *سنن النسائي*، كتاب الجنائز، باب القميص في الكفن، برقم ١٩٠١، ص ٢٢١٢.

وابن ماجه، أبا عبد الله محمد بن يزيد القزويني، *سنن ابن ماجه*، كتاب ما جاء في الجنائز، باب في الصلاة على أهل القبلة، رقم ١٥٢٣، ص ٢٥٦٨.

عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم يحكم عليه بالصحة، بقوله: " هذا حديث حسن صحيح غريب " ^{٣٠٠}.

توجهات المحدثين فيما صدر عن عمر: إن الفعل الذي صدر عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل بظاهره مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حرام على جميع المسلمين، وشتان كشخصية عمر أن يصدر عنه كأمثال هذه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي هذه النسبة توجد توجهات العلماء كثيرة، فأحسن ما قاله الإمام الطحاوي رحمته الله في "مشكل الآثار" بعد أن نقل قول أبي جعفر في التطبيق بين حديث ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، فقال: "قال أبو جعفر: ففي حديث ابن عمر هذا قول عمر لرسول الله عليه السلام أتصلي عليه وقد هناك الله أن تصلي على المنافقين؟ في حديث يحيى بن سعيد، وفي حديث أبي أسامة وقد هناك الله أن تصلي عليه، وليس ذلك في حديث ابن عباس الذي روينا، ومكان ذلك في حديث ابن عباس أتصلي عليه وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا، والذي في حديث ابن عباس من هذا أولى عندنا مما في حديث ابن عمر، لأن محالا أن يكون الله تعالى ينهى نبيه عن شيء ثم يفعل ذلك الشيء، ولا نرى هذا إلا وهما من بعض رواة هذا الحديث والله أعلم، انتهى. قلت: (أي الإمام الطحاوي) ظن عمر أن في قوله: - استغفر لهم - الآية، نهيا عن الصلاة عليهم، فأعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك ليس بنهي ولم يكن قوله تعالى: - ولا تصل على أحد منهم - نزل بعد، وهذا بين في الخبر، ومما يؤكد هذا وأن الأمر على خلاف ما ظنه أبو جعفر ^{٣٠١}، ما رواه يعقوب بن شيبه عن سنيد بن داود عن حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن علي بن الحسين (فقال لما توفي عبد الله إلى أن قال: فقال عمر أتصلي على هذا وقد نهى الله عنه قال وأين النهي يا ابن الخطاب فقرأ عليه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ^{٣٠٢} قال وأين النهي ترى نهيا ^{٣٠٣}.

^{٣٠٠} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة التوبة، رقم ١٢ - (٣٠٩٧)، ص ١٩٦٤.

^{٣٠١} أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ط ١، ١٤٠٨هـ، / ١٩٨٧م) شرح مشكل الآثار. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، باب بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام، ج ١، ص ٤٥.

^{٣٠٢} التوبة: ٨٠.

^{٣٠٣} أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، شرح مشكل الآثار، ج ١، ص ٤٥، و ٧٤.

نظرية الترابط في هذا الموضوع: قال الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي هذه النسبة "إن غياب التميز وزواله للعارف بين أحكام الظاهرة والباطنة عند مواجهة الظروف هو يسمى السكر في هذا الفن، وضده الصحو هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه، كما يظهر لدينا في هذه الحالة خلال هذا الحديث. وذلك لما كان عمر ابن الخطاب قد شغف في قلبه الحب في الله والبغض في الله واشتدت هذه الحالة حيث أنه لم تسمح له مراعاة حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، فلم يشعر ماذا يصدر منه كمخالفته معه ﷺ قولاً وفعلاً، الذي كان مستبعداً عن حسن المعاشرة مع الرسول، وفي هذه الحالة كان الشارع عليه السلام سكت عنه معذوراً له، ولكن لما رجع عمر إلى حالته الصحو (ورد في الحديث) بأنه تعجب على جرأته نفسه وندم على ما صدر منه مع رسول الله ﷺ^{٣٠٤}.

الحاصل مما سبق، أن حال السكر الذي يرد على العارف مع أنها مخالفة الشريعة بالظاهر، ولكنها مسموحة في الواقع، كما ثبت بهذا الحديث، بأن النبي ﷺ لم يذم عمر بن الخطاب على ما صدر منه ﷺ.

قلت: إن الأمر الذي صدر عن عمر ﷺ هو أمر نتج عن الحب في الله والبغض في الله، فهو شيء مقبول ولا مذموم، لأن هكذا العمل من عمر مع الرسول ﷺ لم يحدث مرة أو مرتين بل حدث مرارا، فأحيانا وافقته الشريعة وأحيانا لم توافقه، كما وافقته في هذه النسبة بإنزال الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية - ٨٤) حيث وافقه الله تعالى بمنع الرسول ﷺ عن الصلاة على المنافقين أي واحد منهم، ولم توافقه فيما حدث الخلاف مع الرسول ﷺ في الموقف الحديبية، حيث يسر الرسول ﷺ على القتال^{٣٠٥} ولكن الرسول كان على ما أراد الله منه وهو الاستسلام بقبول دعوى الكفار من أهل مكة. والله أعلم بالصواب.

^{٣٠٤} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٩٥ .

^{٣٠٥} إذ يقول لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل فقال بلى فقال أليس قتالنا في الجنة وقتلناهم

في النار قال بلى قال فعلم نعطي الدنيا في ديننا أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم" راجع: أبا عبد الله محمد بن إسماعيل

البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٣١٨٢. ص ٥٨٦.

(٢) ومن الأحوال الرفيعة "التلذذ في قراءة القرآن" ونموذجه في السنة

كما سبق أن أحوال العارفين تتصف إيجابيةً وسلبيةً بالظاهر، فالسلبية تحتاج إلى التفصيلات والتأويلات في إبراز الترابط والعلاقة، ولكن الأحوال الإيجابية غنية عنها، لأنها محمودة شرعاً وعقلاً، وعلاقتها ظاهرة مع السنة من غير احتياج إلى التفصيلات العلمية، رغم ذلك أن الشيخ التهانوي رحمته الله أتا بعدد من الأحاديث في "الحقيقة" نموذجاً، فمنها حديث يذكره عن أحوال العارفين من الصحابة، وتلذذهم في تلاوة القراءة في الصلاة.

الحديث الشريف: ٥/١٤٠ عَنْ جَابِرٍ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ: "فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشَّعْبِ اضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي وَأَتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَهُ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيبَةٌ لِلْقَوْمِ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ حَتَّى رَمَاهُ بِثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ ثُمَّ انْتَبَهَ صَاحِبُهُ فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ هَرَبَ وَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدَّمِ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ أَلَا أُبْهَتِي أَوَّلَ مَا رَمَى قَالَ كُنْتَ فِي سُورَةٍ أَقْرُوها فَلَمْ أَحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا". (أخرجه أبو داود) ^{٣٠٦}.

تخريج الحديث: أخرجه أبو داود في سننه، من طريق ابن المبارك عن محمد بن إسحق عن صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن جابر رضي الله عنه ^{٣٠٧}، وإمام أحمد في مسنده من نفس الطريق (عن ابن المبارك) ^{٣٠٨}، والحاكم في المستدرک، من نفس الطريق ^{٣٠٩}.

و أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج ٥، ص ٣٤٦.

^{٣٠٦} ذكره الشيخ برقمه الخاص ١٤٠ نقلاً عن أبي داود بالاختصار الشديد اكتفاءً على موضع الاستشهاد فقط. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٩١.

^{٣٠٧} راجع: أبا داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ط ١، سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠) سنن أبي داود. مصدر الكتاب: موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة. إشراف: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، كتاب الطهارة، باب الوضوء من الدَّم، رقم ١٩٨، ص ١٢٣٦.

^{٣٠٨} راجع: أحمد ابن حنبل الشيباني (ط ٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) مسند أحمد. بيروت: مؤسسة الرسالة، مسند جابر ابن عبد الله، رقم ١٤٧٤٥، ج ٢٣، ص ٥٢.

^{٣٠٩} راجع: أبا عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، كتاب الطهارة، رقم ٥٥٧، ج ١، ص ٢٥٨.

الحكم عليه: الحديث صحيح، ورجاله من الثقات، كما قال الحاكم: " هذا حديث صحيح الإسناد فقد احتج مسلم بأحاديث محمد بن إسحاق فأما عقيل بن جابر بن عبد الله الأنصاري فإنه أحسن حالا من أخويه محمد و عبد الرحمن " ٣١٠ ووافقته الذهبي ٣١١

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: هذا الحديث ذكره الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بِاللَّهِ باختصار اكتفاءً بالموضع الاستشهاد فقط، وإنما هذا الحديث طويل يحكي عن غزوة ذات الرقاع، وفي تلك الغزوة أصاب رجلٌ من المسلمين امرأةً رجل من الكفار، يعني: أنه قتلها، ولعل هذه المرأة قتلت خطأً أو أنها كانت معينة لقومها فقتلت، فزوجها حلف ألا ينتهي حتى يهريق دمًا من أصحاب رسول الله ﷺ فخرج يتبع أثر الرسول وأصحابه ﷺ، وكان المسلمون نزلوا في مكان قال النبي ﷺ: "من يكلؤنا؟" يعني: من يرقبنا ويحرسنا، فانتدب لذلك رجالان: أنصاري ومهاجري يعني: استعدا لهذه المهمة، وقاما بها. فالنبي ﷺ قال لهما: "كونا بقم الشعب" يعني: أن المكان الذي يكونان فيه هو قم الشعب، والشعب: هو الطريق بين جبلين، يعني: الفج بين الجبلين، وهو الذي يمكن أن يوصل منه الإنسان إلى ما يريد لسهولة الطريق، فكانا على هذه المهمة، فاضطجع المهاجري وقام الأنصاري يصلي، فجاء ذلك الرجل ولما رأى ذلك الشخص الواقف علم أنه ربيثة للرسول ﷺ وأصحابه، يعني: أنه جعل للحراسة ولتنبيههم إذا حصل أمر يخشى منه، فلما علم أنه ربيثة رماه بسهم فأصاب ذلك الذي يصلي، فنزع ذلك الأنصاري السهم، واستمر في صلاته، حتى رماه بثانٍ وثالث، وبعد ذلك انتبه المهاجري، وقال له: ألا نبهتني من أول مرة، فقال: كنت أقرأ في سورة فكرهت أن أقطعها، يعني: لم يجب أن يقطعها، بل أحب أن يواصل قراءتها حتى يكملها، وحصل ما حصل. فلما علم الكافر الذي لحق بهم، والذي رمى هذا الأنصاري الذي يصلي أنهم علموا به هرب حتى لا يدركوه ٣١٢.

٣١٠ أبا عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، کتاب الطهارة، رقم ٥٥٧، ج ١، ص

٢٥٨.

٣١١ أنظر: المصدر السابق، رقم ٥٥٧، ج ١، ص ٢٥٨.

٣١٢ أنظر: عبد المحسن العباد، شرح سنن أبي داود، ج ٢، ص ١٠٦.

فمحل الشاهد من إيراد القصة: أن هذا الأنصاري كان يصلي واستمر في صلاته حتى نزع السهم الأول ثم الثاني ثم الثالث إلى أن فرغ من صلاته. ولامه ذلك المهاجري الذي كان معه، وقال: ألا نبهتني لما رمى بأول سهم؟ فأخبره بأنه كان مشتغلاً بقراءة سورة، فلم يجب أن يقطع صلاته حتى يكمل السورة التي كان مشتغلاً بقراءتها رضي الله تعالى عنه، فهذا هو موضع استشهادنا بأنه رضي الله تعالى كان في حال شديد اللذة بتلاوة القرآن، حيث لم يجب أن يقطع قرآته رغم أنه كان في خطر كبير بين الحياة والموت. وهذا هو شأن العارفين وحالمهم المحمود.

نظرية الترابط من هذا الحديث: إن التلذذ بتلاوة القرآن والصلاة والطاعة من أحوال العارفين الرفيعة الحميدة، ويجعل أهل السلوك حضور القلب والخشوع في الصلاة وفي العبادة واجبا^{٣١٣}. فهذا الحديث دليل على أن التلذذ في العبادة شئ مهم لقبول العبادة، حيث أن هذا الصحابي الجليل ما كان يجب أن يقطع تلاوة القرآن قبل أن يكمل السورة، فهذه الحالة يعتبرها كحالة رفيعة في هذا الفن التي توافق مع الشريعة ظاهرة وباطنة خلافا للحالة الدنية، كمثال حالة السكر تخالف الشريعة بالظاهر رغم أنها توافق الشريعة في الواقع، كما سبق التفصيل عن هذا من قبل آنفاً.

قلت: إن شريعتنا الإسلامية تجمع بين منهجي الروح والمادة إشباعاً لحقيقة الإنسان لتكوينه من الروح والجسد من غير تجاوز الحد في أحد الجانبين منهما، فأصبحت علاقة قوية بين الروح والمادة في جميع عبادتها و لذلك نرى أن لكل عبادة في الإسلام لها جانبين الروحي والمادي، ومن أمهل أحد الجانبين منهما فعبادته ناقصة، لأن الإسلام يطلب من المسلم الالتزام بالقيم الروحية والمادية معا، وذلك لأنه مركب بثلاثة أمور الإيمان، الإسلام والإحسان، ومن يعنى النظر في هذه الثلاثة يجد أن هذا الدين يدور بين الروح والمادة. فالصلاة كذلك له جانبين الروحي والمادي أي الباطني والظاهري، فمن أدى صلاته مراعيًا أحكامها الظاهرية من دون التفاته إلى جانبها الباطني مثل

^{٣١٣} لأن فكرة الصوفية مبنية على كثرة الاعتناء في جانب الروحي والقلبي، بناءً على قوله ﷺ في شرح "الإحسان" الذي ورد ذكره في حديث جبريل: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..... الآخر"، يدل على الاهتمام البالغ على الجانب الروحي والقلبي من غير خفاء. فمنذ أن نشأت هذه الجماعة تعتنى على تزكية النفس وتنقيح القلب عن خبائث النفسية، فهي وضيفتهم المعروفة لدى الجميع، وهم يبذلون جهودهم في هذا المجال خاصة، فعندهم حضور القلب والخشوع في الصلاة وفي العبادة أهم الشروط لصحة العبادة. فلا نميل إلى التفصيلات الزائدة في هذا السبيل. والله أعلم.

حضور القلب والخشوع في الصلاة والتلذذ في القراءة فيها، فصلاته غير تامة رغم أنه يبرأ الذمة شرعاً، ولكن الأجر والثواب في الصلاة يتوقفان على جانبها الروحي، وكلما كان خضوع الرجل وخشوعه وحضوره القلبي في الصلاة أقوى، كان ثوابه أكثر وأتم، ودرجاته أرفع وأعلى.

فالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا أولى الناس مراعاة في عباداتهم على هذين الجانبين، الذين بلغوا قمة الإخلاص في جميع عباداتهم بلا نزاع، وهم أجمع الناس بين أصول ثلاثة بكاملها أي الإيمان والإسلام والإحسان، واتبعهم العارفون قدر استطاعتهم حتى بعضهم وصلوا غايتهم المنشودة، ففازوا في الدارين.

هذا هو وسطية المنهج في الإسلام ومن تبعه بالاعتدال فهم من الفرقة الناجية في الإسلام وهم يتبعون القرآن والسنة حقاً، ولكن بعضاً من المتصوفين يميلون إلى الجانب الروحي والباطني كل الميل وينكر على الجانب المادي في الإسلام أي يرغبون عن صورته الظاهرية كل الإنكار، حتى بعض منهم يخالفون على بعض الأحكام الشرعية صراحة، ويدعون بأنهم من المتصوفين ومن أهل المعارف يزهدون نفسياً إعراضاً عن جميع ملذات الدنيا ولا يلتفتون إلى الأحكام الشرعية الظاهرية كمثال الصلاة الصوم والزكاة والحج، حتى بعضهم يدعون أنهم يصلون روحياً ولا جسمياً، والصلاة الحقيقية هي الصلاة التي تؤدَّى بالروح والتي تكون في المراقبة ولو لم يستخدم جسمه، فأمثال هذا التصوف لا علاقة له مع الإسلام بل هذه المذاهب تصل نسبتها إلى الرهبانية من الديانات الأخرى بما خالفها الإسلام، وأعلن بأنه لا رهبانية في الإسلام، ولعل هذا سبب لزعم بعض المسلمين أن التصوف لا أصل له في الإسلام بل هو شئ مستورد في الإسلام، وهذا الزعم كذلك باطل كما ثبت فيما سبق.

هذا كما كان الفساد للمتصوفين في الإسلام^{٣١٤}، وأما بعض الفرق الإسلامية الذين اتخذوا الجانب المادي في الإسلام وظيفتهم فقط، ويظنون أن الإسلام هو عبارة عن الفكرة المادية البحتة، وهم بعض الأحزاب السياسية في الإسلام، ويدعون بأن الإسلام لا يتم ولا يكمل إلا بالحصول على الحكومة أو الترقية في الأمور المادية في الحياة، ونشاطهم يدور حول هذه الغاية مع الإهمال في كثير من المفاد الشرعي، ولا يلتفتون إلى أسرار الشريعة وحكمتها، وقليلاً ما نسمع من كلامهم عن

^{٣١٤} كما سبق ذكرهم في حاشية ٢٤٦، ص ١٢٧.

الأمر الغيبية من الإيمان والإحسان فلذلك تفرغ تصنيفاتهم وخطبهم عن مذاكرة الجانب الروحي من حياة الرسول والصحابة والأولياء، وأحيانا ينكرون عن الأمور الخارقة من كرامات الأولياء حتى معجزات الرسل أحيانا، وبعض منهم ينكرون الجن والملائكة وما إلى ذلك^{٣١٥}. وسبقنا التفصيل قليلا على هذه الفكرة وبطلانها خلال المبحث "دوره التجديدية في العقيدة الإسلامية في الهند" ولذلك لا نعود إلى التفصيل مرة ثانية.

فالإسلام يجمع بين منهجي الروح والمادة، خلافاً لليهود حيث غلبوا جانب المادة واحتالوا على ما حرم الله في استباحة الصيد وجمع الشحوم وأكلها، وشغلوا عن غذاء الروح، فكانوا على جانب واحد، والنصارى بالعكس، كما قال تعالى عنهم: { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا } [الحديد: ٢٧]، فاليهود أخفقوا لترجيح جانب المادة، والنصارى أخفقوا لترجيح جانب الروح، والإسلام جاء وسطاً جامعاً بين الأمرين، فكان الدين الوسط، وكان الجامع لما يقيم أمر الإنسان، فاستقام الإنسان على هذا الدين، وكان أتباع الدين خير أمة أخرجت للناس.

(٣) "الكشف" ونموذجها في السنة النبوية

الكشف عند الصوفية:

من المعلوم، أن الكشف هو من أحوال المتصوفين الرفيعة التي تعترى عليهم من دون اختيارهم^{٣١٦}، لأنه لا يعتبره كسبياً وإنما هو لدنِّي، الذي يعطى من لدن حكيم عليم، فالكشف في مفهوم المتصوفين: وهو عبارة عن انكشاف عالم الغيب لدي العارف والمتقين^{٣١٧}، مثل الكشف عن حقيقة القبور من نعيمها وعذابها، ورفع الحجاب عن نظره حتى تظهر أمام نظره الملائكة أو اللجنة والنار أو غيرها من الأمور الغيبية.

^{٣١٥} وللزيد من المعلومات راجع: محمد تقي العثماني (ط ١، ٢٠٠٦م) الشيخ التهانوي وإصلاحه السياسي. التحويل إلى

اللغة البنجالية: محمد زين العابدين، داكا: مكتبة الأختار، ص ١١-٢٠.

^{٣١٦} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٢٠٦.

^{٣١٧} أنظر: المصدر السابق، ص ٦٦ و ٢٠٦.

فيقول الشيخ أحمد المعلم نقلاً عن الجرجاني: "الكشف في اللغة: رفع الحجاب، وفي الاصطلاح: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً"^{٣١٨} ويقول مصطفى بن محيي الدين بنجار: "والكشف لغة رفع الحجاب، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الخفية وجوداً وشهوداً، وليس هو كما يُكشَفُ الغطاء عن الآنية والستر عن الباب، بل هو أمر إذا ظهر يرى العبد أن ذلك لم يكن مستتراً بشيء، وإنما الإدراك كان قاصراً عن الوصول، فقواه الحق تعالى، فأدرك ما كان ظاهراً"^{٣١٩}.

تحقيق المحدثين عن الكشف:

قد ثبت من أقوال المحدثين أن الكشف من كرامات الأولياء ويحصل للمتقين والذاكرين والخاصين لله ومن يسابقون في الخيرات، فيقول الشيخ المناوي في كتابه "فيض القدير" نقلاً عن ابن أبي الدنيا: "إن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بقاء الله تعالى"^{٣٢٠}.

ثم قال نقلاً عن ابن عربي: "وإذا أشعر الإنسان قلبه ذكر الله دائماً في كل حال لا بد أن يستتير قلبه بنور الذكر فيرزقه ذلك النور الكشف فإنه بالنور يقع الكشف"^{٣٢١}.

ومن هنا يقول الشيخ التهانوي في تعريف الكشف: "إن الكشف هو عبارة عن إنكشاف أحوال عالم الغيب للعارف بشرط أن يكون صاحب الكشف متمسكاً بالشرعية"^{٣٢٢}.

قلت: هذا كما عرفنا من تفصيلات المتصوفين و المحدثين أن الكشف معترف لديهم من حيث أنه من كرامات الأولياء، ولكنه ليس معياراً للولاية، فلا يحتاج أن صاحب الكشف من أولياء الله،

^{٣١٨} الشيخ أحمد المعلم (ط ١، ١٤١٢هـ) زيارة قبر هود عليه السلام وما فيها من ضلالات ومنكرات. الرياض: مكتبة

المعارف، ج ١، ص ١٨.

^{٣١٩} مصطفى اليرشطي البيروتي (ط ١، ١٤١٨هـ) كشف الأسرار لتنوير الأفكار. بيروت: مطبعة جريدة، ص ١٢٥.

^{٣٢٠} الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م) فيض القدير شرح الجامع الصغير. بيروت:

دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٦٣٢.

^{٣٢١} الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٣، ص ٧٦٣.

^{٣٢٢} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٢٠٦.

الذي بريء من الخطأ والعصيان، وإنما المعيار للولاية هو اتباع سنة نبينا ﷺ مع الاستقامة على الدين الحنيف، ذلك لأن الكُشْفَ والتَّصَرُّفَ إن لم يكن موافقا بالشريعة فكان من متاع الحَيَاةِ الدُّنْيَا. وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب^{٣٢٣}، وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة، وأولئك أصحاب النار. والله أعلم بالصواب.

ومن هنا نذكر حديثا الذي جاء به الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي توضيح الكشف، وتفصيلها ويليكَ الحديث مع الاستفادة من تفاصيل العلماء في هذا السبيل.

الحديث الشريف : ٦/١٥٧ : عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "رَأَيْتُ عَلَى يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى شِمَالِهِ يَوْمَ أَحُدٍ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضٌ، يُقَاتِلَانِ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ، يَعْنِي جَبْرَيْلَ وَمِيكَائِيلَ" (أخرجه الشيخان)

تخريج الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه، من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده عن سعد بن أبي وقاص رَحِمَهُ اللهُ، ومسلم في صحيحه أيضاً من الطريق (إبراهيم بن سعد عن أبيه)^{٣٢٤}.

رؤية الملائكة في الدنيا ورأي المحدثين فيها: ذكره الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي "الحقيقة" مستدلا على موضوع الكشف فقال: " هذا الحديث يصرح على ظهور جبريل وميكائيل في نظر سعد بن أبي وقاص، الذي يُثَبِت وقوع الكشف من المقربين والأخيار، فهذا الحديث يُعْتَبَره دليلا في دعوى المتصوفين بأن الكشف والإلهام من كرامات الأولياء، كما هو ظاهر بهذا الحديث خلال حكاية سعد ابن وقاص رضي الله عنه^{٣٢٥}.

^{٣٢٣} وهكذا يراه الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ الكشف والكرامات. أنظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي،

ص ٢٦٥-٢٦٦.

^{٣٢٤} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا..﴾،

رقم ٤٠٥٤، ص ٣٣٢.

وأبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل عن

النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، رقم ٤٦- (٢٣٠٦)، و برقم ٤٧ - (....)، ص ١٠٨٥.

^{٣٢٥} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ٢٠٧.

هذا كما قاله الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه إثباتاً من مسائل التصوف، وكذلك المحدثون أثبت هذا الأمر، حيث يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرح هذا لحديث: " وإن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء بل يراهم الصحابة والأولياء، وفيه منقبة لسعد بن أبي وقاص الذي رأى الملائكة والله أعلم"^{٣٢٦}، وكذلك نرى أن الإمام مسلم يضعه في باب " إكرامه رَحِمَهُ اللهُ بِقتال الملائكة معه رَحِمَهُ اللهُ"^{٣٢٧}.

نظرية الترابط في هذا الحديث:

جدير بالذكر أن جمهور المحدثين وعلماء المحققين متفقون على صحة الكشف والإلهام وكرامات الأولياء، فأقوال الصحابة والتابعين خير دال على هذه الحقيقة، فلا يمكن أن ينكرها، وجاء في حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه " عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ"^{٣٢٨}. قال ابن وهب تفسير مُحَدَّثُونَ ملهمون^{٣٢٩}.

وكذلك يقول إمام ابن تيمية تثبيتاً لحقيقة الكشف في (جامع الرسائل): " كثير من أهل الكشف يلقي في قلبه أن هذا الطعام حرام أو أن هذا الرجل كافر أو فاسق من غير دليل ظاهر وبالعكس قد يلقي في قلبه محبة شخص وأنه ولي لله أو أن هذا المال حلال"^{٣٣٠}. وأيضاً يقول رَحِمَهُ اللهُ: " وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطنها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال

^{٣٢٦} أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (ط ٢، ١٣٩٢ هـ) شرح النووي على صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء

التراث العربي، باب إكرامه صلى الله عليه وسلم، ج ١٥، ص ٦٦.

^{٣٢٧} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحت "كتاب الفضائل"، ص ١٠٨٥.

^{٣٢٨} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل

عمر رضي الله عنه، رقم ٢٣ - (٢٣٩٨)، ص ١٠٩٩ - ١١٠٠.

^{٣٢٩} أنظر: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ط ١، ١٣٩٢ هـ) بيان تلبیس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية. تحقيق:

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مكة المكرمة: مطبعة الحكومة، ج ٢، ص ٥٤٠.

^{٣٣٠} أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ط ١، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) جامع الرسائل. تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض: دار

العتاء، ج ٢، ص ١٠٠.

بعض السلف في قوله: {نور على نور} "٣٣١". هذا كما اتفق المحدثون مع الصوفية المعتدلين في الكشف والإلهام.

ولكن الخلاف فيما بين المحدثين و من يتخذون الكشف معيارا في معرفة الولي والولاية، ^{٣٣٢} هذا ضلال صريح يخالفه الشريعة بعدَ الخلاف، لأن هذه الأمور الخارقة للعادة لا يختص بها المؤمنون الصادقون فقط بل إنما تحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب أيضاً. فلذلك قال الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي تعريف الكشف: "هو عبارة عن إنكشاف أحوال عالم الغيب للعارف بشرط أن يكون صاحب الكشف متمسكا بالشريعة" ^{٣٣٣}. وهذا التعريف يدل على أن الكشف الذي يحصل للعارف هو مقبول بشرط أن يطابق عمل العارف مع الشرع، وعمله موافقا للسنة النبوية، وإلا فهو مردود لا مجال له في الإسلام، بل هو ضلال وبهتان على ديننا الحنيف، ولذلك نقول إن جميع الأمور الخارقة في العادة مع الكشف والإلهام لاتعتبرها معيارا في معرفة الأولياء، وإنما المعيار الوحيد في معرفتهم هو اتباعهم الشريعة الإسلامية مع تطبيق عملهم مع السنة النبوية.

وَقُلْتُ: إنَّ الكشف من كرامات الأولياء لا ينكر، ولكن أولياء الله عز وجل إذا حصل لهم شيء من الكرامات لا يتبجحون بها، ولا يذكرونها، ولا يشغلون الناس بها، وإنما يتواضعون لله عز وجل ويخفونها، هذا شأن أولياء الله، وأما الذين أضلهم الله عز وجل فهم يتخذون مما يحصل إذا حصل وسيلة لتقديسهم ولتعظيمهم ولجلب الأموال لهم بسبب ذلك، وقد يختلقون كرامات ويأتون بأشياء ليس لها أساس وليس لها وجود، وإنما يأتون بها من أجل أن يعظمهم الناس ويتبعهم الناس، وأما من يكون ولياً لله عز وجل حقيقة فإنه إذا حصل له شيء من الكرامة لا ينشره ولا يتبجح ولا يتعاضم ولا يترفع على الناس به، أما من يريد من الناس أن يقدسوه ويعظموه ويحققوا له ما يريد فهذا ليس شأنه شأن أولياء الله حقاً.

^{٣٣١} أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢٠، ص ٤٥.

^{٣٣٢} هم بعض العوام المسمين أنفسهم بالمتصوفين ميايين إلى الروحيين والإشراقيين. كما يقول الشيخ التهانوي: "إن الناس يعدون الكشف من أجل الكمالات، مع أنه لا قيمة له في التقرب إلى الله....."، ثم يقول: "كيف يكون الكشف من علائم القرب والولاية إذا لم يشترط فيه كون المرء مؤمناً؟! فإنه يحصل للمؤمن والكافر والملحد ولغيرهم على سواء..."
أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٢٦٥.

^{٣٣٣} المصدر السابق ص ٢٠٦.

المطلب الثالث

"الأشغال" ووجه الترابط فيه

الأشغال:

كما عرفنا سابقا بأن يوجد هناك بعض الثمرات أو النتائج غير الاختيارية في هذا الفن التي تحصل للعارف من غير قصدٍ إليها، أي التي تحصل لدُنْيَا لا كسبِيًّا، التي تسمى بـ"الأحوال" في هذا الفن، ولكن أحيانا يرشد بعض مشايخ السلوك لأتباعهم باختيار بعض الوسائل أو الأسباب في الحصول على هذه النتائج، فهذه الأسباب والوسائل تسمى بـ"الأشغال" في هذا الفن، وذلك كما نعرف أن الطمأنينة والسكونة والخشوع وحضور القلب في العبادة من أهم أحوال العابدين والسالكين، وهذه الحالة تنتج من مداومة الجهد في العبادة بنفسها، ولا يحتاج إلى وسائل أخرى في حصولها، بل هي تحصل بنفسها مع الاستقامة في العبادة، رغم ذلك أحيانا يرشد بعض الشيوخ لمريديهم إلى اختيار مختلف الوسائل وعديدة من الأسباب لتسهيل الحصول على هذه الثمرة والحالة، مثل حبس البصر في موضع السجود للحصول على طمأنينة القلب في الصلاة، والتصوير عن أعمال شيخه من حيث تحمُّله عند البلاء والصبر في الشدائد وغيرها لإرتقاء الحالة الإيمانية للمريد، فهذه الوسائل أو الأسباب يعتبرها كـ"الأشغال" في هذا الفن، كما يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي مقدمة هذا الكتاب: "وهناك بعض الأسباب التي تساعد السالك على حصول هذه الثمرات، (أي الثمرات غير الاختيارية من أحوال السالكين المذكورة فيما سبق) التي تسمى بـ"الأشغال" في هذا الفن" ٣٣٤.

الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

بعد إمعان النظر في الكتاب (حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة) وجدنا أن الشيخ التهانوي ذكر حوالي أربعة أحاديث في هذا الموضوع، وقد أمكن رَحِمَهُ اللهُ خلال هذه الأحاديث أن يثبت حقيقة الأشغال (الوسائل والأسباب) التي تساعد العابدين للحصول على طمأنينة القلب في العبادة ودقة النظر فيها بضوء هذه الأحاديث، كمثل الحديث ذكره البيهقي في سننه عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: " قال

^{٣٣٤} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد"^{٣٣٥} أي ضع بصرك في صلاتك على موضع سجودك، لأن هذا يساعدك على الخشوع والخضوع والطمأنينة في الصلاة، كما هو المفهوم من هذا الحديث، بما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون} خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم^{٣٣٦}.

ويقول الشيخ التهانوي رحمه الله في تثبيت هذه الحقيقة وتأييدها: " قد ثبت من التجربة أن الطمأنينة في العبادة تحصل أحياناً بحس النظر على موضع خاص كما يحصل في الصلاة بحصر النظر على موضع السجود، وهذا هو المراد بالأشغال في هذا الفن^{٣٣٧}. ويليك التفصيل قليلاً مع أن نذكر حديثاً في هذا الموضوع.

الحديث الشريف: ٧/١٣ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ شَيْئًا فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَنْصِبْ عَصًا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَصًا فَلْيَخُطِّطْ خَطًّا ثُمَّ لَا يَضُرُّهُ مَا مَرَّ أَمَامَهُ » (رواه أبو داود وابن ماجه)^{٣٣٨}.

تخریج الحديث: أخرجه أئمة الحديث من طريق إسماعيل بن أمية عن أبي عمرو بن محمد بن حريث عن جده حريث عن أبي هريرة رضي الله عنه فأما أبو داود أخرجه في سننه، وابن ماجه في سننه^{٣٣٩}.

^{٣٣٥} أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (د.ط، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) سنن البيهقي الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، كتاب الحيض، باب لا يجاوز بصره موضع سجوده، رقم ٣٣٦٠، ج ٢، ص ٢٨٤.

^{٣٣٦} أنظر: أبا الحسن عبيد الله بن حسام الدين الرحمانى المباركفوري (ط ٣، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الهند: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، ج ٣، ص ٣٦٩.

^{٣٣٧} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٣٢٤.

^{٣٣٨} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٧١-٧٢.

^{٣٣٩} راجع: أبا داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الخَطُّ إِذَا لَمْ يَجِدْ عَصًا، رقم ٦٨٩، ص ١٢٧٣.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يستر المصلي، رقم ٩٣٣، و ص ٢٥٣٢.

قلت: وأخرجه إمام أحمد في مسنده من نفس الطريق^{٣٤٠}، والإمام البيهقي في سننه الكبرى، برقم ٣٢٧٨، باب الخط إذا لم يجد عصا،^{٣٤١} وفي سننه الصغرى، برقم ٩٥٠، باب في سترة المصلى^{٣٤٢}، وأخرجه الإمام الطبري في تهذيب الآثار، بكثير من الطرق، كلها عن أبي هريرة رضي الله عنه، بأرقام مختلفة^{٣٤٣}، باب ذكر من قال ذلك^{٣٤٤}.

حكم الحديث: قد اختلف العلماء في الحكم على هذا الحديث بين الصحيح والحسن والضعيف، فصححه وحسنه جماعة، منهم أحمد، وعلي بن المديني، وابن عبد البر، وعبد الحق، وأخرجه ابن جبان في صحيحه، وصححه، وقال: "صحيح"، ولم يصب من زعم أنه مضطرب، بل هو حسن^{٣٤٥}. ومن ضعفه سفيان بن عيينة، والشافعي، والبعوي، والعراقي، وغيرهم. وقال ابن حجر العسقلاني: ضعيف، لا اضطرابه، وجهالة بعض رواته، فقال الشيخ الألباني في تحقيق هذا الحديث: الحديث ضعيف الإسناد لا يصح وإن صححه من ذكرهم المؤلف فقد ضعفه غيرهم وهم أكثر عددا وأقوى حجة^{٣٤٦}.

قلت: رغم أن كثيراً من المحدثين قد ضعفوه سندا، ولكنه في ناحية أخرى كثيرا منهم صححوه ووضعوه في صحيحهم، وذكروه مع كثرة الطرق، وبعضهم قد أنكروا سبب ضعفه الاضطراب،

^{٣٤٠} أنظر: أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٧٣٩٢، ج ١٢، ص ٣٥٤.

^{٣٤١} أنظر: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج ٢، ص ٢٧٠.

^{٣٤٢} أنظر: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (د. ط، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) سنن البيهقي الصغرى.

تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المدينة المنورة: مكتبة الدار، ج ١، ص ٥٣٠.

^{٣٤٣} أنظر: المصدر السابق، برقم ٦٠٧، و ٦٠٨، و ٦٠٩، و ٦١٠، و ٦١١، و ٦١٢.

^{٣٤٤} أنظر: أبا جعفر محمد بن جرير الطبري (د. ط، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) تهذيب الآثار. تحقيق: علي رضا بن عبد الله

بن علي رضا، دمشق: دار المأمون للتراث، ص ٣١٩-٣٢١.

^{٣٤٥} أنظر: أبا الحسن عبيد الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (ط ٣، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) مرعاة المفاتيح شرح

مشكاة المصابيح. ج ٢، ص ٥٠٢.

^{٣٤٦} محمد ناصر الدين الألباني (ط ٣، ١٤٠٩هـ) تمام المنة في التعليق على فقه السنة. مدينة المنورة: المكتبة الإسلامية

دار الراجعية للنشر، ص ٣٠٠.

كما فعل ابن حبان: "صَحَّحَهُ ولم يُصَب من زعم أنه مضطرب" فكان علي بن المديني يصحح هذا الحديث ويحتج به.

فأقول إن هذا الحديث ولو لم يكن صحيحاً أو حسناً لذاته، ولكنه لا يديني عن رتبة الحسن لغيره، لوروده بكثرة الطرق المتفاوتة من حيث القوة والضعف، ولتوثيقه من أئمة الحديث الكبار والله أعلم بالصواب.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: قد استدل الفقهاء والمحدثون بهذا الحديث على حكم السترة في الصلاة، وهو أن يجعل المصلي أمامه ما يستتره من المرور بين يديه، وهذا فيما إذا كان المصلي إماماً أو منفرداً لا إذا كان مؤتماً، فإن الإمام سترته سترة له، فبين النبي ﷺ هنا: أن على المصلي أن يتخذ شيئاً أمامه، فإن لم يجد شيئاً، لا عصاً ولا سهماً، فليخط خطأً، فهذا الحديث دليل على أن السترة تجزئ بأي شيء كانت، كما يقول عطية بن محمد سالم (المتوفى: ١٤٢٠هـ): "فهي إما عنزة، وإما مؤخرة الرحل، وإما سهم، وإما عصا، وإما أن يخط خطأً، وجاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يستتر براحله في السفر خاصة.

ولكن أكثر الأئمة لم يقر الخط، لأنه لم يثبت عنده، ولم يصح الحديث فيه، لكن أحمد رحمته الله صحح الحديث وقال: من لم يجد شيئاً يستتره من الناس فإنه يخط خطأً أمامه" ^{٣٤٧}.

نظرية الترابط بين التصوف والحديث في هذا المجال:

هذا كما ذكرناه في شرح الحديث من أقوال المحدثين، واستنباطهم منه بعض أحكام السترة في الصلاة، ولكن هناك توجد وجهة ثانية من حكمة السترة في الصلاة حيث يبحث بعض العلماء عن حكمتها، وتكلموا عن أسرارها ^{٣٤٨}، أي لماذا أمر النبي ﷺ للمصلي أن يقيم السترة أمامه؟ فالحكمة تظهر لما نلقت نظرنا إلى آخر هذا الحديث، حيث قال النبي ﷺ: "ثُمَّ لَا يَضُرُّهُ مَا مَرَّ أَمَامَهُ" ^{٣٤٩} أي لا يضره في خشوع صلاته وخضوعه عند ما يصلي وأمامه سترة، ولا يشوشه أحد بالمرور عليه،

^{٣٤٧} عطية بن محمد سالم، شرح بلوغ المرام، ج ٤٨، ص ٨.

^{٣٤٨} أنظر للمزيد: زين الدين أبا الفرج ابن رجب عبد الرحمن ابن شهاب الدين (ط ٢، ١٤٢٢هـ) فتح الباري لابن

رجب. تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الدمام: دار ابن الجوزي، ج ٢، ص ٧١٣.

^{٣٤٩} قد سبق تخريجه آنفاً في حديث الأشغال، رقم ٧/١٣.

فلا ينتشر عقله في صلاته، فهذه السترة بمنزلة "الأشغال" أي من قبيل الوسائل إلى الخشوع في الصلاة يعني حضور القلب فيه.

جدير بالذكر أن الخشوع لب الصلاة وروحها، فلا يعرف عظمة الصلاة من لم يذق الخشوع فيها، وعلى قدر الخشوع يكون الأجر، ولما كان الخشوع بهذه المنزلة فإن الشارع الحكيم قد أحاط الصلاة بسياج منيع من الأحكام التي غايتها وفائدتها الحفاظ على المصلي من كل ما يشغله عن الصلاة حتى لا يضيع عليه الخشوع، وهكذا السترة التي تساعد المصلي على حفاظ خشوعه، وطمأنينة نفسه وحضور قلبه، والتي تنبه الناس عن عدم المرور على المصلي، والاهتمام على شأن المصلي.

ومن هنا يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرح هذا الحديث، تثبيتاً لعلاقة هذه المسئلة السلوكية "الأشغال" مع سنة الرسول ﷺ: "والهدف الأصلي من جميع الأشغال التي اختارها الشيوخ هو: دفع انتشار القلب من كل تشاويش الأفكار والعقول، وعكف جميع الخواطر والخيالات على هدف واحد، الذي يساعد المبتدئين على توجه تام إلى الله وإلى المغيبات من الجنة أو النار، رغم أن هذه المدارك غائبة عنه، ولا يسهل له الوصول إليها بسهولة، لمزاحم أفكاره في شئون مختلفة من الحياة. فالسترة كذلك حكمتها الأساسية التي نفهمها من تصريحات العلماء هي: لعكف الخواطر والخيالات على هدف خاص، ودفع انتشار الأفكار والميولات إلى أشياء متفرقة بسبب مرور الناس عليه حينما يصلي، كما قال ابن الهمام في شرح الهداية تعبيراً عن وظيفة السترة"^{٣٥٠}.

قلت: إن "الأشغال" أي الوسائل للخشوع والخضوع في الصلاة لا تنحصر على السترة فقط، بل العلماء من المحدثين والفقهاء والمتصوفين قد أشاروا لأتباعهم إلى كثير من الأسباب التي تعين المصلي على الخشوع وطمأنينة القلب في العبادة والصلاة، مثل حبس البصر في موضع السجود للحصول على الخشوع والخضوع في الصلاة، كما ذكر في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد" أي أعكف بصرك على موضع سجودك، فهذا أيضاً من قبيل "الأشغال" التي تساعد المصلي على عكف خواطره وخیالاته في الصلاة وهي تؤدي إلى

^{٣٥٠} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٧٢.

الخشوع والخذوع في الصلاة، وفي هذه النسبة يقول ابن رجب: أن البخاري ذكر الخشوع في هذا الموضوع، لأن كثيراً من الفقهاء والعلماء يذكرون في أوائل الصلاة: "أن المصلي لا يجاوز بصره موضع سجوده، وذلك من جملة الخشوع في الصلاة"، وحكي عن شريك بن عبد الله عن المواضع التي ينظر إليها في الصلاة، فيقول: ينظر المصلي في قيامه إلى موضع قيامه، وإذا ركع إلى قدميه، وإذا سجد إلى أنفه، وإذا قعد إلى حجره^{٣٥١} وفي هذه النسبة ورد حديث يذكر عن موضع نظر الرسول صلى الله عليه وسلم عند التشهد، أخرجه أبو داود في سننه عن عامر ابن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، حيث يقول: "لَا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ إِشَارَتَهُ"^{٣٥٢} أي بصره يكون متجهاً إلى يده اليمنى وعاكفاً بما التي يشير بإصبعها السبابة، وكان يتبع بصره إشارته لأنه الأدب الموافق للخشوع والخشوع.

وقلت: إن أصل الخشوع هو خشوع القلب، وهو انكساره لله، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه: "خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظامي، وما استقل به قدمي لله رب العالمين"، ذكره البيهقي، في سننه الكبرى، باب افتتاح الصلاة بعد التكبير، برقم ٢١٧٣ ٣٥٣ .

رغم ذلك أن الشيوخ قد أشاروا لأتباعهم إلى اختيار بعض الأسباب والأنشطة العملية تتعلق مع الجوارح التي تُسهل الوصول إلى خشوع القلب وحضوره^{٣٥٤}، لأن أعضاء الجوارح كما تتأثر بالقلب كذلك يدخل الإيمان في القلب بنشاط الأعمال البدنية، ويزداد نور الإيمان بالأعمال الظاهرية الصالحة.

^{٣٥١} زين الدين أبا الفرج ابن رجب عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي، فتح الباري لابن رجب، ج ٤، ص ٣٣٨.

^{٣٥٢} راجع: أبا داود سليمان بن الأشعث الأزدي السُّجِسْتَانِي، سنن أبي داود، باب الإشارة في التشهد، رقم ٩٩٠، ص ١٢٩٦.

^{٣٥٣} راجع: أبا بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، كتاب الصلاة، باب افتتاح الصلاة بعد التكبير، رقم ٢١٧٣، ج ٢، ص ٣٢.

^{٣٥٤} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ٧٢.

المطلب الرابع

"العلامات" في نظر السنة النبوية وأقوال المحدثين فيها

العلامات:

هي أثر الشيء وأماراته وأشراطه، كما ذكره صاحب معجم الوسيط بقوله: "العلامة ما يستدل به على الطريق من أثر"^{٣٥٥}، إذا العلامة في هذا الفن هي بعض الآثار التي تدل على أحوال السالكين من الثمرات الاختيارية أو الغير الاختيارية، مثل شهرة الرجل بين الناس بصلحه وبراعته تدل على مقبوليته عند الله، وهي أيضاً يعتبرها علامة من علامات رضاء الله عليه، فهذه تسمى "علامة" عند المتصوفين. وقد عرفها الشيخ التهانوي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: " والآثار الظاهرة التي تظهر من هذه الثمرات الاختيارية و غير الاختيارية، تعبها بـ(العلامات)"^{٣٥٦}.

الأحاديث الواردة في العلامات:

بعد التتبع في هذا الموضوع وجدنا حوالي خمسة أحاديث التي أوردها الشيخ التهانوي في تثبيت هذا الموضوع، ومطابق هذه الأحاديث صحيح مسلم و سنن الترمذي والبيهقي، وخلالها أثبت حقيقة العلامات والآثار في هذا الفن بضوء السنة النبوية، وأثبت بأن العلامات التي تظهر من الأولياء هي من تكريم الله له، وهي نوع من رضاء الله عنه، ولها أصل ثابت في الإسلام، وهي ليست من أفكارهم الزائفة الصوفية، كما زعمها بعض الناس، بل هي ثابتة بالسنة النبوية، ومن هنا نذكر بعض الأحاديث نموذجاً مع وإبراز الترابط في هذه الغاية.

الحديث الشريف: ٨/١٤ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ قَالَ فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ

^{٣٥٥} أحمد الزيات وزملائه، المعجم الوسيط، باب العين، ج ٢، ص ٦٢٤، كلمة البحث: "العلامة".

^{٣٥٦} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

فَيَقُولُ إِنِّي أَبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُهُ قَالَ فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ" (أخرجه مسلم) ^{٣٥٧}.

تخریج الحديث: قلت: أخرجه الشيخان في صحيحيهما، فأما إمام مسلم في صحيحه " من طريق زهير بن حرب عن جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وأخرجه البخاري من طريق ابن جريج عن موسى عن نافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ^{٣٥٨}.

الحكم على الحديث: هذا الحديث صحيح، وأئمة الحديث وثق رجاله، كما يقول شعيب الأرنؤوط في تحقيقه (مسند أحمد): "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سهيل بن أبي صالح فمن رجال مسلم" ^{٣٥٩}، قلت: وأيضا أخرجه البخاري من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، فلم يخرج إمام مسلم وحده، بل أخرجه الشيخان بطرق متغايرة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: قد ورد هذا الحديث في بيان رفع الشأن وعلو المقام للذين يحبهم الله من عباده فهو سبحانه ينادي في السماء: يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل حب الله تعالى له، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: يا أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يطرح له القبول في الأرض. وهذا هو معنى قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ^{٣٦٠}. ولأن المحبة والمودة من عنده تعالى، وهو الذي يلقي الحب والمودة في قلوب الناس، فيحب الناس بعضهم بعضا ويشهد على

^{٣٥٧} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ١٤ نقلا عن إمام مسلم. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة

الأنيقة، ص ٧٢-٧٣.

^{٣٥٨} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه إلى

عباده، رقم ٢٦٣٧، ص ٢٦٠.

و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩.

ص ١١٣٧.

^{٣٥٩} أحمد ابن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند أحمد، ج ٢، ص ٤١٣/٢٦٧.

^{٣٦٠} مريم، الآية: ٩٦.

صحته قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾^{٣٦١} ، وكذلك يمن الله على المسلمين بتأليف قلوبهم على الأخوة الإسلامية، وإلقاء المحبة فيما بينهم فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^{٣٦٢} .

فمن أثر محبته سبحانه وتعالى على عباده: هي إرادته الخير له وهدايته وإنعامه عليه ورحمته وإكرامه له، وبنعمته وإكرامه سبحانه وتعالى يشتهر أولياء الله بين الناس، ويرغب الناس إليهم، ويجذب قلوبهم إليهم فطريا من دون أي أسباب ووسائل.

وأما إذا أبغض الله عبداً نادى جبريل : إني أبغض فلاناً فأبغضه. فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم تطرح له البغضاء في الأرض. ومن مظهر بغض الله عبداً: هو إرادة عقابه وشقاوته وطرده من رحمته، فينفره الناس فطريا من غير أسباب ظاهرية.

نقطة الترابط من هذا الحديث:

هذا كما شرحه المحدثون في كتبهم بما اقتبسناه من أقوالهم، فهو يؤيد موضوع "العلامة"، وذلك لأن هذا الحديث يشير إلى أن الله لما يحب رجلا على تقواه وإيمانه واستقامته في الدين وأعماله الصالحة، اختاره ولياً له، فيلهم في قلوب الناس محبة منه فيحبه الناس ويوقرونه بسبب ميلان قلوبهم إليه بدون أسباب مادية ظاهرية، فهي من قبيل "العلامة" التي تساعد السالك على اختيار أهل المعارف وانتخابهم، وفي هذه النسبة يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ : "إن هذا الحديث يشير إلى علامة الأولياء، لأن العلامة هي أيضاً من ميلان قلوب أغلبية الناس إلى الرجل من غير المنفعة المادية والعرضية، ويشعرون بقلوبهم أنه رجل صالح أوتقي أو ولي، ويجبونه بدون أي أسباب دنيوية، وبهذه العلامة يقدّر الناس على تمييز أولياء الله من غيرهم، ويشعرون بقلوبهم درجاتهم العالية ومنزلتهم الرفيعة من غير إخبارهم الناس على شأنه، كما هو المفهوم من هذا الحديث، لأنه ذكر في الحديث "ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"، فبناءً على ذلك ينبغي أن تستخدم هذه العلامة في

^{٣٦١} طه، الآية ٣٩.

^{٣٦٢} آل عمران، الآية ١٠٣.

اختيار شيخ دون شيخ فمن يميل إليه القلب بدون سبب مادي فيتخذة شيخاً، وإلا فلا^{٣٦٣}، أي لما يرغب قلبه عنه ويشعر بنفسه التنفير منه، (على شرط أن لا يكون هذا التنفير النفسي والإعراض القلبي بسبب مصلحة دنيوية أو البغض الناشئ لغرض الدنيا) فلا يأخذه شيخاً، لأن النفرة الطبيعية والفطرية مخلوقة من جانب الله، كما ثبت في آخر هذا الحديث، حث يقول صلى الله عليه وسلم: "ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَعْضَاءُ فِي الْأَرْضِ".

قلت: الحاصل مما استفدنا من أقوال العلماء هو: أن محبة الله حل وعلا لعبده صفة اختيارية تتعلق بالحال والأوصاف الحميدة، لأن الله لم يوزع بين الأفراد أي الاختصاصات والكرامات نظراً إلى الأنساب والأنسب، بل إنما الاختصاص بالتقوى والعمل الصالح، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{٣٦٤}، بناءً على ذلك نقول حب الله يتعلق مع الأوصاف الحميدة، منها: التوبة، فالله تعالى يحب التوابين، ومنها: التطهير من الأنجاس الحسية والمعنوية، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^{٣٦٥} ومنها: الثبات أمام العدو صفوفاً كالبنیان المرصوص: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُورٌ﴾^{٣٦٦}، وغيرها. ومن هنا يذكر الشيخ التهانوي حديثاً يدل على بعض أوصاف أولياء الله تعالى يخص الله بها أحبائه، ويليك هذا الحديث:

^{٣٦٣} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٧٣.

^{٣٦٤} الحجرات، الآية ١٣.

^{٣٦٥} البقرة، الآية ٢٢٢.

^{٣٦٦} الصف، الآية ٤.

الحديث الشريف: ٩/٣٩: عن عائشة رضي الله عنها: قالت: قلتُ: يا رسول الله ﷺ والذين يؤثون ما آتوا وقلوبهم وجلّة ﴿ (المؤمنون: ٦٠)، أ هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا، يا بنت الصديق، ولكن هم الذين يصومون، ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم» ﴿ أولئك يُسارعون في الخيرات ﴿ (المؤمنون: ٦١). (أخرجه الترمذي) ^{٣٦٧}.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الحديث من طريق مالك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة رضي الله عنها فالإمام الترمذي وابن ماجه في سننهما ^{٣٦٨}، والبيهقي في شعبه ^{٣٦٩}، والحميدي في مسنده ^{٣٧٠}، وأبو يعلى في مسنده من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل عن جرير عن ليث عن رجل عن عائشة رضي الله عنها ^{٣٧١}.

قلت: وله شاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه، كما قال الترمذي في آخر حديث عائشة: "وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا ^{٣٧٢}."

^{٣٦٧} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ٣٩ نقلا عن الترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٩٩.

^{٣٦٨} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم ٣٢٤٧، ص ١٩٧٤.

وأبا عبد الله ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، رقم ٤١٩٨. ص ٢٧٣٢.

^{٣٦٩} راجع: أبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان للبيهقي، الحادي عشر من شعب الإيمان، وهو باب في الخوف من الله تعالى، رقم ٧٦٢، ج ١، ص ٤٧٧.

^{٣٧٠} راجع: أبا بكر عبد الله بن الزبير الحميدي (ط ٢، ١٤٢٦هـ) مسند الحميدي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية. أحاديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ، ج ١، ص ١٣٢.

^{٣٧١} راجع: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي أبا يعلى (ط ١، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) مسند أبي يعلى. تحقيق: حسين سليم أسد، دمشق: دار المأمون للتراث، تابع مسند عائشة رضي الله عنها، رقم ٤٩١٧، ج ٨، ص ٣١٥.

^{٣٧٢} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥. ص ١٩٧٤.

الحكم على الحديث: الحديث صحيح بتحقيق أئمة الحديث، كما قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه الشيخان، ووافقه الذهبي في التلخيص فقال: صحيح" ^{٣٧٣}، كذلك الشيخ الألباني صححه في تحقيق مشكاة المصابيح ^{٣٧٤}.

أما حديث أبي يعلى: قال حسين سليم أسد في تحقيقه: "إسناده ضعيف"، لأن فيه رجلٌ مبهم لم يذكر اسمه، (أي عن طريق إسحاق بن أبي إسرائيل عن جرير عن ليث عن رجل عن عائشة) ^{٣٧٥}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: هذا الحديث قد ورد في تفسير قول الله عز وجل في حق أوليائه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ^{٣٧٦} أي: يؤتون ما آتوا من الأعمال الصالحة ويتقربون له بالأعمال الصالحة ومع ذلك قلوبهم وجلة، وهم وجلون خائفون ألا يتقبل منهم، لأن الله تعالى لا يتقبل إلا من المتقين.

فهذا هو شأن أولياء الله: يسلكون بين الأمل والمخافة والتواضع، فهم بما أعطاهم الله تعالى الكمال وأعطاهم ما أعطاهم من الرفعة والمنزلة، ولم يزداهم ذلك إلا تواضعاً لله عز وجل، وهم مع إحسانهم وما أكرمهم الله عز وجل به من توفيق إلى الخير يخشون الله عز وجل، ويرون أن ما عملوه من أعمال لا يعتبر شيئاً. قال الحسن في هذه النسبة: وهم يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله.

فالرسول صلى الله عليه وسلم وضحه مزيداً لما استفسرهما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن شأن أولياء الله بقوله: "ولكنهم الذين يصومون، ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم": أي أنهم يعملون جميع الخيرات من العبادات والمعاملات والمعاملات مراعيًا عن حق الله وحق العباد، مع أنهم لا يفتخرون على هذه الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة، بل يتواضعون أمام الله خائفين من عذاب الله وعقابه، ويتحiron عن ضياع أعمالهم الصالحة، ويشددون على أنفسهم بأمر الله أكثر ما يشددون به على الآخرين. وهم يعاشرون مع خلق الله هونا وتواضعاً، كما يقول الله عز وجل في

^{٣٧٣} راجع: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج ٢، ص ٤٢٧.

^{٣٧٤} راجع: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ط ٣، ٤٠٥هـ/١٩٨٥م) مشكاة المصابيح. تحقيق: محمد ناصر الدين

الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ج ٣، ص ١٦٠.

^{٣٧٥} راجع: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي أبا يعلى، مسند أبي يعلى، ج ٨، ص ٣١٥.

^{٣٧٦} المؤمنون: الآية ٦٠.

توصيف أوليائه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^{٣٧٧}، فتجذب مظاهرهم الحميدة قلوب الناس من غير أسباب الظاهرية والمادية. فالحاصل مما قال العلماء: إن أولياء الله متميزون بالصفات الحميدة والتواضع معا، فهذا هو شأن أولياء الله: جامعون بين العمل الصالح والمخافة والتواضع، ولا يزيدهم الكمال ومكانتهم الرفيعة إلا تواضعاً لله عز وجل، فيرغب الناس إليهم بحسن أخلاقهم ومعاشرتهم بين الناس. ومن هنا يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: "إن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ أوليائه المقربين بهذه الأوصاف المجيدة، التي تسمى بـ(العلامات) في هذا الفن، فأولياء الله يتميزون بها بين الأفراد البشرية كلها، وكذلك قد ثبت بعد التتبع أن هذه الصفات تغلب عليهم عن جميع الصفات الأخرى، فهذه العلامات - تساعد الناس في معرفة أولياء الله وانتخابهم"^{٣٧٨}.

^{٣٧٧} الفرقان، الآية ٦٣.

^{٣٧٨} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ١٠٠.

المبحث الثاني: الأنشطة الصوفية وعلاقتها مع السنة النبوية

ويشتمل هذا المبحث على:

المطلب الأول: عادات المتصوفين وآدابهم وإبراز علاقتها مع السنة النبوية

المطلب الثاني: "الرسوم" وحقيقة الترابط مع السنة النبوية

المطلب الثالث: "الأقوال" وحقيقتها في السنة النبوية

المبحث الثاني

الأنشطة الصوفية وعلاقتها مع السنة النبوية

جدير بالذكر أن هذا المبحث سوف يتم بثلاثة مضامين التصوف المذكورة في "الحقيقة" وهي العادات أو الآداب، والرسوم، والأقوال، بناءً على ذلك هذا المبحث يضمن على ثلاثة مطالب.

المطلب الأول

في عادات المتصوفين وآدابهم وإبراز علاقتها مع السنة النبوية

العادات والآداب:

قبل يخوض الباحث في المطلب يجب أن يوضح عن حقيقة "العادات والآداب" وأقوال اللغويين في معانيهما:

فالعادات جمع العادة، وهو عبارة عن كل ما اعتيد حتى صار يفعل من غير جهد، والحالة تتكرر على نهج واحد، كعادة الحيض في المرأة، هذا كما قاله صاحب المعجم الوسيط^{٣٧٩}، وقال الجرجاني في التعريفات: "هي ما استمر الناس عليه على حكم العقول وعادوا إليه مرة أخرى"^{٣٨٠}، وأما الآداب: يدور معناه حول المروءة النفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات أو هي كمال الرجولية^{٣٨١}.

فالمراد من العادات والآداب هنا: العبارة عن بعض الأنشطة والأفعال الاختيارية والعادية لهذا القوم التي يعتبرها كعادتهم وآدابهم وسُننهم الطبيعية، التي لا تخالف بالواقع مع الحكم الشرعي ومقاصده أيضاً، فهي تسمى بـ"العادة والآداب" في هذا الفن. كما يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي مُقَدِّمَةِ "الحقيقة": " وفيه بعض الأفعال الإختيارية والطبيعية للسالكين على هذا الطريق، وهي تسمى بـ(العادات والآداب) في هذا الفن"^{٣٨٢}.

^{٣٧٩} أنظر: أحمد زيات وزملائه، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٦٣٥، كلمة البحث: "العادة".

^{٣٨٠} علي بن محمد بن علي الجرجاني، باب العين، ص ١٨٨.

^{٣٨١} أنظر: أحمد الزيات وزملائه، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٨٦٠.

^{٣٨٢} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

الأحاديث التي وردت في هذا الباب:

جدير بالذكر لما هذا الموضوع واسع المجال، وشتى النواحي والأطراف بكثير من العادات والآداب المتنوعة لهذا القوم، وبعضها توافق الشرع بالظاهر والواقع وبعضها يرى أنها مخالفة الشريعة بظاهرها، ولكنها بالواقع ليست كذلك، وهذه الحقيقة تظهر لما ناقش النصوص الشرعية، وتعمق في أسرارها ومقاصدها، من أجل ذلك دعت الحاجة إلى التفصيل والتوضيح بكثرة الدليل من النصوص الشرعية، ومن هنا أن الشيخ التهانوي رحمه الله وضح هذا الأمر باستدلالات كثيرة من الأحاديث التي يبلغ عددها حوالي سبعين حديثاً، فأثبت خلالها هذه العادات المختلفة لهذا القوم، ويملك بعض الأحاديث نموذجاً مع أقوال بعض المتصوفين والمحدثين في شرحها، كي نثبت الترابط بين هذين الفريقين من أهل الحديث والتصوف. وبالله التوفيق والسداد.

وفيه يذكر الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ حديثاً مستدلاً على إثبات بعض عادات العارفين والمتصوفين، حيث أنهم أحياناً يحافظون على متروك مشايخهم وهداياهم تبركاً أو تذكراً ويهتمون على حفظها اهتماماً بليغاً، فهذا شيء ممدوح ثابت بأعمال الصحابة، كما ذكر في الحديث، ويملك الحديث نموذجاً.

الحديث الشريف: ١٧/١٠: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ فِيهِ قِصَّةُ بَيْعِ الْجَمَلِ قَالَ: «فَلَمَّا قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبَلَالٍ: أَعْطِهِ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ وَزِدْهُ قَالَ: فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ وَزَادَنِي قِيرَاطًا قَالَ فَقُلْتُ: لَا تُفَارِقْنِي زِيَادَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَكَانَ فِي كَيْسٍ لِي فَأَخَذَهُ أَهْلُ الشَّامِ يَوْمَ الْحَرَّةِ». (أخرجه مسلم) ٣٨٣.

^{٣٨٣} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ١٧، نقلاً عن صحيح مسلم، وذلك بالاختصار اكتفاءً بموضع الاستشهاد فقط.

أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأئمة، ص ٧٦.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الحديث عن طرق مختلفة عن جابر ابن عبد الله، فأما الإمام البخاري في صحيحه من طريق ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وإمام مسلم في صحيحه عن طريق الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنهما^{٣٨٤}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث:

من المعلوم، أنّ هذا الحديث طويل ولكن نقله الشيخ التهانوي بالاختصار الشديد اكتفاءً بموضع الاستشهاد في تأييد موضوعه فقط، وهو :

بأن الصحابي الجليل جابر ابن عبد الله باع من النبي ﷺ جملة في بعض أسفاره فلما قدم المدينة أمر بلالا أن يدفع إليه ثمنه ويزيده قيراطا، أي يزيد في ثمن الجمل هدية له، فأزاده البلال قيراطا أو أي مقدار ما (على حسب اختلاف العلماء)، فكان جابر يمسك هذه الهدية فترة طويلة من حياته، ويحفظه في كيسه و يستصحبه بالدوام حتى أخذه أهل الشام يوم الحرة،^{٣٨٥} سنة ثلاث وستين من الهجرة، وذلك حوالي خمسين سنة بعد أن توفي الرسول ﷺ، فذاك من أثر الحب والمودة في الله الذي مقبول في الإسلام.

بناءً على ذلك نقول: إن العادة التي شائعة بين المحبين الصوفية من الاهتمام البالغ بالمحافظة على ما أعطاهم مشائخهم هدية، فيمسكونه تَبْرُكًا وتذكارا^{٣٨٦}، فهي لا تخالف الشرع ولمقاصده، بل هي توافق بأعمال أسلافنا من الصحابة والتابعين تماما، ولذلك لا يناسب لنا بالظن أن هذه العادة من الخرافات أولا أساس لها في الدين، أو الحكم بالبدعة من غير تفكير وتتبع في النصوص الشرعية. لأن ممارستهم بهذه العادة من إتباع أسلافنا من الصحابة والتابعين، كما نشاهده في هذا الحديث.

^{٣٨٤} راجع محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب "الوكالة"، باب "إذا وكل رجل رجلا أن يعطي شيئا ولم

يبين كم يعطي فأعطى على ما يتعارفه الناس، رقم ٢٣٠٩، ص ١٨٠.

و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم. كتاب المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه،

رقم [٤١٠١] ١١١. ص ٩٥٦.

^{٣٨٥} وهو حدث شنيع، سيء النتائج في التاريخ الإسلامي، حدث في أيام يزيد بن معاوية، لما انتهت المدينة عسكره من أهل

الشام الذين نذبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين وأمر عليهم مسلم بن عقبة المري في ذي الحجة سنة ثلاث

وستين وعقبها هلك يزيد. والحرة هذه: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة وكانت الواقعة بها.

^{٣٨٦} كما ذكره الشيخ التهانوي في كتابه حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة.

قلت: من العادة البشرية، بأنهم لما يجب أحدا فيحب ما يتعلقه من أعماله وتحركاته ولوازماته، فيشتاق أن يجسه في ذكرياته بالحفاظ على بعض الأشياء من هداياه أو مستخدماته، رغم أنه شيء بسيط ويندر ثمنه في الواقع، فهذه العادة كذلك مأنوسة بين المحبين والعاشقين من المتصوفين والسالكين، فيحبون أن يمسكوا بما يتحصل لهم من شيوخهم على سبيل الهدايا أو من غير ذلك حبا لمشايخهم أو تبركا من فيوضهم، ويهتمون بحفظها اهتماما بالغا، فهذا شيء مقبول عرفا وعقلا ونقلا لما يكون هذا بقصد الحب أو من سبيل الذكريات، كما أن هذا الحديث يصرح بأصله تصريحًا واضحًا، ولا يوجد خلاف كبير بين العلماء حوله كما يظهر لي، ولكن العلماء قد تكلموا مختلفا في حالة لما يقصد به التبرك أو التوسل، فاختلّفوا بآراء متعارضة ومتباينة على مشروعيته سواء كان ما يتعلق بشخصية الرسول أو غيره، فالجمهور على جوازه وهم متفقون على مشروعية التبرك بالنبي ﷺ ومن آثاره، وكذلك بأهل الفضل وآثارهم، ولكن بقيد أن يكون التبرك والتوسل في حين حياة الرسول أو الأوليا ولا بعد وفاتهم. وبعض من العلماء يميزونه مطلقا سواء كان في الحياة أو بعد الممات، وهم لا يفرقون بين أن يكون ذلك في حياتهم أو بعد وفاتهم^{٣٨٧}، لأن بعض الصحابة قد توسلوا وتبركوا بشعرات النبي صلى الله عليه وسلم من بعد وفاته كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في باب "شيب رسول الله^{٣٨٨}".

فهذا خلاف متسع المجال بين أهل الحديث والصوفية تتطرق منها الجزئيات كثيرة، ولا نخوض في هذا الخلاف، كما لم يميل إليه الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ، لأن غايتنا في هذا السبيل تثبت العادة المذكورة من أعمال أسلافنا من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين كي يثبت الترابط بين الحديث والتصوف، وهذا قد ثبت بأعمال أصحاب النبي ﷺ في كثير من الأماكن بأنهم كانوا يمسكون ببعض آثار النبي ﷺ سواء قبل وفاته أو بعده، وسواء كان حبا له أو تبركا منه فكانوا يمسكون بآثاره ﷺ من شعراته وثيابه ومن مستخدماته، كما هو مشهور في كتب الحديث والتاريخ، وحديثنا هذا خير دال على هذه الغاية.

^{٣٨٧} انظر: محمد رحمة الله الندوي، أشرف علي التهانوي، ص ١٤١ - ١٤٣.

^{٣٨٨} أنظر: الشيخ الألباني وزملائه، التوسل أنواعه وأحكامه، ج ١، ص ١٠٠.

ومن عادات المتصوفين " الإنعزال عن البيئة^{٣٨٩} أو الابتعاد عن اختلاط الناس لجلب المنفعات ودفع المضرات " هل له ثبوت في السنة؟ أم هو من الرهبانية التي ابتعد عنها الإسلام، وأعلن أنها من فساد البشرية التي لا مكانة لها في الإسلام؟ ففيه حديث يصرح بثبوته ويوضح أنه لا يعتبره من الرهبانية بل هو من الأفاضل إذا كان لغاية الخير، فيليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ١١/٦٦ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ، قَالُوا: ثُمَّ مَنْ، قَالَ: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشَّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» (أخرجه الخمسة)^{٣٩٠}.

تخریج الحديث: أخرجه الأئمة الستة من طريق الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، فأما الإمام البخاري في صحيحه، وكذلك إمام مسلم في صحيحه، وإمام أبو داود في سننه، وإمام ترمذي في جامعه، والإمام النسائي في سننه، وإمام ابن ماجه في سننه^{٣٩١}.

^{٣٨٩} كما حصل لشيخ مشائخ الصوفية عبد القادر الجيلاني، حيث يقول الجبائي: قال لي سيدنا الشيخ: "اتمني أن أكون في الصحاري والبراري كما كنت في الأول لا أرى الخلق ولا يرونني". أبو الحسن على الحسيني الندوي (ط ١١)، سنة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) رجال الفكر والدعوة في الإسلام. القاهرة: دار القلم للنشر والتوزيع، ج ١، ص ٢٠٧.

^{٣٩٠} ذكره الشيخ برقمه الخاص ٦٦، ونقله من أئمة الخمسة أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٢٥.

^{٣٩١} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، رقم ٢٧٨٦، ص ٢٢٤.

و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم ١٢٢ - (١٨٨٨)، و ١٢٣ - (...)، ص ١٠١٦.

وأبا داود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ثواب الجهاد، رقم ٢٤٨٥، ص ١٤٠٧.

وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء أي الناس أفضل، رقم ١٦٦٠، ص ١٨٢٢.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، سنن النسائي، كتاب "الجهاد" باب "فضل من يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، رقم ٣١٠٧، ص ٢٢٨٧.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث:

نرى في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ يذكر طبقتين من خيار الناس وأفضلهم عند الفتن والفساد، أولهما يجاهد في إظهار الحق بنفسه وماله، ويصبر على البلاء والفتن، والآخر يجنب نفسه عن الفتن ويمسك نفسه عن الوقوع في الفتن حتي يعيش مبتعدا عن الناس، وذلك ولو في الشعب.

ولكن قد ورد أحاديث كثيرة تبين أفضل الطبقات بين الناس في مختلف الأحوال والمجالات، كما نجد في بعض الأحاديث يذكر بأن أفضل الناس من يعمل على البصيرة بما أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «فإن أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا في دينهم»^{٣٩٢}، وفي حديث آخر يقول ﷺ: بما أخرج البخاري في صحيحه قال النبي ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"^{٣٩٣}، أي أفضل الطبقات من العلماء هم المتخصصون بالقرآن، وكذلك جاء حديث في ميزة أصحاب النبي ﷺ بين سائر المسلمين، أخرج الإمام الطبراني في معجمه عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الناس أفضل؟ قال: «قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^{٣٩٤}، أي أفضل الطبقات لهذه الأمة هي الطبقة الأولى من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن هنا نقول إن الأفضلية مختلفة بين الناس بحسب المجالات والمواقف، فحديثنا هذا يشير إلى أفضل الناس عند الفتن، وهذا يفهم من سياق هذا الحديث ومن أقوال المحدثين، كما ذكره بعضهم في كتبهم تحت عنوان الفتن ومنهم من زاد في لفظ الحديث "الفتن" أعني "أي الناس أفضل في الفتن؟" فسياق الحديث يدل على أن السؤال عن أفضل الناس عند الفتن، كما ذكره عبد الرزاق في باب "خير الناس في الفتن"^{٣٩٥} وإمام ابن ماجه في كتاب "الفتن"، باب "العزلة"^{٣٩٦}.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، أبواب الفتن، باب العزلة، رقم ٣٩٧٨، ص ٢٧١٥.

^{٣٩٢} راجع: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج ٢، ص ٥٢٢.

^{٣٩٣} راجع: أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم ٥٠٢٧، ص ٥٨٦.

^{٣٩٤} راجع: سليمان بن أحمد بن أيوب أبا القاسم الطبراني (ط ٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م) المعجم الكبير. تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ج ١٠، ص ١٦٥.

^{٣٩٥} راجع: أبا بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ط ٢، ١٤٠٣) مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ج ١١، ص ٣٦٨.

قلت: إن الحديث يدل على طبقتين من الأختيار فالطبقة الأولى منهما هم المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والذين يعتكفون بأنفسهم في خدمة المجتمع ويواجهون كل المشاكل والمصائب في إعلاء كلمة الله، ويصبرون على ما أصابوا من المشقة والفتن، ويختلطون مع الناس متواضعين ومعافين عنهم، والطبقة الثانية هم أقل درجة منهم ولكنهم من الأختيار كذلك، هم الذين يشق عليهم الصبر في مواجهة الفتن فاختراروا العزلة والإنفرد عن المجتمع عند خوف الفتن على المخالطة، كما جاء فيه حديث ذكره الإمام الطبراني في معجم الكبير عن أم مالك البهزية أنها قالت : ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم "فتنة" فقال : (خيركم فيها وخير الناس فيها رجل معتزل في ماله يعبد الله ويعطي حقه ورجل أخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخيفونه^{٣٩٧} .

فالجمهور على أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن ومذهب طوائف أن الاعتزال أفضل، ولكن الراجح هو قول الجمهور لقوله ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » رواه الترمذي في سننه، وابن ماجه في سننه^{٣٩٨} ، وأحمد في مسنده، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لمسند إمام أحمد، في آخر الحديث: هذا الحديث صحيح الإسناد، ورجاله ثقات رجال الشيخين^{٣٩٩} ، وفيه حديث يؤيد هذا الرأي، وهو روي عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يأتي على الناس زمان يكون خير الناس فيه منزلة من أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع بهيعة استوى على متنه

^{٣٩٦} كما سبق تخريجه آنفا تحت عنوان "تخريج الحديث".

^{٣٩٧} راجع: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، ج ٢٠، ص ١٥٠.

^{٣٩٨} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، أبواب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله ﷺ،

باب في فضل المخالطة مع الصبر على أذى الناس، رقم ٢٥٠٧، ص ١٩٠٤.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، أبواب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم ٣٩٧٩، ص

٢٧١٥

^{٣٩٩} راجع: أحمد ابن حنبل أبا عبد الله الشيباني، مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، رقم ٥٠٢٢، ج ٢، ص

٤٣.

ثم يطلب الموت في مظانه ورجل في شعب من هذه الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدع الناس إلا من خير^{٤٠٠}"

وأما الألفاظ المختلفة التي جاءت في الروايات بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها الناس فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في هذا المعنى مثل اسم الاعتكاف في المساجد ولزوم السواحل للرباط والذكر ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس لأن من نأى عنهم سلموا منه وسلم منهم لما في مجالستهم ومخالطتهم من الخوض في الغيبة واللغو وأنواع اللفظ. كما يقول الإمام السيوطي بما قاله إمام النووي: "ذكر الشعب مثال الانفراد والاعتزال قال هذا محله في زمن الفتن أو في من لا يسلم الناس منه ولا يصبر عليهم أو نحو ذلك من الخصوص^{٤٠١}".

فالإنعزال عن المجتمع لقصد العبادة والذكر شيء مسموح بالشرع بل هو أفضل عند خوف الوقوع في الفساد والفتن، كما يصرح هذا الحديث، وما ثبت بأقوال المحدثين ولو بينهما الخلاف في أفضليتهما، فجمهور العلماء على قول بأن الاختلاط مع الناس أفضل خاصة في عدم خوف الابتلاء في الفساد، وبعض المحدثين على رأيهم بالاعتزال أفضل سواء كان في خوف الابتلاء بالفتن أو عدم خوفه، كما قال به الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ.

نظرية الترابط بين التصوف والحديث خلال هذه القضية:

كما سبق من قبل، بأن العزلة من أهم العادات الصوفية، وحبب إلى كثير منهم العزلة والغربة عن المجتمع حتى يَخْتَفُونَ عن الناس ويتعدون عنهم ويعتكفون في المساجد أو يلزمون كهوف الجبال أو السواحل أو البيوت وكل ما يفرغ عن الناس فرارا عن شرور الناس وفسادهم، وينهمكون في العبادات والأذكار، ويزكون أنفسهم بأذكار الله، ويفكرون عن خلق الله، ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه، كما يقول الله تبارك وتعالى: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

^{٤٠٠} راجع: أبا حاتم محمد بن أحمد بن حبان التميمي (ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان،

تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، كتاب السير، باب فضل الجهاد، رقم ٤٦٠٠، ج ١٠، ص ٤٦٠.

^{٤٠١} راجع: عبدالرحمن ابن أبي بكر أبا الفضل السيوطي، الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج ٤، ص ٤٨٥.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ^{٤٠٢}
فهذه العادة أمر مشروع بالشرع، بل هو الأفضل في كثير من الأحيان خاصة في الفساد والفتن،
وهو لا يعتبره من البدعة أو الضلالة.

ومن هنا يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: إن كثيرا من العارفين يتعودون بالعزلة عن الناس، ولا يختلطون
مع الخلق إلا قليلا، ويختارون الخلوة في مكان خفي بعيدا عن نظر الناس، فهذه العادة مسموحة
بالإسلام، كما أن هذا الحديث يخصصها في أي وقت ما، ويفضلها حينما يجين في وقت خاص، أي
في وقت لما يخاف نفسه أن يُوصل الضرر على الآخرين، (فقياسا على هذا يقال أن الاعتزال أيضا
أفضل لما يحتمل الخطر على نفسه من الآخرين)، مع ذلك أن هذا الحديث يفضل الاختلاط للرجل
يغلب نفعه على الضرر ويعم مصالحه للخلق، لأنه ذكر في الحديث عن أولى الناس طبقة هو مؤمن
مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، فخلاصة هذا الحديث: ممن يستفيد الخلق بكثير وكثير نفعه فله
الاختلاط أفضل، ومن يحتمل الضرر والتضرر بالاختلاط مع الناس فله الاعتزال أفضل^{٤٠٣}.

قلت: رغم هذه العادة مألوفة بين المتصوفين ومشايخهم ولكن لا يعتبرها كمسلك عام لجميع
السالكين بهذا الطريق، بل إنما هي عادة لبعض دون بعض، وأيضا هذا لقصد جلب المنفعت ودفع
المضرات، ابتعادا عن الفتن والنحماقا في العبادة، وإلا هناك كثير من المشايخ الذين كانوا يرجحون
الاختلاط مع الخلق على الاعتزال عنهم في مصالحهم ومنافعهم، كما اختاره رئيس المتصوفين
الشيخ عبد القادر الجيلاني لأن مجالسه كان تأثير عظيم ونفع كبير، وكم من اليهود والنصارى
والجوس أسلموا في مجالسه، وكم من المسلمين الفاسقين تابوا من ذنوبهم متأثرا من مواعظه
ونصائحه؟ كما يقول الشيخ الجيلاني بنفسه " فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من
اليهود والنصارى، وتاب على يدي من العيارين والمسألحة^{٤٠٤} أكثر من مائة ألف^{٤٠٥}، وكان الشيخ
الجيلاني يشعر بهذه اللياقة القوية الغريزة في نفسه ويحمد الله عليها ويفضّل الاختلاط مع الناس على

^{٤٠٢} البقرة، الآية ١٩١.

^{٤٠٣} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٢٦.

^{٤٠٤} المسألح: الجماعات، أو القوم ذو السلاح.

^{٤٠٥} أبو الحسن على الحسيني الندوي (ط ١١)، سنة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، القاهرة: دار

القلم للنشر والتوزيع، ج ١، ص ٢٠٧.

ما كان يهواه من الخلوة بالله والانقطاع عن الخلق والاشتغال بالعبادات، كما يقول الجبائي: قال لي سيدنا الشيخ " أتمنى أن أكون في الصحارى والبراري كما كنت في الأول لا أرى الخلق ولا يروني ولكن الله عز وجل أراد مني منفعة الخلق"^{٤٠٦}.

وكان المنهج العام للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الاختلاط مع الخلق وإفادتهم بأموالهم وأنفسهم، وكانوا منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها على سبيل الجهاد والدعوة، وهذا كان مسلكا عاما لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في زمنه عليه السلام وفي زمن خليفتيه أولين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ونصف الأول للعصر العثماني، حتى كان يعاب على من يتخلف من المصالح العامة، ولا يجراً أحد أن يبتعد عن الجهاد أو الدعوة في سبيل الله، ولكن لما انتشر الفتن واشتد الظروف فبعض من أصحاب الأجلاء حُب إليهم العزلة والخلوة، كمثّل الصحابي الجليل سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ابتعد عن البيئة وذلك لأنه كان مشار على هذا، كما أشاره النبي صلى الله عليه وسلم على هذا فقال صلى الله عليه وسلم: " يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم"^{٤٠٧}، فكان أبو ذر منتبها على هذا التنبيه، ولعل بسبب هذا أحب أن يبتعد عن مشاركة كل شئون المسلمين عامة، واعتكف نفسه في العبادة بعيدا كل البعد من الناس حتى توفي بالربذة سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، وما كان أحد أن يصلي عليه الجنائزة، وكان عبد الله ابن مسعود في إحدى رحلاته يتجاوز بالربذة فوجده متوفيا فصلى عليه الجنائزة. فكان هذا الصحابي الجليل زاهدا عن الدنيا وراغبا إلى الآخرة حتى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " من أراد أن ينظر إلى زهد عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي

^{٤٠٦} أبو الحسن على الحسيني الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ١، ص ٢٠٧.

^{٤٠٧} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ١٨٢٦، ص ١٠٠٥.

وأبا داود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود كتاب الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا، رقم ٢٨٦٨، ص ١٤٣٧.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، سنن النسائي، كتاب الوصايا، باب النهي عن الولاية على مال اليتيم، رقم ٣٦٩٧، ص ٢٣٣٠.

ذر الغفاري^{٤٠٨}. ومما يدل على مكانة أبي ذر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر^{٤٠٩} "

وهذا نموذج للعزلة والإنفراد، وكثير من أهل الله وأوليائه من كانوا يجنون الاعتزال والانقطاع والإنفراد، فلا يعار عليهم، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق جميع الناس على طبيعة سوية بل على مختلف الطبائع والميول، فيقدر الناس على محاصله من تقواه وصلحه، ولا إجبار على عمل مغايرا عن طبيعته الفطرية ومزيدها عن قدر استطاعته، كما يقول الله سبحانه وتعالى: " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ الآية^{٤١٠} .

المطلب الثاني

"الرسوم" وحقيقة الترابط مع السنة النبوية

الرسوم: من حيث اللغة هي جمع الرّسْم، فمعناه الأثر أو البقية، وقيل: هو ما لصق بالأرض منها، كما يقال: رسم الغيث الدار عفاها وأبقى فيها أثرا لاصقا بالأرض^{٤١١}، وأحيانا يراد به العمل المداوم والمستمر كما يقول الجوهري: "الرجل الرسوم: الذى يبقى على السير يوما وليلة"^{٤١٢}. ومن هنا، أن المراد بالرسوم هي الأعمال التي يداومها القوم ويمارسونها حينما يحين، ولكنها ليست من عاداتهم، هذا كما هو المفهوم فيما بين العلماء، فالرسوم هنا: هي بعض أفعال المتصوفين

^{٤٠٨} أنظر: حمزة بن يوسف أبو القاسم الجرجاني (ط ٣، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) تاريخ جرجان. تحقيق: محمد عبد المعيد

خان، بيروت: عالم الكتب، ج ١، ٤١٣.

^{٤٠٩} راجع: أبا عبد الله أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما، رقم ٦٥١٩،

ج ٢، ص ١٦٣.

^{٤١٠} البقرة، الآية ٢٨٦.

^{٤١١} أنظر: أبا الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ط ٣، ٢٠٠٠م) المحكم والمحيط الأعظم. تحقيق: عبد الحميد

هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٨، ص ٤٩٣.

^{٤١٢} إسماعيل بن حماد الجوهري (ط ٤، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد

الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ج ٥، ص ١٩٣٣.

وأنشطتهم الجائزة غير متعارضة مع النصوص الإسلامية ظاهراً ولا واقعياً، والمتصوفون يمارسونها لأجل بعض المصالح غير متعلقة بالشرع، وأيضاً هذه المصالح لا تعارض الشريعة. كما عرفها الشيخ التهانوي رحمه الله قائلاً: "وفيه بعض الأفعال لهذا القوم الجائزة بالشرع، بما يمارسونها هذا القوم لمصالح غير مهمة في الشرع وهي بمنزلة (الرسوم) في هذا الفن"^{٤١٣}.

تنبيه: جدير بالذكر أن هناك فرق بسيط بين مصطلحين من الرسوم والعادة، لأن العادات هي ما يمارسونها القوم من حيث نشاطهم الطبيعي الذي يتعودون به، ويحسبونها كالعبادة ويعتقدونها من الدين والسلوك غير أن الرسوم لا يُعتبرها كعادتهم، وهم لا يحسبونها من الدين وإنما يمارسونها لمصالح أخرى التي لا تعارض مع الإسلام، بل النصوص الشرعية توافقها تماماً، وهذا الذي أثبت الشيخ التهانوي خلال هذه الرسالة بجمع بعض الأحاديث على هذا الموضوع.

الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

قد ورد في هذا الموضوع حوالي خمسة وعشرين حديثاً في عدة مناسبات من نشاط هذا القوم، فهذه الأحاديث تؤيد هذه النشاطات بالصراحة، ويمكن أن يستنبطه من هذه الأحاديث، ويملك بعض الأحاديث على سبيل المثال حسب عدة الموضوع الجزئي من الرسوم، مثل ممارستهم بتلقيب المريدين بلقب خاص بعد بيعتهم من شيوخهم، وكذلك اتخاذهم البيوت أو المنازل للذكر الاجتماعي، واهتمامهم بالمحافظة على ملفوظات الشيخ والسند منه لمصلحة خاصة لهم، وكذلك أخذ المال على التعويد أي التعويد بالمنفعة المالية أو كسب المال بالتعويد، وأيضاً من رسومهم أن يجددوا البيعة سنوياً أو حيناً بحين للمصلحة من مصالحهم الخاصة، وما إلى ذلك من نشاطاتهم السلوكية الجائزة بالشرعية التي وردت في "الحقيقة"، فإليك عدد من الأحاديث في هذا الموضوع مع إبراز نظرية الترابط بين الحديث و التصوف.

(١) التلقيب بالألقاب المناسبة حسب حال السالك:

و من رسومهم، أحياناً لما ينتسبون هذا القوم مع الشيخ فيلقبون إخوانهم بالألقاب أو الأسماء حسب أحوالهم المناسبة، وغالباً أن هذه الألقاب يختارها الشيوخ لمريدهم حسب استعداده الدينية

^{٤١٣} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ٥٣.

أوالدنيوية، كالحاقهم لفظ "شاه" أو "حافظجي" أو " بيرجي" في آخر الإسم، مثل رحمة الله شاه^{٤١٤}، ومثل محمد الله حافظجي^{٤١٥}، وكذلك أحمد الله بيرجي^{٤١٦}، وما إلى ذلك من الألقاب المختلفة التي يعتبرها من الرسوم الصوفية، وقد جاء الشيخ التهانوي بأحاديث حول هذا الموضوع في "الحقيقة" ومنها حديث فيما يلي، مع إبراز قوى حجيته عند العلماء وما ورد فيه أقوال المحدثين وآراء المتصوفين مؤيدا لقول التهانوي رَحِمَهُ اللهُ .

الحديث الشريف: ١٢/١٢: عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي غَرْزَةَ قَالَ: «كُنَّا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُسَمَّى السَّمَّاسِرَةَ فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمَّانَا بِاسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إِنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْحَلْفُ فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ» (رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي)^{٤١٧}.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الأربع، ولم يخرجها الشيخان، وكلهم من طريق أبي وائل عن قيس بن أبي غرزة^{٤١٨}.

^{٤١٤} منتسبا إلى الأسرة الملكية، أو إلى منصب عالي في أمور الدنيا، ولكن الصوفية يستعملون هذا الاصطلاح "الشاه" لأجل

السالك الذي حصل على مقام قيم، وسبق الآخرين في السلوك والإحسان.

^{٤١٥} انتسابا إلى كونه حافظا للقرآن أو الدين.

^{٤١٦} منتسبا إلى لفظ "البير" أي شيخ الطريقة.

^{٤١٧} لعل صاحب الرزين قد اكتفى على الثلاثة، وإلا أن الشيخ المفتي محمد عفان المنصور فوري يقول في حاشيته: بأن هذا

الحديث أخرجه الأئمة الأربعة، كما ذكره صاحب المشكوة المصايح.

^{٤١٨} راجع: أبا داود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في التجارة يخالطها

الحلف واللغو، رقم ٣٣٢٦، ص ١٤٧٢.

وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم، رقم

١٢٠٨، ص ١٧٧٢.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، سنن النسائي، كتاب الأيمان والندور، في الحلف والكذب لمن

لم يعتقد اليمين بقلبه، رقم ٣٨٢٨، و برقم ٣٨٢٩، ص ٢٣٣٧.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، أبواب التجارات، باب التوقي في التجارة، رقم ٢١٤٥،

ص ٢٦٠٥.

الحكم على الحديث: قد ورد هذا الحديث بطرق عديدة كما ظهر في تخريجه، وإسناده صحيح ورجاله ثقات رغم أنه لم يخرجاه الشيخان ولكن رجاله رجال الشيخان، فأخرجه الحاكم (في مستدركه على الصحيحين) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه لأجل تفرد أبي وائل بالرواية عن قيس بن أبي غرزة"^{٤١٩}، وقال الذهبي في تعليقه "صحيح"^{٤٢٠}. وقال الإمام الترمذي عقب هذا الحديث: "حديث قيس بن أبي غرزة حديث حسن صحيح، رواه منصور والأعمش وحبیب بن أبي ثابت وغير واحد عن أبي وائل عن قيس بن أبي غرزة ولا نعرف لقيس عن النبي ﷺ غير هذا"^{٤٢١}، ثم ذكر له تابعا^{٤٢٢} نحوه وقال: وهذا حديث صحيح^{٤٢٣}. وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم وهو ابن بهدلة فقد أخرج له الشيخان مقرونا بغيره وهو حسن الحديث"^{٤٢٤}، فعلماء الحديث صححوه ولم أجد أحدا قد تكلم بضعفه، أو طعن على رجاله.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعض التجار يسمون أنفسهم بلفظ السَّماسِرَة، وهي جمع سِمَسار معناه القِيم بالأمْر الحافظ له وهو في البَيْع اسمٌ للذي يدخل بين البائع والمشتري متوسطًا لإمضاء البيع، واللفظ معرب من الفارسية إلى العربية، كما يقول صاحب لسان العرب: السَّمَسارُ الذي يبيع البُرَّ للناس الليث السَّمَسارُ فارسية معرَّبة^{٤٢٥}، فقيس بن أبي غرزة أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار يحكي عن عادتهم فيما بين التجار بأنهم يسمون أنفسهم بالسَّماسِرَة، فيقول: كُنَّا بالمدينة نبيع الأوساق

^{٤١٩} محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج ٢، ص ٥.

^{٤٢٠} المصدر السابق، ج ٢، ص ٥.

^{٤٢١} أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، ص ١٧٧٢.

^{٤٢٢} الحديث التابع: قد عرفه الدكتور محمود الطحان بقوله: "هو الحديث الذي يشارك فيه رواؤه رواة الحديث الفرد لفظاً

ومعني فقط، مع الإتحاد في الصحابي". محمود الطحان (ط ٩، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) تيسير مصطلح الحديث. الرياض:

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ص ١٤١.

^{٤٢٣} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، ص ١٧٧٢.

^{٤٢٤} أبو عبدالله أحمد الشيباني ابن حنبل، مسند أحمد، ج ٤، ص ٦.

^{٤٢٥} محمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي المصري (ط ١، د.ت) لسان العرب. بيروت: دار صادر، كلمة البحث: "سمر"،

ج ٤، ص ٤٨٠.

ونبتاعها، وكنا نسمى أنفسنا : السماسرة، ويسمينا الناس، فخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فلم يعجبه هذا الإسم أو اللقب فسمّانا باسم هو خير من الذي سمّينا أنفسنا وسمّانا الناس فقال: يا معشر التجّار^{٢٦}، (أي سمّانا بالتاجر)، ثم نبههم الرسول ﷺ عن أخطار التجارة من الحلف ثم الحنث، والوعد ثم الكذب والخلاف وغيرها من المفاسد الأخرى.

قلت: هذه المفاسد الخلقية تظهر كثيرا في السمسرة لأن السمسار وظيفته التوسط بين البائع والمشتري لتنفيذ البيع، فوظيفته الوحيد هي الكلام والتكثير فيه حرصا على التوافق بين البائع والمشتري في البيع، وهذا يؤديه إلى كثرة الحلف والكذب، والقول بما لاعلاقة بين السلعة والتمن، هذا ما نشاهده في السمسرة كثيرا، الذي يقل في التجارة بنسبة السمسرة، ولعل الرسول ﷺ نبه أصحابه من هذه المفاسد في المعاملة خاصة في السمسرة، وهذا ما نفهمه بآخر الحديث بقول الرسول ﷺ: "إِنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّعْوُ وَالْحَلْفُ فَشَوْبُوهُ بِالصَّدَقَةِ" فتغيير الإسم يدل على تغيير الحقيقة، وهذا كان دعوة الرسول ﷺ من الأسوء إلى الأحسن، وهكذا كانت حكمة الرسول في دعوته، لأن كل الإسم تحتوي على الحقيقة المستقلة ما تغاير عن الآخر. فلفظ التاجر أحسن معنا عن السمسار كما يفهم من قول الراوي الأعلى قيس بن أبي غرزة: "فَسَمَّانَا بِاسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ" أي لفظ التاجر أفضل وأحسن معنا عن لفظ السمسار بما يحتويه من الشر أو الفساد. والله أعلم بالصواب.

نظرية الترابط في هذه القضية:

نرى من عمل الرسول ﷺ أنه غيّر أسماء بعض صحابته رضوان الله عليهم أجمعين أسمائهم الجاهلية إلى أجمل الأسماء في الإسلام، (كما حدث في هذا الحديث) مثل تغيير إسم إبي هريرة قبل الإسلام من عبد الشمس إلى عبد الرحمن، كما يقول رضي الله عنه: كان اسمي في الجاهلة : عبد شمس بن صخر، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن^{٢٧}، وكذلك كناه الناس بأبي هريرة

^{٢٦} راجع: أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني، سنن النسائي، كتاب الأيمان والنذور، في اللغو

والكذب، رقم ٣٨٣١، ص ٢٣٣٨.

^{٢٧} راجع: أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني (ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م) الآحاد والثاني. تحقيق: فيصل أحمد

الجوابة، الرياض: دار الراية، باب ومن ذكر عبد الرحمن بن عوف، ج ١، ص ١٥٤.

لأنه كان من عاداته استصحاب هرة صغيرة معه، كما يحكي بنفسه: "كنت أرعى غنم أهلي، وكانت لي هريرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في شجر، فإذا كان النهار ذهبت بها معي، فلعبت بها فكنوني أبا هريرة"^{٤٢٨}، وكذلك كانت عادة التلقب مألوفة لبعضهم بعضا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، كما كان أبو بكر ملقبا بلقبه المشهور "الصديق" لكثرة تصديقه للنبي عليه السلام، وعمر ابن الخطاب بـ"الفاروق" لقب به النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أظهر الإسلام بمكة ففرّق الله به بين الكفر والإيمان، وكان فارقا بين الحق والباطل، فشاع هذا اللقب في بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وعثمان بن عفان بـ"ذي النورين" لتزوجه مع بنتي الرسول صلى الله عليه وسلم رقية ثم أم كلثوم، و"الغنى" لأجل كونه صاحب الثروة المالية، وتوسع قلبه بإنفاقها في سبيل الله، وعلي بـ"المرتضى" وغيرها من الألقاب والأسماء. فاختيار اللقب وأوتغير الإسم ليس شيء مستحدث بل هذا من العادات القديمة، التي كانت مأنوسة في بيعة الرسول ﷺ يلقب الناس على حسب مكانتهم الدينية أو الدنيوية، فهي ليست من البدعة بل هي سنة من أعمال الرسول والصحابة والتابعين والصالحين وهي عادة مستمرة من زمن الرسول حتى عصرنا هذا، فلا يعاب هذا القوم بسببه، لأنه موافق السنة وأعمال الصحابة والتابعين، وهذا الحديث يوافقهم بهذا الشيء (الرسوم). فيقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَثْبِيْتِ هَذَا الْمَوْضُوعِ مُسْتَدَلًا بِهَذَا الْحَدِيثِ: "وَكثِيرًا مَا يُشَاهَدُ بَيْنَ هَذَا الْقَوْمِ بِأَنَّهُمْ يَسْمُونَ بَعْضَ الْمَرِيدِينَ بِاسْمِ جَدِيدٍ كَأَمْثَالِ لَفْظِ (الشاه) ^{٤٢٩} أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ بَعْدَ مَا يَبَايَعُونَ بِيَدِ الشَّيْخِ، مِثْلَ بَرَكْتِ شَاهٍ أَوْ رَحْمَتِ شَاهٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤَيِّدُ عَلَيْهِ، فَيُمْكِنُ الْاسْتِنْبَاطُ مِنْهُ فِي تَأْيِيدِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ اخْتَارَ لِلتَّجَارِ اسْمَ التَّاجِرِ عَلَى مَكَانِ السَّمْسَارِ حَسَبَ مَا يَلِيْقُ بِشَاهِمٍ"^{٤٣٠}.

قلت: لا شك أن التلقب بالألقاب أو التسمية بالأسماء حسب الحال المناسب شيء مشروع، ولكن يجب أن تكون هذه الألقاب أو الأسماء غير متعارضة مع الإسلام وعقائده، ولا تحتوي على معاني

^{٤٢٨} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب أبي هريرة رضي الله عنه، رقم ٣٨٤٠، ص ٢٠٤٦.

^{٤٢٩} الشاه: كلمة فارسية، معناها الملك، فيستعمل للرجل المنتسب مع أسرة الملك أو مع أسرة ذات منصب عال، مثل تيمور شاه، لكونه من أحد الملوك من الموغول، وأحمد شاه لأنه من أسرة عالية النسب أو الجاه.

^{٤٣٠} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٧١.

تغاير عن حقيقة الإسلام، ولا يؤدي إلى الاستهزاء والاستسخرار، أو يكون سبب التغيير تبديل الشر إلى الخير أو الحسن إلى الأحسن كما حصل في أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلافنا.

(٢) ومن الرسوم "التعويذ" والكسب به:

قد اختلف علماء عصرنا الحاضر حول هذه المسئلة في جوازها وعدم جوازها، وكثرت الأقوال والآراء بنسبتها، ولكن أسلافنا لم يختلفوا فيه كما يحصل في هذا العصر، لأن الحديث يصرح على جواز الرُقِيَّةِ بالكتاب على الأجرة، وقد صح ثبوته بالحديث الصحيح، وأخرجه أئمة الحديث في كتبهم، أيضا أخرجه البخاري في صحيحه، فالشيخ التهانوي رحمته الله جاء بهذا الحديث مؤيدا على ما يجري من هذا القوم عادة ورسومًا، كي لا يعاب هذا القوم من غير دليل ولا برهان، فقط لأجل أنهم منتسبين بالتصوف فيليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ١٣/١٤٦: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا. وَفِي الْحَدِيثِ قِصَّةُ اللَّدِيغِ، وَفِيهِ قَالَ: لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَسْأَلُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَكَرْنَا لَهُ فَقَالَ: "وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، أَقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ". (أخرجه الخمسة إلا النسائي) ^{٤٣١}.

تخريج الحديث: قلت: أخرجه المحدثون في كتبهم من طرق مختلفة عن أبي سعيد الخدري رحمته الله، وكذلك أئمة الصحاح ما عدا الإمام النسائي، فأما البخاري في صحيحه، من طريق أبي بشر عن أبي متوكل عن أبي سعيد الخدري رحمته الله، - واللفظ للبخاري -، ومسلم من طريقين، فأولهما من طريق أبي بشر، وثانيهما من طريق محمد بن سيرين عن أخيه معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري رحمته الله، وأبو داود من طريق أبي بشر، والترمذي من طريق الأعمش عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رحمته الله، وأيضا من طريق أبي بشر، وابن ماجه من طريق الأعمش ^{٤٣٢}.

^{٤٣١} ذكره الشيخ التهانوي بلفظه، وبرقمه الخاص ١٤٦، نقلا عن أئمة الخمسة دون النسائي، لأنه لم يخرج في سننه.

أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٩٢.

^{٤٣٢} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الرُقِيَّةِ بفتح الكاف، رقم ٥٧٣٦، ص ٤٩٠.

وأبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية

بالقرآن والأذكار، رقم ٦٥ - (٢٢٠١)، ورقم ٦٦ - (.....)، ص ١٠٦٨.

وأخرجه إمام أحمد في مسنده، من طريق محمد بن عبد الله بن الزبير عن عبد الرحمن بن النعمان الأنصاري عن سليمان بن قتيبة عن أبي سعيد الخدري^{٤٣٣}.

الحكم على الحديث: هذا الحديث متفق على صحته، أخرجه الشيخان في صحيحيهما، مع أنه ورد بطرق مختلفة، ويقول الإمام الترمذي: "هذا حديث صحيح (أي حديث البخاري) وهذا أصح من حديث الأعمش عن جعفر بن إياس وهكذا روى غير واحد هذا الحديث عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن أبي المتوكل عن أبي سعيد وجعفر بن إياس هو جعفر بن أبي وحشية"^{٤٣٤}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: جدير بالذكر أن الحديث طويل، (ذكره الشيخ التهانوي بالاختصار الشديد اكتفاءً على موضع الاستشهاد فقط)، يحكي عن سفر الرهط من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وبما حصل لهم في أمر الرقية، بأن المسلمين قد نزلوا منزلاً وكانوا على حاجة شديدة إلى الطعام، فاستضافوا قوماً من سكان إحدى القرية، ولكنهم منعوهم، فلدغ سيدهم بالحية، فحاولوا كل محاولة في شفائه، ولكن لا ينفعه شيء منها، فأشار رجلٌ منهم على استشفاء من رهط المسلمين، فقال لعلهُ أن يكون عند بعضهم شيءٌ فأتوهم فقالوا: بأن سيدنا قد لدغ وسعينا كل المحاولة في طلب شفائه ولكن لا ينفعه شيء، فهل منكم (أي منكم المسلمين) رجل له خبرة على هذا، الذي ينفع صاحبنا؟ فقال أحد من المسلمين^{٤٣٥} "نعم والله إني لأرقي

وأبادود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في كسب الأطباء، رقم ٣٤١٨، و ١٤٧٩.

وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، أبواب الطب، باب ما جاء في أخذ الأجر على التعويد، رقم ٢٠٦٣، ورقم ٢٠٦٤، ص ١٨٥٨.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، أبواب التجارات، باب أجر الراقي، رقم ٢١٥٦، ص ٢٦٠٦.

^{٤٣٣} أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، مسند الكثيرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رقم ١١٤٧٢، ج ١٨، ص ٥١.

^{٤٣٤} أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، ص ١٨٥٨.

^{٤٣٥} لعل راوي الحديث هو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، كما يقول الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: "هذا الراقي هو أبو سعيد الخدري الراوي، كذا جاء مبيناً في رواية أخرى في غير مسلم". أنظر: أبا زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٤، ص ١٨٨.

ولكن والله لقد استضعفناكم فلم تضيّفونا فما أنا براقٍ لكم حتّى أن توافقوا على ما أطلب منكم، فوافقوه على قطيع^{٤٣٦} من الغنم" أي طائفة من الغنم، وقد اختلف العلماء في هذا العدد من الشاة، ولكن الأحسن ما قال به الإمام النبوي رحمه الله في شرح صحيح المسلم: "والمراد بالقطيع المذكور في هذا الحديث ثلاثون شاة، كذا جاء مبينا في رواية أعمش^{٤٣٧}"، فقالوا إنا نعطيكم ثلاثين شاة^{٤٣٨}.

فانطلق الصحابي (أي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه) ينفخ عليه بالقرآن، فقرأ بفاتحة الكتاب الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...، حتى صحَّ وشفى كأنه ما كان مريضا من قبل ولم يُلدغ أبدا، فأوفوا موعدهم بإعطاء الشياه الموعودة، فطلب بعض من المسلمين أن يقسموها فيما بينهم ولكن الراقي قال لهم لا نقسمها حتى تأتي رسول الله كي يقضي لنا الأمر، فوصل الرهط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكاه ما حصل لهم في هذا السفر، فاستحب النبي صلى الله عليه وسلم بما فعلوه، فقال ﷺ: (ما أدراك أنها رقية) أي استحسنته صلى الله عليه وسلم بما فعل أصحابه من غير أن يعرفوه من قبل، وقال قد أصبتم ما فعلتم، حتى طلب منهم كي يجعلوا له نصيبا منه، كأنه أراد المبالغة في تأنيسهم وتشجيعهم^{٤٣٩}. وهذا ما سبق من محاصل الكلام من شروحات العلماء التي فُصّلت في كتبهم.

نظرية الترابط في هذا الحديث:

قد برز لنا خلال مطالعة شرح الحديث أن كثيراً من أسلافنا كانوا يرون على صحة الرقية والتعويد بالقرآن أو بالأذكار ما دام على وفق الشريعة مستعينا بآية القرآنية أو الأدعياء النبوية، من غير أن يأتي الراقي بالسحر ويستعين به، أو لا يجعله حرفة، ولا يختاره فرصة لكسب المال، فلا يوجد

^{٤٣٦} هو الطائفة من الغنم وسائر التعم. قال أهل اللغة: الغالب استعماله فيما بين العشر والأربعين، وقيل: ما بين خمس عشرة إلى خمس وعشرين، وجمعه أقطاع وأقطعة وقطعان وقطاع وأقاطيع كحديث وأحاديث. أنظر: المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٨٧.

^{٤٣٧} أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٤، ص ١٨٧.

^{٤٣٨} أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، ص ١٨٥٨.

^{٤٣٩} أنظر: أبا زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٤، ص ١٨٧.

خلاف بعيد بين المحدثين والمتصوفين المعتدلين في صحة هذا العمل ما دام محفوظا عن جانبه السلبي بابتلاء الأسحار أو وساوس الشياطين، أو كلمة الكفر والشرك.

هناك أقوال بعض المحدثين في مشروعية هذا الأمر، ولكنني أكتفي بما قال الإمام النووي في هذا الجانب شرحا لقوله صلى الله عليه وسلم: (ما أدراك أنّها رُقِيَةٌ) : "فيه التصريح بأنها رُقِيَةٌ، فيستحب أن يقرأ بها على اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات"^{٤٤٠}.

وأما في جواز أخذ الأجر على الرقية يقول رَحِمَهُ اللهُ في شرح قوله عليه السلام: «خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»: "هذا تصريح بجواز أخذ الأجرة على الرُقِيَةِ بالفتحة والذكر، وأنها حلالٌ لا كراهة فيها، وكذا الأجرة على تعليم القرآن، وهذا مذهب الشافعي ومالك وأحمد وإسحاق وأبي ثور وآخرين من السلف ومن بعدهم، ومنعها أبو حنيفة في تعليم القرآن، وأجازها في الرُقِيَةِ"^{٤٤١}.

مع أن هذا الحديث صريح فيه فلا يحتاج إلى أي تأويل أو تفصيل، ولذلك نرى كثيرا من المحدثين قد أقاموا بابا خاصا في هذا الموضوع، كما فعل البخاري، حيث وضع بابا خاصا في باب "الرقى بفتحة الكتاب"، ومسلم في باب "جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار"، وأبو داود في باب "كسب الأطباء"، والترمذي في باب "ما جاء في أخذ الأجر على التعويد"، وابن ماجه في باب "أجر الراقي"،^{٤٤٢} فهذا أيضا يدل على موافقتهم بصحتها.

ومن هنا يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: "إن من الرسوم أو العادات لبعض مشائخ هذا القوم بأنهم أحيانا يأخذون مبلغا خاصا على التعويد أو الرقية، أو يحددون الأجرة عليها اتباعا لعمل الرسول وأصحابه، فهذا شيء مشروع ويليق بشأنهم، وهذا الحديث يؤيد هم بهذا الرسوم والعمل، ولكن على أن لا يوجد فيه أي نوع من مخالفة الشرع، وما دام الراقي محفوظا عن كل الخداع، وبعيدا عن استخدام كلمات السحر أو الكفر والشرك، ولا يجعله حرفة له أو فرصة في كسب المال لإزدحام الناس عليه"^{٤٤٣}.

^{٤٤٠} أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٤، ص ١٨٧.

^{٤٤١} المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٨٨.

^{٤٤٢} كما سبق تخريجه من قبل تحت عنوان "تخريج الحديث" الحديث رقم ١٤٧/١٣.

^{٤٤٣} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٩٦.

قلت: لما يكون الأمر مراعيًا بهذه الشروط فلا خلاف بين المحدثين والمتصوفين في جواز الرقية، وإلا فيه خلاف شاسع، وهذا الخلاف لا ينحصر بين المحدثين والمتصوفين، بل الخلاف يشتد بين المتصوفين أنفسهم من بين المعتدلين والمغتلين، وأهل الحق والباطل منهم، فحينذاك يكون الخلاف بسبب شئ عارضٍ خارجي تعرض على هذا الأمر من خارجه ولا من داخله، لأن الرقية ثابتة بالشرع صراحة، كما سبق تفصيله من قبل.

المطلب الثالث

"الأقوال" وحققتها في السنة النبوية

الأقوال:

الأقوال جمع قولٍ، ولكن المراد هنا بعض الاصطلاحات الخاصة لهذا القوم، لأن لكل قوم لهم المصطلحات الخاصة والتعبيرات المستقلة، كذلك هذا القوم لديهم بعض المصطلحات في شئوهم السلوكية، كما يقول الشيخ التهانوي رحمته الله في التعريف: "ومن أهم اللوازم في هذا الفن هي بعض التعبيرات الصوفية، من حيث اصطلاحاتهم الخاصة في هذا الفن، فأنسب لنا أن نعبرها بـ(الأقوال)"^{٤٤٤}، فمن الأقوال مثل (كل ما شغلك عن الحق فهو طاغوتك)، و (القلب أرض الله الواسعة)، و(الجهاد بالشیطان)، و (أكبر الجهاد جهاد النفس)، و(من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع الصوفية)"^{٤٤٥}، وما ألى ذلك.

الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع:

بعد تفقد عميق قد برز لنا أنه رحمته الله أورد في هذا الموضوع حوالي أربعة عشر حديثًا في إثبات مختلف الجزئيات له، ولكننا نكتفي على الإثنين فقط، رعاية إلى هذا البحث وحجمه. ومن هنا نلقى الضوء على الأقوال التي تؤدي الأمة إلى الاختلاف كثيرًا، وهذا الخلاف قد يشتد فيما بين الصوفية والمحدثين.

^{٤٤٤} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

^{٤٤٥} أنظر: المصدر السابق، ص ١٠٨ و ١٩١ و ٣١٩ و ٣٤٨.

(١) ومن أقوالهم "القلب أرض الله الواسعة":

ومن أقوال المتصوفين: أن قلوب الناس أرض الله الواسعة^{٤٤٦}، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى كما يقدر على أن يحيي الأرض بعد موتها وينزل الغيث عليها وينبت الزروع فيها، كذلك هو قادر على إحياء القلوب بعد موتها، فينبت فيها شجرة الإيمان أصلها ثابت وفرعها في السماء، فيحييها بالتذكرة بعد الغفلة وبالإيمان بعد الكفر، فهذا الاصطلاح موافق مع مقاصد شريعتنا الإسلامية، وقد ورد فيه أقوال الصحابة والتابعين على وفق هذا القول، خاصة في تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾^{٤٤٧}.

ومن هنا يذكر الشيخ التهانوي رحمه الله حديثنا عن ابن عباس الذي أورده بعض المحدثين والمفسرين في تفسير الآية المذكورة، ويليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ١٤/٤٧: عن ابن عباس رضي الله عنه: في قوله تعالى: { اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } [الحديد : ١٧]. قال : يُلَيِّنُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَوْتِهَا، فَيَجْعَلُهَا مُخْبِتَةً مَنِيتَةً، يُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِالْعِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ، وَإِلَّا فَقَدْ عُلِمَ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ مُشَاهَدَةً. (أخرجه الرزین)^{٤٤٨}.

تخریج الحديث: أخرجه أئمة الحديث والتفسير عن عبد الله ابن عباس في تفسير قوله تعالى: « اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (الحديد: الآية ١٧) فأخرجه ابن الأثير في "جامع الأصول في أحاديث الرسول"^{٤٤٩}، وذكره الإمام السيوطي في الدر

^{٤٤٦} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ١٠٨.

^{٤٤٧} الحديد. ١٦-١٧.

^{٤٤٨} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ٤٧، نقلا عن الرزین. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة

الأنيفة، ص ١٠٧-١٠٨.

^{٤٤٩} راجع: مجد الدين أبا السعادات ابن الأثير الجزري (ط ١، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م) جامع الأصول في أحاديث الرسول.

تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مكتبة دار البيان، تفسير سورة الحديد، رقم ٨٣٣، ج ٢، ص ٣٧٦.

المنثور، تفسير سورة الحديد، من طريق عبد الله ابن مبارك عن ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ "تليين القلوب بعد قسوتها" ^{٤٥٠}، وكذلك إمام الشوكاني في فتحه، ولكن ابن مبارك أتى بهذا الحديث في "الزهد" من غير إسناد إلى عبد الله بن عباس، وإنما يسند إلى صالح المري ^{٤٥١}، وأخرجه أبو عبد الله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، خصائص النبي الأمي وفي سر قوله أعطيت خمسا ^{٤٥٢}، والخازن في تفسيره، سورة الحديد ^{٤٥٣}.

الحكم على الحديث: ما وجدت أحداً أن يُخرجه بإسناده الكامل ولا أحداً يوصله إلى ابن عباس من غير إنقطاع، لأن عبد الله بن مبارك لم يثبت له اللقاء مع ابن عباس كما هو الظاهر، ولم أجد أحداً قد حكم عليه صحة وضعفاً، إلا أن العلماء قد وافقوه من حيث المعنى، لأن كثيراً من المفسرين والمحدثين أثبتوا بهذا التشبيه في كتبهم كما يظهر لنا في تفسير آية المذكورة من سورة الحديد ^{٤٥٤}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: هذا الحديث من قبيل آثار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي ورد في تفسير قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، إبرازاً لتشبيهه قلوب البشر مع الأرض، وذلك بأن الله سبحانه وتعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ويجهزها للزراعة فتنبت فيها الأشجار والزرور كذلك يُليّن القلوب بعد قسوتها وشدها، ثم يوصفها بالخشوع والطمأنينة

^{٤٥٠} راجع: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (ط ٣، ١٩٩٣م) الدر المنثور في التاويل بالمأثور. بيروت: دار

الفكر، ج ٨، ص ٥٧.

^{٤٥١} راجع: عبد الله بن المبارك (ط ٣، ٢٠٠٢م) الزهد ويليهِ الرقائق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب

العلمية، ج ١، ص ٨٨.

^{٤٥٢} راجع: محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي (ط ١، ١٩٩٢م) نوادر الأصول في أحاديث الرسول

صلى الله عليه وسلم، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجليل، ج ٣، ص ١٤٧.

^{٤٥٣} راجع: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الخازن (ط ١، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م) تفسير الخازن، بيروت: دار

الفكر، ج ٧، ص ٣٥.

^{٤٥٤} سوف يأتي تفصيله قريباً في التحليل البياني مع إسناده إلى ما قاله العلماء. إنشاء الله.

ويرزقها التوبة والرجوع، فأحياء الله القلوبَ بالعلم والحكمة، فهو أمر عقلي، يظهر بالتدبر والتفكير، وإحيائه الأرضَ بالمطر أمر حسي يحصل بالمشاهدة^{٤٥٥}.

فهذا التفسير شائع بين العلماء من المفسرين والمحدثين، ونرى كثيرا منهم قد أقاموا بهذا التفسير في كتبهم وأنصبوا هذا التشبيه بين القلب والأرض، كما فعل أبو الحسن الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) في تفسيره، فقال تفسيرا لقوله تعالى: " {اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها} فيه ثلاثة أوجه: أحدها: يلين القلوب بعد قسوتها، الثاني: يحتمل أنه يصلح الفساد. الثالث: أنه مثل ضربه لإحياء الموتى^{٤٥٦}. والإمام عز الدين بن عبد السلام (المتوفى: ٦٦٠هـ) في تفسيره، فقال: { يُحْيِي الْأَرْضَ } يلين القلوب بعد قسوتها أو مثل ضربه لإحياء الموتى^{٤٥٧}. وكذلك إمام ابن كثير (المتوفى ٧٧٤هـ) في تفسيره، وما يقوله في تفسير قوله تعالى: { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } "فيه إشارة إلى أنه، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث المتأن، كذلك يهدي القلوب القاسية براهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضلل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال^{٤٥٨}، وأيضا الإمام السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) ذكره إسنادا إلى ابن عباس عن طريق ابن مبارك^{٤٥٩}، وغيرهم كثير من المفسرين والمحدثين حديثا وقديما الذين أتوا بهذا التفسير في كتبهم.

^{٤٥٥} راجع: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري (ط ١٣٨٩، ١ هـ / ١٩٦٩ م) جامع الأصول في أحاديث

الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الكويت: مكتبة دار البيان، ج ٢، ٣٧٦.

^{٤٥٦} أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ط ٢، ١٩٩٩ م) النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم،

بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٥، ص ٤٧٨.

^{٤٥٧} عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ط ١، سنة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م) تفسير العز بن عبد السلام. تحقيق:

عبد الله بن إبراهيم الوهبي، بيروت: دار ابن حزم، ج ١، ص ١١٨٧.

^{٤٥٨} أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (ط ٢، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن

محمد سلامة، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ج ٨، ص ٢١.

^{٤٥٩} عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التأويل بالمأثور، ج ٩، ص ٤١٩.

قلت: إنَّ سياق الآية يدل على حقيقة إبراز العلاقة بين الأرض والقلب، والمادة والروح، كما ذكرنا من قبل، أن الإسلام هو دين يربط بين الروح والجسد، الذي ينسب العلاقة بين المادة والروح والظاهر والباطن، فنفكر في هذه الآية الكريمة ولماذا أن الله سبحانه وتعالى ذكر الأرض هنا مع قسوة القلب؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما هو القادر المقدر على إحياء الأرض وهي جماد بعد موتها، فهو كذلك قادر على أن يحيي القلوب بعد موتها، فيحييها بالتذكرة بعد الغفلة، وبالإيمان بعد الكفر، وبالذكر بعد النسيان، وكأن هنا تنبيه! لا تئسوا من رحمة الله، إن مضى عليكم شيء، ووقع على القلوب قسوة، فجددوا ذكر الله، وجددوا العلاقة مع الله، فإن الله قادر على أن يعيد لتلك القلوب حياتها، وتحيا بذكر الله، وما نزل من الحق، كما تحيا الأرض بعد موتها، ونحن نشهد على هذا.

وكذلك نرى بأن الله سبحانه وتعالى يشبه قلوب الكفار بالجماد والحجارة قسوة، ويقول بل هي أشد قسوة من الحجارة قبولا للحق والخشعة من الله، أنظر ما أحسن قوله سبحانه وتعالى في هذا القبيل: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"^{٤٦٠}. فصاحب الظلال يقول في تفسيره: "والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أحذب وأقسى .. هي حجارة لهم بها سابق عهد، فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى. قلوب قاسية جاسية مجذبة كافرة. ومن ثم هذا التهديد: {وما الله بغافل عما تعملون}"^{٤٦١}.

نظرية الترابط في هذه القضية:

كما ثبت لنا فيما سبق أن هذا الاصطلاح شائع بين العلماء من المحدثين والمفسرين وكان هذا معروفا لديهم منذ عصر النبوي، فما كان المتصوفون يُدعونه من قبلهم، بل هو مأخوذ من اصطلاح أسلافنا منذ عصر الصحابة والتابعين، فاعتمادا على هذا يقول الشيخ التهانوي: "إن بعض

^{٤٦٠} البقرة الآية ٧٤.

^{٤٦١} سيد قطب إبراهيم حسين الشاري، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٣.

مشائخ الصوفية يعبرون بالقول: (إن القلوب أرض الله واسعة) فهذا الحديث يؤيدهم بهذا الاصطلاح^{٤٦٢}.

(٢) ومن أقوالهم: "من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف":

إن كثيراً من دلائل القرآن والسنة تُرشدنا إلى صحبة الصالحين وأولياء الله وتشجعنا على تعاملهم معاملة حسنة، كما يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ"^{٤٦٣} فقال عبد الله بن عمر في تفسيره: أي كونوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة^{٤٦٤}. بناءً على هذا المعنى يقال: من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف، فهذا القول يُشبه من حيث اللفظ قوله تعالى: "فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا"^{٤٦٥} فهذا القول كناية لمعنى: بأن من يريد إلى التقرب إلى الله فعليه صحبة الصالحين والاهتمام بشأنهم وإكرامهم وإطاعة أوامرهم، فمن كان يعمل معهم معاملة حسنة فكأنه عمل مع الله حسنة فأرضاه، ومن يُسيء معهم سيئة فكأنه أساء مع الله فأغضبه، لأن الله يحبهم كأوليائه وأحبابه، ففي هذه النسبة أن الشيخ التهانوي رحمه الله قد أورد حديثاً، وحاول أن يؤيد به هذا القول، ويليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ٣٠٢/١٥: عَنْ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ يَا إِخْوَتَاهُ أَغْضَبْتَكُمْ قَالُوا لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي" (رواه مسلم)^{٤٦٥}.

^{٤٦٢} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٠٨.

^{٤٦٣} التوبة، الآية ١١٩.

^{٤٦٤} أنظر: أبا الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٢٣٤.

^{٤٦٥} الحديث الكامل، بما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، هو: "حدثنا محمد بن حاتم حدثنا بجز حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن معاوية بن قرّة عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى علي سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها قال فقال أبو بكر أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم

تخريج الحديث: أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن معاوية بن قرّة عن عائذ بن عمرو^{٤٦٦}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث:

ومن المعلوم أن الحديث ذكره الشيخ التهانوي رحمه الله حسب عادته بالاختصار اكتفاءً على موضع الاستشهاد، وإلا أنه حديث طويل يحكي عمّا حدث فيما بين أبي بكر الصديق وبين سلمان وبلال وصهيب ومن أمثالهم رضي الله عنهم أجمعين، وذلك بأن أبا سفيان لما أتى إلى المدينة بعد صلح الحديبية وهو على كفره فمر بسلمان وصهيب وبلال (ومن أمثال هؤلاء الموالي والضعفاء في شئون الدنيا) فقالوا: ما أخذت سيوفُ الله من عدو الله مأخذها أي ما استوفت حقها من المكافأة له، كأنهم لم يشفوا أنفسهم مما فعل بهم أسيادهم من قريش الذين كانوا يعذبونهم ويؤذونهم في دين الله عز وجل، فكان أبو بكر رضي الله عنه لامهم على ذلك، وقال: أتقولون لسيد قريش هذا الكلام؟ ثم إن أبا بكر أحبر النبي صلى الله عليه وآله بذلك فقال صلى الله عليه وآله له: "لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك" يعني أغضبت هؤلاء النفر مع أنهم من الموالي وليسوا بشيء في عداد الناس وأشرفهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى هؤلاء النفر وسألهم آغضبتكم، قالوا لا قال يا إخوانه آغضبتكم قالوا لا يغفر الله لك يا أبا بكر^{٤٦٧}، فدل هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يترفع على الفقراء والمساكين ومن ليس لهم قيمة في المجتمع، لأن القيمة الحقيقية هي قيمة الإنسان عند الله، كما قال الله تعالى: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" والذي ينبغي للإنسان أن يخفض جناحه

فأخبره فقال يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك فأتاهم أبو بكر فقال يا إخوانه آغضبتكم قالوا لا يغفر الله لك يا أخي" ولكن الشيخ التهانوي أتاه بالاختصار اكتفاءً على موضع الاستشهاد فقط.

^{٤٦٦} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري بن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله تعالى عنهم، رقم ١٧٠ - (٢٥٠٤)، ص ١١١٨.

^{٤٦٧} أنظر: العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، شرح رياض الصالحين، باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة

والمساكين...، ج ١، ص ٣٠٨.

للمؤمنين ولو كانوا غير ذى جاه، لأن هذا هو الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال { واحفض جناحك للمؤمنين }^{٤٦٨}.

نقطة الترابط من هذا الحديث: هذا الحديث قد ورد في فضائل أهل الله وأصفيائه، فكثير من أئمة الحديث وضعه في فضائل سلمان وبلال وصهيب ومن أمثالهم رضي الله عنهم أجمعين، كما فعل الإمام مسلم والإمام النووي وغيرهم، فالحديث يدل على اهتمام شؤون أحبائه الله، وعلى مراعاة قلوب أهل الدين وإكرامهم وملاطفتهم، خاصة الضعفاء الذين تفرغوا لأجل الدين، وكانوا قادرين على حصول الأموال والجاه، ولكنهم أفدوا طول حياتهم في حب الله وصحبة رسوله وأوليائه، وتحملوا كل الشدائد والمصائب في إعلاء كلمته، حتى رضي الله عنهم ورضوا عنه، فلا لأحد أن يؤذيهم أو يحقرهم لأنهم من أحبائه الله، فالله يغضب بيغضبهم ويرضى برضائهم، لأن المحب يجب ما يحب محبوبه ويغضب ما ييغضب محبوبه ويوالي من يوالي محبوبه ويعادي من يعاديه ويرض لرضاه ويغضب لغضبه، وهذا هو شأن الحب، كما ورد فيه حديث قدسي يؤيد بهذا الأمر، وهو من قبيل الشاهد لحديثنا هذا، بما أخرجه الإمام البخاري والنووي والآخرون من أئمة الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"^{٤٦٩}.

فالحديث ذكره المحدثون والمتصوفون في فضائل الأولياء، وهناك التفاصيل العلمية الطويلة، وتصانيف مستقلة على شرح هذا الحديث، فلا نتطرق إليها بل نكتفي بقدر ما يكفينا في هذا المجال، وهو كما ثبت أنه من أراد مصاحبة حسنة مع الله فعليه أن يعامل أوليائه معاملة حسنة، والاهتمام بشؤونهم في حصول التقرب إلى الله، فيهتم مجالسهم كاهتمام مجالس الدين ومجالس الله.

^{٤٦٨} الحجر، الآية ٨٨.

^{٤٦٩} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠٢، ص ٥٤٥.

ومن هنا يقول الشيخ التهانوي رحمه الله : "ومن الأقوال المشهورة لهذا القوم (من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف)، فهو مؤيد بهذا الحديث، حيث أن قول النبي ﷺ: (لإن أغضبتهم) يدل على معنى: كيفما يُعاملُ مع أولياء الله كأنه التعامل مع الله، بناءً على ذلك يصح أن يقال: إن المجالسة مع الأولياء كأنه مجالسة مع الله، وأما استعمال كلمة (مجالسة) في مثل هذا المعنى يصح بما ثبت بحديث آخر^{٤٧٠} (أنا جليس من ذكرني)^{٤٧١}، أي أنا قريب وصاحب من ذكرني ودعائي، و يكون صحبتي معه.

قلت: إن هذا الحديث "أنا جليس من ذكرني" من الإسرائيليات بما رواه التابعي الجليل كعب الأحبار. ومن الضوابط في الإسرائيليات بأنها لا تقبل ولا ترد حتى أن توافقها النصوص الإسلامية فتقبل، أو تخالفها فترد، ولكن هذا ماورد عن كعب فهو مؤيد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^{٤٧٢} فلا يرد. والله أعلم بالصواب.

^{٤٧٠} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٣٤٨.

^{٤٧١} راجع: أبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان للبيهقي، رقم ٦٨٠، ج ١، ص ٤٥١.

^{٤٧٢} البقرة، الآية ١٨٦.

المبحث الثالث: الحقائق العلمية والإرشادات النبوية في دور التصوف

ويشتمل هذا المبحث على:

المطلب الأول: "التعليمات" وحققتها في ضوء السنة

المطلب الثاني: "المسائل" وحققتها في نظر السنة النبوية

المطلب الثالث: "التوجيهات" في رد الشبهات عن التصوف

المطلب الرابع: "الإصلاح" والدور التجديدي في التصوف الإسلامي بضوء الحديث النبوي

المبحث الثالث

التحقيقات العلمية مع الإرشادات النبوية في دور التصوف

جدير بالذكر أن لكل قوم لهم التحقيقات العلمية الخاصة التي تتميز بها القوم، كذلك هذا القوم لهم تحقيقات خاصة واختراعات متميزة في مجال السلوك والإحسان، ولهم أسلوب خاص في تربية النفوس، ولهم جواب خاص في ردّ الشبهات على أفكارهم ونشاطهم، وكذلك لهم الدور الإصلاحية والتجديدي في داخل شئوهم، فلذلك هذا المبحث يستوعب على أربعة مضامين التصوف المذكورة في "الحقيقة" وهي: "التعليمات" وحققتها في ضوء السنة، و"المسائل" وتوافقها مع السنة النبوية، و"التوجيهات" في رد الشبهات عن التصوف، و"الإصلاح" والدور التجديدي في التصوف الإسلامي.

المطلب الأول

"التعليمات" وحققتها في ضوء السنة

التعليمات:

التعليمات هي من التعليم، ويراد به تنبيه النفس لتصور المعاني^{٤٧٣}، فالتعليمات هنا: هي عبارة عن بعض التنبهات والإرشادات والتحذيرات، ومختلف أساليب الأعمال وطريقتها من مشائخ السلوك في هذه الطريقة التي تعين في معالجة الأمراض النفسية للسالكين والمريدين وتحافظهم عن الوسواس النفسية والعقلية، كما عرفها الشيخ التهانوي رحمه الله تعالى بقوله: " وهناك بعض الأشياء من المتعلقة واللوازم التي تعالج الأمراض الباطنية أو تدافع عن الاشتباهات والاختلاط النفسية والعقلية، أو تعبر عن بعض القواعد أو المسائل لهذا الفن التي تسمى (التعليمات) في هذا الفن"^{٤٧٤} فمن أهم التعليمات مثل إرشاد المشائخ للمريدين بالتوسط في المجاهدة والعبادة، والابتعاد عن الغلو فيهما، وعدم الاهتمام بالتلذذ في الذكر والعبادة، وعدم الالتفات إلى الخطرات البالية والوساوسة النفسية، وعدم التضجر والتذمر في حالة القبض، والاستبراء من الوسواس النفسية بذكر الله،

^{٤٧٣} زين الدين عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ج ١، ص ١٨٨.

^{٤٧٤} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

وينبغي أن تكون حُجْر العبادة فارغة عن الزوائد، وينبغي للسالك أن يكتُم أسرارَه، وما إلى ذلك من مختلف التعليمات. بما فصلها الشيخ التهانوي على وفق الإرشادات النبوية، فأورد فيها أحاديث كثيرة.

الأحاديث الواردة في التعليمات:

وفي هذه النسبة نجد أن الشيخ التهانوي رحمه الله قد جمع في هذا الأمر ثمانية وعشرين حديثاً تقريباً، الذي يؤيدها مع جزئياتها المختلفة، وقد استطاع رحمه الله خلال هذه الأحاديث أن يربط روابط قويا بين التعليمات الصوفية والسنة النبوية بحسن استنباطه وقوى ذهنه الوقادة، ويملك عدة التعليمات مع الأحاديث الواردة فيها بالاختصار.

١ - التوسط في المجاهدة والرياضة وما ورد فيه من الأحاديث:

ومن أهم تعليمات الشيوخ أنهم يحذرون مریدهم عن تجاوز الحد في المجاهدة والرياضة، ويرشدونهم برعاية الصحة والطاقة، فهذا على وفق الإرشادات النبوية بما أرشدها صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه مانعا عن الإفراط والتفريط، ويملك هذا الحديث:

الحديث الشريف: ١٥/٩: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَيْنِ فَقَالَ مَا هَذَا الْحَبْلُ قَالُوا هَذَا حَبْلٌ لِرَيْبٍ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا حُلُوهُ لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطُهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ" (أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي) ^{٤٧٥}

تخریج الحديث: قلت: أخرجه الشيخان في صحيحيهما، فأما الإمام البخاري (واللفظ له) من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وكذلك الإمام مسلم في صحيحه، وأيضاً أبو داود والنسائي و ابن ماجه كلهم من نفس الطريق في سننهم ^{٤٧٦}.

^{٤٧٥} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ٩، نقلا عن البخاري وأبي داود والنسائي، واللفظ للبخاري. أنظر: أشرف علي

التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأئمة، ص ٦٧.

^{٤٧٦} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم

١١٥٠، ص ٨٩-٩٠.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: قد توضح لنا خلال هذا الحديث مما نقله أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل المسجد النبوي فإذا حبل مربوط بين عمودين فقال ما هذا؟ قالوا هذا حبل لزيب^{٤٧٧} تربطه فإذا تعبت من الصلاة تعلقت به من أجل أن تنشط فقال النبي صلى الله عليه وسلم حلوه أي أخروه وأزيلوه ثم قال ليصل أحدكم نشاطه فإذا تعب فليرقد.

ففيه دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يتعمق وأن يتنطع في العبادة وأن يكلف نفسه ما لا تطيق، فعليه أن يصلي ما دام نشيطاً فإذا تعب فليرقد ولينم.

جدير بالذكر أن هذا وإن ورد في الصلاة فإنه يشمل جميع الأعمال فلا ينبغي لأحد أن يكلف نفسه ما لا طاقة لها، بل يعامل معها بالرفق واللين حتى أن تتعود بها، ولا تعارض عنها، فهذا كما هو المفهوم من مفاهيم المحدثين، فنرى أن البخاري ذكره تحت عنوان "باب ما يكره من التشديد في العبادة"، ويقول الحافظ بن حجر في شرحه: "وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق فيها"^{٤٧٨}، وقال ابن بطال في شرحه: "إنما يكره التشديد في العبادة خشية الفتور وخوف

وأبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم ٢١٩ - (٧٨٤)، ص ٨٠١.

وأباداود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، أبواب قيام الليل، باب النعاس في الصلاة، رقم ١٣١٢ ص ١٣٢٠.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، سنن النسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب إحياء الليل، رقم ١٦٤٤، ص ٢١٩٧.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في المصلي إذا نعس، رقم ١٣٧١، ص ٢٥٥٨.

^{٤٧٧} وهي زينب بنت جحش بالأصح، و في بعض الروايات بأنها حمنة بنت جحش، كما في رواية أحمد عن أنس، فوفق بينهما صاحب دليل الفالحين هكذا: " إن كلاً من بنات جحش تدعى زينب فيما قيل، فالحبل لحمئة وأطلق عليها زينب باعتبار اسمها الآخر " أنظر: دليل الفالحين، ج ٢، ص ٦٩.

^{٤٧٨} أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٣، ص ٣٧.

الملل، ألا ترى قوله : (خير العمل ما دام عليه صاحبه وإن قل) وقد قال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)^{٤٧٩}، فعلى العابد أن يسلك في كل الأمور بالتوسط من غير إفراط ولا تفريط.

قلت: وفيه حديث آخر يصرح بهذا الاعتدال ويدعو المسلمين إلى التطبيق بين جميع النواحي من الحياة بالاعتدال، بما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث إجماع النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، ففيه قال سلمان لأبي الدرداء: "إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه"^{٤٨٠}.

نقطة الترابط في هذه المبحث: هذا ما استفدناه من أقوال المحدثين التي تساوي ما يقول به المتصوفون المعتدلون، كما يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: "قد اتفق أئمة السلوك على أنه لا ينبغي للسالك أن يبالغ في المجاهدة والرياضة حدا ما لا تطيق نفسه أو ما يُتعب نفسه أو يُخل صحته، فهذا الحديث خير دال في هذا القبيل. أما المنقول عن بعض الصوفية من مبالغتهم وكثرتهم فيها فلا يخالف الحديث أيضاً لأن في غلبة الشوق وشدة المحبة لا تعارضهم الفتور ولا الضعف، فالقعود في هذا الحديث مترتب على الفتور"^{٤٨١}.

قلت: كما عرفنا من مفهوم الحديث، وما دلت عليه أقوال المحدثين، بأن الغلو في المجاهدة وتجاوز الحد في العبادة ممنوع في كل حال سواء كان في غلبة الشوق والرغبة أو في غيرها، لأن كما هو معروف لدينا بأن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا أشد الناس حلاوةً بالإيمان ورغبةً إلى الأعمال الصالحة، وكانوا أقوى الناس ممن سلكوا طرق المجاهدة، ويعتبرهم نموذجاً حياً في ترك الدنيا والرغبة عنها، وقدوة مضيئة في السبق إلى الخيرات، فلا مثل لهم لا من قبلهم ولا من بعدهم،

^{٤٧٩} أبو الحسن علي بن خلف ابن بطلال (ط ٢، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) شرح صحيح البخاري. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ج ٣، ص ١٤٤.

^{٤٨٠} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف، رقم ٦١٣٩، ص ٥١٨.

^{٤٨١} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٦٧.

رغم ذلك أن النبي ﷺ نبههم عن المبالغة في المجاهدة والرياضة^{٤٨٢}، لأن الغلو في الأمر والإفراط والتفريط وأمثالها لا تأتي إلا بالفساد، فلذلك أن الرسول ﷺ لم يشجع أصحابه إليها أبداً، بل نبههم عنها في جميع الحالات، وهذا الحديث من نموذج هؤلاء الأحاديث فقط، وإلا هناك أحاديث كثيرة التي تعبر التنبيهات عن الغلو في العبادات لكثير من أصحابه صلى الله عليه وسلم، وفيه حديث روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: "من هذه؟ قلت: فلانة، لا تنام بالليل، تذكر من صلاتها، فقال: "مه عليكم ما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا"^{٤٨٣}.

فهكذا الإسلام يدعونا إلى التوسط والاعتدال في المجاهدة والرياضة.

٢ - ومن التعليمات "عدم التضجر في حالة القبض"

ومن أهم إرشادات الصوفية هي الصبر في حالة القبض، لأنها من أهم المقدمات للبسط، لأجل ذلك، على السالك أن يكف نفسه لما يقع في حالة ضيقة، ويصبر على ما أصاب عليه في هذه الحالة حتى أن يوسع الله له الأمور، فهو من أهم إرشادات نبينا صلى الله عليه وسلم، بما حصلت في عدة مجال من إرشادات الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هذه المجالات واقعة الحديبية، وفيه حديث قد أورده الشيخ التهانوي مستدلاً في هذا الجانب، ويليك الحديث مع شرحه بالاختصار.

الحديث الشريف: ١٦/٤٦: عن أنس رضي الله عنه قال: نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} وفيه: فَالْفَتْحُ الْمُبِينُ هُوَ فَتْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ. (أخرجه الشيخان والترمذي)^{٤٨٤}.

^{٤٨٢} الرياضة عند الصوفية: "تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات والتخلي عن الشهوات" أنظر: أحمد الزيات

وزملائه، المعجم الوسيط، ج ١، باب الرء، ص ٣٨٢، كلمة البحث: "الرياضة"

^{٤٨٣} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم

١١٥١، ص ٩٠.

^{٤٨٤} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ٤٦، نقلاً معنوياً عن الشيخين والترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة

الطريقة من السنة الأنبياء، ص ١٠٧.

تخريج الحديث: ذكره الشيخ التهانوي رحمه الله بمعناه، ولم يأتي بنصه الأصلي، وإلا أن الحديث طويل أخرجه المحدثون عن أنس بن مالك رضي الله عنه، فأما البخاري في صحيحه من طريق قتادة عن أنس بن مالك، والإمام مسلم كذلك من نفس الطريق، والإمام الترمذي نحوه، من نفس الطريق ^{٤٨٥}. قلت: وله شاهد أخرجه الإمام الترمذي بنحوه عن طريق مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم يقول في آخره: "هذا حديث حسن صحيح غريب ورواه بعضهم عن مالك مرسلًا" ^{٤٨٦}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: قد ورد هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} سورة الفتح، الآية (١)، التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من الحديبية مع أصحابه، وكان المسلمون متحيرين وحزناء على ما حصل لهم في صلح الحديبية من تسليم جميع الشروط من الكفار، وهم المجاهدون في الله ولا يخافون إلا الله، ويرغبون إلى الشهادة أكثر مما يحب الناس أن يتمتعوا بالحياة، فكان هذا الصلح كأنه تحقيرا لهم وتذليلا لهم، وكانت الحالة شديدا لأن يصبروا عليها، كما فصل موقفه في حديث آخر، أخرجه ابن حبان في صحيحه "أما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من الحديبية يعني (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة قد حيل بينهم وبين نسكهم ونحروا الهدى بالحديبية فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم لقد نزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعا فقرأها نبي الله صلى الله عليه وسلم عليهم" ^{٤٨٧}.

^{٤٨٥} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٧٢، وكتاب التفسير، سورة الفتح، رقم ٤٨٣٤، ص ٣٤٢ / ٤١٣.

و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم ٩٧ - (١٧٨٦)، ص ٩٩٦.

وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الفتح، رقم ٣٢٦٣، ص ١٩٨٥.

^{٤٨٦} أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الفتح، رقم ٣٢٦٢، ص ١٩٨٥.

^{٤٨٧} أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، شرح مشكل الآثار، ج ١٤، ص ٤٧٤.

فكانت قصة الحديدية مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده بعد أن اشتد عليهم الصبر في موقف الحديدية، فأعطاهم الفتح المبين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فهذه عادة الله سبحانه وتعالى بأنه يأتي باليسر بعد العسر والوسع بعد ضيق والنهار بعد الليل، فصلح الحديدية رغم أنه كان بظاهره ذلة للمسلمين، وكانوا يحسبونه هزيمة لهم، ولكن الله جعله فتحاً لهم وسماه فتحاً مبيناً، فالعبرة التي نعتبرها من موقف الحديدية: بالصبر على ما تصيب بنا من الشدائد والمصائب، والرضاء بما قضى الله من الضيق والأحوال غير مناسبة، وهذا ما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في موقف الحديدية، وعلمهم بالاعراض من التضجر والتذمر في حالة ضيقة، رغم أنه كان شديداً لأصحابه لأن يصبروا عليه.

نقطة الترابط بين تعليمي الصوفية والحديث: كما سبق لنا أن من أهم تعليمات الصوفية حسب النفس في مواجهة الأحوال الضيقة، والرضاء بالقضاء في جميع الأحوال عسراً ويسراً، خاصة عندما يقع في حالة تنضيق له الأمور، التي تسمى في اصطلاح الصوفية بالقبض وعكسه البسط، لأنه ما من قبض إلا وله مصلحة وهو مقدمة لحال البسط، والحديث يثبت ما ذكر من أن صلح الحديدية بظاهره الاستسلام أمام الكفار وهو القبض في اصطلاحهم، مع أنه كان مقدمة لفتح مكة، وهو البسط، ما عبره القرآن بالفتح المبين.

ومن هنا يقول الشيخ التهانوي رحمه الله: "من المعلوم، أن صلح الحديدية كان بظاهره تذليلاً للمسلمين وتحقيراً لهم أمام الكفار بتسليم جميع شروطهم، إلا أنه كان يتضمن مصالحة كثيرة، والذي عبره الله سبحانه وتعالى بالفتح المبين، كما هو الظاهر بتفصيل أنس بن مالك، بناءً على ذلك أن مشايخ الصوفية يستنبطون من هذه القضية أصلاً لتعليمهم، بأن حالة القبض رغم بظاهرها مذمومة ولكنها محمودة بضمنها، ولذلك يختارونها محمودة في تعليمهم لأنها من حيث النفع كمثل حالة البسط، التي تتضمن مصالحة كبيرة، وهي أحياناً تتكون من قبيل المقدمة القوية للبسط كما حدث في موقف الحديدية"^{٤٨٨}.

^{٤٨٨} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأئنيقة، ص ١٠٧.

قلت: رغم أن هذا الحديث لا تباشر دلالاته على هذا الأمر إلا أن أهم العبر والتعاليم التي حصلناها من هذا الحديث توافقه (المتصوفين) بتعليمهم هذا من غير شك.

المطلب الثاني

"المسائل" وحققتها في نظر السنة النبوية

المسائل:

المسائل جمع مسألة، وهي مصدر، تستعار للمفعول يقال: تعلمت مسألة و في الاصطلاح العلمي هي: القضية التي يبرهن عليها^{٤٨٩}، ولكن المراد هنا: هو بعض التحقيقات العلمية والتجربة الذاتية لهذا القوم، فهي من قبيل الأمور التي تتعلق مع التحقيقات العلمية المحضة، كما يقول الشيخ التهانوي رحمه الله: " ويوجد في هذا الفن بعض الأمور من التحقيقات العلمية المحضة، فالأفضل أن نعبرها بـ(المسائل)"^{٤٩٠}، مثل التمثل ثابت بالشرع، وإمكان ظهور الملائكة لغير الأنبياء، ورؤية الله ممتعة ومحال في الدنيا، ومغلوب الحال في السلوك والإحسان معذور ومتعذر، والاعتناء بالأهل والعيال بالاعتدال لاتنافي للكمال، وكرامة الأولياء صادقة وواقعية وما إلى ذلك، فهذه الأشياء قد ثبتت بأحاديث كثيرة خلال هذه الرسالة.

الأحاديث التي وردت في هذا الجانب:

ولاشك أن هذا الموضوع متسع المجال بكثير من التحقيقات والتجارب العلمية، وهي غير متناهية، فالشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ قد وضحها قدر استطاعته العلمية، وأيدها بكثير من الأحاديث التي تبلغ عددها حوالي سبعة وستين حديثاً، ويسند ترابطاً قويا بينها وبين السنة النبوية، ومن هنا بعض النموذج مع التفصيلات العلمية من آراء العلماء بالاختصار، وإبراز الترابط خلالها بين أفكار الصوفية ومسالك النبوية.

^{٤٨٩} أنظر: أحمد الزيات وزملائه، المعجم الوسيط، ج ١، باب السين، ص ٤١١.

^{٤٩٠} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

(١) مسألة التمثل: التمثل من (م، ث، ل) معناه في اللغة: تشبه الشيء أو الرجل مع غيره من حيث الصورة والشكل مع بقاء حاله وصفاته من غير تبديل ذاته وحقيقته، إذا يقال تمثل الشيء أي تصور مثاله، ويقال تمثل الشيء له، وفي التنزيل العزيز: فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا^{٤٩١} أي أن الله سبحانه وتعالى أرسل جبريلا إلى مريم عليها السلام فتشبهه جبريل مثال البشر سليم الجسد.

فالتمثل مما يعتقدون به المتصوفون: بأن ظهور الملائكة أو الجن بصورة البشر أو أي صورحسية من الممكنات سواء كان أن يحدث هذا التمثل في المنام أو اليقظة، وقد وردت فيه نصوص من القرآن والسنة التي تؤيد بحدوث التمثل، ومن هنا قد أورد الشيخ التهانوي بعض الأحاديث من هذا القبيل، ويليك حديث منها.

الحديث الشريف: ١ / ١٧: عِنْدَ النَّسَائِيِّ فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَإِنَّهُ لَجَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ فِي صُورَةِ دَحِيَّةِ الْكَلْبِيِّ »^{٤٩٢}.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الحديث عن أبي هريرة، وأبي ذر رضي الله عنه^{٤٩٣}، وليس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه^{٤٩٤}، فأما الإمام النسائي أخرجه من طريق جرير عن أبي فروة عن أبي زرعة عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنه^{٤٩٥} في حديث طويل.

^{٤٩١} أنظر: أحمد الزيات وزملائه، المعجم الوسيط، ج ٢، باب الميم، ص ٨٥٣، كلمة البحث: "تمثل".

^{٤٩٢} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ١، من غير إسناد إلى أي مراجع من كتب الحديث. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٥.

^{٤٩٣} لعل الشيخ يريد أن يشير إلى الحديث المشهور المسمى بحديث جبريل، أخرجه أئمة السنة، فبعضهم عن عمر بن الخطاب وبعضهم عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهم، ولكن لم يذكر أحد في روايتهم تمثيل جبريل عليه السلام بصورة دحية الكلبي بل أغلبية الحديث يكتفي بلفظ " هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم " أو " فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " أو " ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم " من غير أن يذكر اسم دحية الكلبي، إلا إمام نسائي يذكر اسمه، حيث تمثل جبريل بصورة دحية الكلبي حُسنًا وجمالًا، وحديث نسائي لم يروى عن عمر بن الخطاب وإنما يروى عن أبي هريرة وإبي ذر رضي الله عنهما.

الحكم عليه: حديث ضعيف مع هذه الزيادة « وإنه لجبريل نزل في صورة دحية الكلبي » لأنها من أوهام الراوي، كما قال الحافظ في الفتح: فإن قوله نزل في صورة دحية الكلبي وهم، لأن دحية معروف عندهم، وقد قال عمر: « ما يعرفه منا أحد » وقد أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الإيمان له من الوجه الذي أخرجه منه النسائي، فقال في آخره فإنه جبريل جاء ليعلمكم دينكم حسب، وهذه الرواية هي المحفوظة لموافقتها باقي الروايات الثاني^{٤٩٦}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: الحديث طويل يفصل عن حقائقة الإيمان والإسلام والإحسان، والحديث مشهور بين العلماء بحديث جبريل، الذي يشتمل جميع نواحي العبادات ظاهرة وباطنة، فقال القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة لما تضمنه من جمل علم السنة وقال الطيبي: "لهذه النكتة استفتح به البغوي كتابيه المصاييح وشرح السنة اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً" وقال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلاً، ومن أعمال الجوارح ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه^{٤٩٧}، فلا نتطرق إلى جوانبه المختلفة بل نكتفي بإلماح إلى موضوعنا بالاختصار فحسب، وهو موضوع تمثل الملائكة أو الجن بصور حسية من البشر أو الحيوان أو النبات أو

^{٤٩٤} لعل الشيخ التهانوي رحمته الله أراد أن يشير إلى حديث بما أخرجه إمام مسلم في صحيحه من طريق عبد الله ابن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفيه "إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد"، حتى أن قال: "ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

فلم يذكر فيه إسم دحية الكلبي، ولكنه قابل الاستدلال في باب التمثل لجبريل عليه السلام بالصورة البشرية، لأن العلماء متفقون على أن جبريل قد نزل على رسول الله ﷺ في هذا الموقف بصورة الرجل سواء كان نزوله بصورة رجل معين أو مبهم. راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري بن مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، في حديث طويل رقم ١- (٨)، ص ٦٨١.

^{٤٩٥} راجع: أبا عبد الرحمن أحمد بن علي الخراساني النسائي، سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، صفة الإيمان والإسلام، رقم ٤٩٩٤، ص ٢٤٠٩-٢٤١٠.

^{٤٩٦} أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٢٥.

^{٤٩٧} أنظر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٥.

الجماد. فمن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى جعل للملائكة من الاستطاعة أن تتمثل في صور مختلفة، كما هو البدهي أن جبريل أحيانا كان يأتي رسول الله صلى الله عليه و سلم في صورة دحية الكلبي أو في صورة أعرابي، وراه مرة قد سد بجناحيه ما بين الأفقين، وكذلك جعل للجن أن تتمثل وتتحيل في صور مختلفة، كما جعل للملائكة، قال الله جل وعز: "فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا" وليس ما تنتقل إليه من هذه الأمثلة على الحقائق إنما هي تمثيل وتحويل لتلحقها الأبصار وحقائق خلقها، فحديثنا هذا كذلك من مؤيدة هذه المسئلة أي التمثل، وما من أحد من المحدثين الذي ينكر على هذا الموضوع، ولا ينكر أحد منهم بظهور جبريل لبعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بصورة الرجل، سواء كان بصورة رجل معين أو غير معين فكثير من الصحابة شاهدوا نزول جبريل بصور مختلفة، الذي يظهر من الروايات الكثيرة في مختلف مجالات، ومن هنا نذكر بعض أقوال المحدثين في هذا المجال نموذجاً، كما يقول ابن بطال: ويجوز رؤية بني آدم للملائكة إذا تصورت في صورة يمكن للآدميين رؤيتها، كما كان جبريل يظهر للنبي ﷺ في صورة رجل فيكلمه، وكثيراً ما كان يأتيه في صورة دحية الكلبي^{٤٩٨}، وكذلك يقول أبو بكر الأصبهاني في (مشكل الحديث): وقد ثبت أن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يأتي النبي ﷺ في صور مختلفة تارة في صورة دحية الكلبي وتارة في صورة أعرابي وتارة أخرى قد سد بجناحيه ما بين الأفق، وكذلك قال الله { فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا }^{٤٩٩}، فهكذا ورد في الحديث التشكيلات المختلفة التي يتشكل بها جبريل عليه وسلم، فأحيانا يعم ظهوره لجميع الحاضرين في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وأحيانا يختص لبعض منهم وأحيانا للرسول صلى الله عليه وسلم فقط، كما يقول الشيخ عطية بن محمد سالم: "فجبريل عليه الصلاة والسلام يتشكل بهذه الصورة، وأحيانا كان يتشكل (كما قال صلى الله عليه وسلم) في صورة دحية الكلبي رضي الله

^{٤٩٨} أنظر: أبو الحسن علي بن خلف ابن بطال البكري القرطبي، شرح صحيح البخارى، ج ١٠، ص ٢٥٤.

^{٤٩٩} أنظر: أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني (ط ١، ١٩٨٥م) مشكل الحديث وبيانه. تحقيق: موسى محمد علي، بيروت: عالم الكتب، ج ١، ص ٣١٣.

عنه، وقد كان يأتي في خفاء عن الناس، وأحياناً يأتي ظاهراً عياناً، وقد يراه بعض الناس وقد لا يراه" ^{٥٠٠}.

جدير بالذكر كما يبرز لنا بتمثل الملائكة بمثال البشر كذلك يمكن للجَنَّات أن يتشكل بصورة أشياء حسية سواء كان بصورة البشر أو الحيوان أو غير ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى مكنهم بهذه القدرة حيث أنهم يقدرون على التمثل بصور مختلفة كما يشاءون، وقد ورد فيه أحاديث تُعبّر عن هذا الموضوع، فمنها الحديث الذي جاء به الشيخ التهانوي في "الحقيقة" برقمه الخاص ٢٧، ^{٥٠١} عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلي رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يخبو من الطعام فأخذته" إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: "تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة قال لا قال ذاك شيطان" ^{٥٠٢}. فهذا الحديث يصرح بتمثل الجن من صورة البشر كما كان الحديث السابق يصرح بتمثل الملائكة بصورة البشر، هذا يصرح أيضاً بظهور هذه الأشكال للناس، لأن أبا هريرة رضي الله عنه كان يشاهد الشيطان بصورة الرجل.

و من المعلوم أن هذا الحديث أيضاً يثبت كرامات الأولياء، لأن غلبة الرجل على الشيطان وإمساكه من الأمور الخارقة وهي قدرة خاصة يخصص بها الله المتخصصين له فقط، كما خصص الله تعالى أبا هريرة بهذه الكرامة. والجمهور متفقون على أن كرامة الأولياء حق، فلا خلاف بين أهل السنة والجماعة فيها، إلا بعض العقلانيين والمعتزلة .

نقطة الترابط بين نظريتي السنة والتصوف: كما سبق أن من معتقدات الصوفية هي قضية التمثل، وذلك أن الملائكة أو الجن يقدرون على التمثل بأشكال حسية، والناس قادرون على مشاهدة هذه الصور، فهذا ثابت بالقرآن والسنة، فلا نزاع بين أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، بناءً على ذلك يقول الشيخ التهانوي: "جدير بالذكر أن ظهور الذات بصورة غيره مع البقاء على حاله وصفاته يسمى بالتمثل، والصورة المتمثل به تسمى بالصورة المثالية، فأكثر ما تظهر الصور في المنام

^{٥٠٠} عطية بن محمد سالم، شرح الأربعين النووية، ج ٣، ص ٧.

^{٥٠١} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ٨٧.

^{٥٠٢} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازته الموكل فهو جائز، رقم ٢٣١١، ص ١٨٠-١٨١.

من المعلوم: أن هذا الحديث طويل ولكن الشيخ التهانوي ذكره بالاختصار اكتفاءً بذكر موضع الاستشهاد فقط.

أو الكشف وأحيانا في اليقظة من حيث خوارق العادة فهي الصور المثالية ليس الحقيقة، كما ثبت بهذا الحديث أن جبريل عليه السلام قد تمثّل بصورة البشر، ولكن هذا التمثيل لا يدل على أنه قد تغيرت ذاته الملكية إلى الذاة البشرية، وذاك محال لا يمكن، فهذا التمثيل أيضا تثبت بالقرآن، كما يقول الله تعالى: (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) أي أن جبريل قد تشكل وتشبه لمريم عليها السلام بصورة إنسان تام كامل، فهذا هو حقيقة التمثيل، فلا لأحد أن يعتر بنفسه في قضية التمثيل حتى يُثبت التناسخ، لأن التناسخ هو انتقال الشيء من ذاته وحقيقته إلى ذات آخر، ولكن التمثيل ليس كذلك بل إنما هو تشبه الذات مع الآخر مع البقاء على حاله وذاته^{٥٠٣}.

قلت: هذا ما سبق من كلامه يدل على وسطية منهجه وتسلكه بين منهجي المحدثين والمتصوفين من غير إفراط وتفريط، وسلك في هذا الجانب طريقا مستقيما ومعتدلا متبعا لمسلك أسلافنا من الصحابة والتابعين، ففهم كما فهم هؤلاء في هذا الجانب.

(٢) رؤية الله محال في الدنيا: ومن تحقيقات متصوفين المعتدلين بأن رؤية الله محال في الدنيا^{٥٠٤}، رغم أن بعض المغتلبين من الجهلاء يعتقدون بإمكان رؤية الله في الدنيا، فينبه الشيخ التهانوي رحمه الله على هذه الاعتقاد السفاهية التي تخالف أسرار شريعتنا الإسلامية بالوضاحة من دون خفاء، فالآيات والأحاديث خير شاهد على هذا، ويليك بعض التفاصيل من القرآن والسنة مع أقوال علماء أهل السنة والجماعة من السلف والخلف مستعينا من الحديث الوارد في "الحقيقة".

الحديث الشريف: ١٨/١٣٦: عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ وَفِيهِ "حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"^{٥٠٥}. (أخرجه مسلم)^{٥٠٦}.

^{٥٠٣} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ٥٥.

^{٥٠٤} كما يثبت لنا من حكاية الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله، حيث أنه ما كان يعتقد بإمكانية رؤية الله في الدنيا. سوف يأتي حكايته قريبا في التحليل البياني فيما يلي.

^{٥٠٥} هذا كما ذكره الشيخ بالاختصار في "الحقيقة" ولكن كامل الحديث (كما ورد في صحيح مسلم) عن أبي موسى قال:

تخريج الحديث: أخرجه إمام مسلم في صحيحه عن طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى^{٥٠٧}. وكذلك ابن ماجه في سننه^{٥٠٨}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: هذا الحديث اعتبره العلماء من أهم أحاديث العقيدة، الذي يتضمن عن صفات الله وأفعاله وذاته، فهو متسع المجال يتطرق منه جوانب البحوث والمسائل الاعتقادية، فعلماء العقائد اختاره موضوعا خاصا لبحثهم، وقد صنّف فيه الأبحاث والرسائل والكتب مستقلة، فهذه التفاصيل لا ينبغي لنا أن نخوض فيها، إلا أنها كما ذكر في الحديث باختصار، بأن النبي ﷺ قام ذات يوم بين أصحابه لأن يبين خمس موضوعات أساسية من العقيد الإسلامية، فمنها الأول: أن الله سبحانه لا ينام أبدا ولا يصدر منه النوم، والثاني: أنه لا ينبغي لجل شأنه أن يأخذه سِنَّةٌ ولا نوم، فهو محال عليه، والثالث: أن الله يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد، أو ينقص الرزق باعتبار ما كان يمنحه قبل ذلك ويزيد بالنظر إليه لمقتضى قدره^{٥٠٩}، والرابع: ويعرض عليه أعمال الليل لعباده قبل أن يعرض عليه أعمالهم النهار، وهكذا أعمالهم النهار قبل الليل، والخامس: رؤية الله محال للخلق في الدار الفناء أي في الدنيا ولا يستطيع الناس أن يشبثوا لرؤية الله في الدنيا.

فموضوعنا في هذا الحديث حول كلامه ﷺ: "حِجَابُهُ الثُّورُ لَوْ كَشَفْتَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ" وأقوال العلماء في رؤية الله سبحانه وتعالى سواء كان في الدنيا أو في الآخرة.

قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: "إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور وفي رواية أبي بكر النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه". فاكتمى الشيخ على حسب عادته بذكر موضع الاستشهاد فقط.

^{٥٠٦} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ١٣٦، نقلا عن صحيح مسلم. أنظر: أشرف علي التهانوي، **حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة**، ص ١٨٨.

^{٥٠٧} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري بن مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام إن الله لا ينام....، رقم ٢٩٣ (١٧٩)، و رقم ٢٩٤ (....)، ٧٠٩.

^{٥٠٨} راجع: أبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، **سنن ابن ماجه**، في مقدمته، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم ١٩٥، ص ٢٤٨٩.

^{٥٠٩} أنظر: المحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، ج ١، ص ٥٣٦.

فقوله ﷺ: (حِجَابُهُ النُّورُ) وفي حديثٍ آخر حجابه النار، فالمراد بالحجاب هنا- المانع من رؤيته، ويسمى ذلك المانع نورا أو نارا لانهما يمنعان من الادراك في العادة، كما يقول العلامة المناوي في فيض القدير: "هو محتجب بنور عزته وأشعة عظمتة وذلك الحجاب هو الذي تدهش دونه العقول وتذهب الأبصار وتتحير البصائر فحجابه خلاف الحُجْب المعهودة فكيف يشاهد" ٥١٠.

وقوله: "لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ" فسُبُحات وجهه بضم السين والباء جمع سُبْحَةٍ، قال العلماء: المراد بالوجه الذات، وسُبُحاته نوره وجلاله وبهاؤه، أي ولو كشف الحجاب عن الخلق (وهو الحجاب المسمى نورا أو نارا) فبان لهم هيئته لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته.

فالخلق لا يستطيع أن يرى الله سبحانه وتعالى في الدنيا، لأنه نوراني لا يقدر البشر أن يشاهده بعينه الحادث، ولهذا لما سأل موسى ربه برؤيته فقال ربه لن تراني، كما في قوله تعالى: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ" ٥١١، فهذا نبي الله موسى كليم الله، قادر الكلام معه مباشرة ولكنه عاجز بالنظر إليه، وهذا رسولنا محمد ﷺ لما سأله أبو ذر هل رأيت ربك؟ فيقول: "نور آتني أراه" فقال الإمام أبو عبد الله المازري رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِهِ: "الضمير في - أراه - عائد على الله سبحانه وتعالى، ومعناه أن النور منعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار" ٥١٢ فكيف شأن البشر العادي؟ فهو محال بعيد عليهم كل البعد.

وفيه يقول الله سبحانه وتعالى: "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" ٥١٣، فالأمر واضح بأن رؤية الله محال في الدنيا، وهذا ما يعتقد أهل السنة والجماعة، من علماء الحديث والعقيدة والكلام، وكذلك مشائخ المتصوفين المعتدلين من المتقدمين والمتأخرين، وهذا شيخ مشائخ الصوفية عبد القادر الجيلاني كان مستقيما على عقائد أسلافنا، لم يغتر بوساوس الشيطان اللعين،

٥١٠ الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ج ٢، ص ٣٥١.

٥١١ الأعراف، الآية ١٤٣.

٥١٢ أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٢.

٥١٣ الشورى، الآية ٥١.

كما يحكي عن نفسه، كيف كان يخدعه الشيطان؟ فقال: "ترأى لي نور عظيم ملاً الأفق، ثم تدلي فيه صورة تناديني: يا عبد القادر! أنا ربك! وقد حللت لك المحرمات، فقلت: احسأ يا لعين فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني: يا عبد القادر! نجوت مني بعلمك بأمر ربك وفقهك في أحوال منازلتك"^{٥١٤} فمعنى بعلمك بأمر ربك أي (أنك نجوت بما كنت على بصيرة بأن رؤية الله محال في الدنيا). فهذا بما كان يعتقد مشائخ الصوفية.

رغم ذلك، هناك عدد من الصوفية يعتقدون أن رؤية الله يمكن في الدنيا كما يمكن في الآخرة، وهم بعض الجهلة الذين يتعدون عن حقيقة العلم كل البعد، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فيما بين الناس و المسلمين.

ومن هنا ينبه الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ عن هذه الفكرة الضالة، ويبددها مستدلاً بهذا الحديث، فيقول: "إن أغلبية الجهلة من الصوفية يعتقدون بأن رؤية الله في الدنيا ممكن مثل ما يمكن في الآخرة، فهذا الحديث رد قوي على ما يعتقد هؤلاء الجهال، فيجب عليهم أن يصلحوا ما يعتقدونه من غير علم ولا دليل ولا برهان"^{٥١٥}.

المطلب الثالث

"التوجيهات" في ردالشبهات عن التصوف

التوجيهات:

هي اصطلاح خاص في التصوف، فأراد به الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بعض التأويلات والتفصيلات في توفيق مختلف الأقوال والأساليب لهذا القوم مع العقائد الإسلامية والمسلك النبوية، وذلك لأن فيه بعض الأقوال والاصطلاحات من شكلها الظاهر تدل على أنها مخالفة عن الشريعة، ومتجاوزة عن الحد الشرعي، رغم أنها في الواقع على وفق الشريعة من دون أي تعارض ولاخلاف، غير أنها تحتاج إلى بعض التوجيهات العلمية أوالتأويلات القيمة في إبراز هذه العلاقة، فهذه التأويلات أوالتفصيلات أوالتحليلات عبرها الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بـ "التوجيهات" كما يقول رَحِمَهُ اللهُ في تعريفه:

^{٥١٤} الشيخ أبو الحسن على الحسيني الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ١، ص ٢١٠.

^{٥١٥} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٨٨.

"وهناك بعض الأمور من ظاهرها تدل على أنها خارجة من نطاق الشريعة ولكنها ليست كذلك، وإلا أنها تحتاج إلى بعض التأويلات الدقيقة والتفصيلات العلمية في إظهار هذه العلاقة، فهذه التأويلات والتطبيقات أنسب لنا أن نعبرها بـ(التوجيهات)"^{١٦}. فمن التوجيهات مثل التأويلات في "إطلاق الأمور الحسية والحادثة على ذات الله وصفاته، كتشبيه صفات الله بالماء أو البحر" وأيضاً التوجيهات في القول " ظهور صفات الله وذاته في الخلق من غير حلوله فيه، فالظاهر أن هذه الاصطلاحات والأقوال تؤدي بعض الناس إلى إلزام المتصوفين باعتقاد "وحدة الوجود" ولكن الحقيقة ليس كذلك، وسينكشف الأمر خلال عدة أمثلة، إنشاء الله تعالى.

فهذه التوجيهات لازم أن يكون ثبوته مستعينا بالنصوص الشرعية، وإلا أنها تأويلات من غير دليل، فلا يعتبرها إلا التأويلات العقلية أو الفلسفية ولا غير، فلذلك نجد الشيخ التهانوي قد جمع عدداً من الأحاديث في هذا الجانب، كي لا يُظن أنها تأويلات من غير الاعتماد على القرآن أو السنة.

الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

بعد إمعان النظر في كتابه "الحقيقة"^{١٧} قد ظهر لنا أنه رَحِمَهُ اللهُ قد جمع في هذا الجانب حوالي سبعة أحاديث، كلها تحمل نموذجاً واضحاً لهذا الموضوع، والتي تدل على أن الاصطلاحات والأقوال التي يستخدمها المشائخ لها ثبوت من السنة. ويليك بعض الأمثلة وبه يتضح الأمر إنشاء الله.

(١) إطلاق الأمور الحسية على ذات الله وصفاته: وقد يوجد من كلام بعض العارفين تمثيل الصفات الإلهية بالماء أو البحر أو بأي شيءٍ حسيٍّ أو ماديٍّ^{١٨} ولم يقصد منه التمثيل من كل الوجوه -تعالى الله عن ذلك-، بل المقصود به هو التشبيه في بعض الصفات المشتركة لأجل التوضيح والتفهيم، وكذلك ظهور صفات الله وذاته في الخلق من غير حلوله فيه، فمعنى ظهور ذاته وصفاته في الخلق، هو كمثل ظهور الكاتب في المكتوب والمتكلم في الكلام، فالخلق مظهر والله ظاهر ولا غير، وفيه عدة أحاديث ذكرها الشيخ في توضيح هذا الأمر، ثم وضع المطلوب الصحيح بهذه الأحاديث من غير أن يميل إلى الغلو فيه، ويليك بعض الأحاديث على سبيل المثال.

^{١٦} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

^{١٧} أي الكتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة".

^{١٨} أنظر: المصدر السابق، ص ١٥٢.

الحديث الشريف: ١٩/٩٢ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ^{٥١٩} "اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْتَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرْدِ". (أخرجه الستة إلا الترمذي واللفظ للشيخين) ^{٥٢٠}.

تخريج الحديث: أخرجه الستة ما عدا الإمام الترمذي، وكلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، فأما الشيخان في صحيحيهما، وأبوداود والنسائي وابن ماجه في سننهم ^{٥٢١}.

قلت : وله شاهد مثله بما أخرجه البخاري في صحيحه ^{٥٢٢}، والترمذي في سننه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ثم قال: "هذا حديث حسن صحيح" ^{٥٢٣}.

^{٥١٩} ذكره الشيخ بالاختصار اكتفاءً بموضع الاستشهاد فقط، وإنما الحديث الذي أخرجه الأئمة الستة دون الترمذي، فهو: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر في الصلاة سكت هنية قبل أن يقرأ فقلت يا رسول الله بأي أنت وأمي رأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول قال أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني بالثلج والماء والبرد".

^{٥٢٠} ذكره الشيخ بالاختصار برقمه الخاص ٩٢، نقلا عن أئمة الستة دون الترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، **حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة**، ص ١٥١.

^{٥٢١} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، برقم ٧٤٤، ص ٥٩. و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، برقم ١٤٧ (٥٩٨)، ص ٧٧١. وأبا داود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، **سنن أبي داود**، كتاب الصلاة، باب السكنة عند الافتتاح، برقم ٧٨١، ص ١٢٨١.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، **سنن النسائي**، كتاب الطهارة، باب الوضوء بالثلج، برقم ٦٠، ص ٢٠٩٠.

وأبا عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، **سنن ابن ماجه**، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة، رقم ٨٠٥، ص ٢٥٢٤.

^{٥٢٢} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنه الدنيا وفتنة النار، رقم ٦٣٧٥، ص ٥٣٦.

^{٥٢٣} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، **جامع الترمذي**، كتاب الدعوات عن رسول الله، وباب رقم ٧٦، والحديث رقم ٣٤٩٥، ص ٢٠١١.

وجه الاستدلال بالحديث: الحاصل مما قال به الشيخ التهانوي في وجه الاستدلال بهذا الحديث: وقد يظهر من كلام بعض العارفين تمثيل الصفات الإلهية بالماء والبحر، ولكنهم لا يقصدون به التمثيل من كل الوجوه، تعالى الله عن ذلك، وإنما يقصدون به التشبيه في بعض الصفات المشتركة لأجل التوضيح والتفهم فقط، كما أن الماء والبحر مع بساطتهما ووحدهما كانا منشأً ومصدرًا لأمر متكررة، كذلك الذات والصفات مع بساطتهما وتوحدتهما كانا منشأً ومنبأً لجميع الممكنات، وبالرغم وجه المنشأية مختلف هنا وهناك، ولكن وجه التشبيه التمثيل معقول ومفهوم فيما بينهما، فما ذكر في هذا الحديث خير دال على جواز هذا التشبيه والتمثيل، لأن المقصود من الماء والثلج والبرد صفة الرحمة لجامع التطهير بينهما، ثم إذا ثبت جواز تمثيل الصفات فيثبت جواز تمثيل الذات أيضاً لعدم التباين بين الذات والصفات^{٥٢٤}.

وكذلك ما يظهر من أقوال بعض العارفين بـ "ظهور صفات الله وذاته في الخلق، مع أنهم لا يريدون به "وحدة الوجود" وإنما يريدون به ظهور قدرة الخالق وحسنه وجماله في المخلوق من حيث دقة خلقه وحسن تدبيره، أو يهدفون به العلاقة القوية بين العبد والرب حيث العبد لا يعمل شيئاً إلا بحسب طلب ربه، فعمله كممثل عمل ربه، والرب كذلك كما ورد في الحديث القدسي، يقول الله سبحانه وتعالى: "إذا أحببتني كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها"^{٥٢٥}، فمن هنا قد جاء الشيخ التهانوي بعدة أحاديث في توضيح هذا الأمر، ويليك حديث.

الحديث الشريف: ٢٠٤ / ٢٠: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني الليلة آت من ربي" وفي رواية: "أتاني ربي في أحسن صورة"، (أخرجه الترمذي)^{٥٢٦}.

^{٥٢٤} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٥٢.

^{٥٢٥} كما أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٦٥٠٢. وقد سبق تخريجه من قبل، في حديث "القول" تحت عنوان: "من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف"

^{٥٢٦} ذكره الشيخ التهانوي بلفظ المنذري، برقمه الخاص ٢٠٤، وأسندته إلى الترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٢٥٨.

تخرّيج الحديث: الحديث الذي ذكره الشيخ التهانوي، ذكره المنذري^{٥٢٧} في "الترغيب والترهيب" نقلا عن الترمذي، ولكن لفظ الترمذي عن طريق أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس قال: قال رسول الله "أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة^{٥٢٨}، وفي رواية خالد بن اللّجلاج: "أتاني ربي في أحسن صورة^{٥٢٩}".

الحكم عليه: قال الترمذي: "وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلا وقد رواه قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس^{٥٣٠}".

قلت: ثم نقل الإمام هذه الرواية نقلا عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس، وحكم عليها "حسن غريب"^{٥٣١}، وقال الشيخ الألباني: "حديث صحيح لغيره"^{٥٣٢}، أي لأجل تعدد الطرق، بعضه أقوى على بعض.

أقوال المحدثين في شرحه: قال الإمام الجزري في "النهاية في غريب الحديث والأثر": "الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته على معنى صفته . يقال صورةُ الفعل كذا وكذا : أي هيئته . وصورة الأمر كذا وكذا : أي صفته . فيكون المراد بما جاء في الحديث أنه أتاه في أحسن صفة . ويجوز أن يعود المعنى إلى النبي ﷺ : أي أتاني ربي وأنا في أحسن صورة . وتجرى معاني الصورة كلها عليه إن شئت ظاهرها أو هيئتها أو صفتها . فأما إطلاقُ

^{٥٢٧} راجع: عبد العظيم بن عبد القوي أبو محمد المنذري (ط ١، ١٤١٧هـ) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف.

تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ج ١، ص ١٧٤.

^{٥٢٨} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة ص، رقم ٣٢٣٣، ص ١٩٨٢.

^{٥٢٩} المصدر السابق، رقم ٣٢٣٤، ص ١٩٨٢.

^{٥٣٠} المصدر السابق، رقم ٣٢٣٣، ص ١٩٨٢.

^{٥٣١} المصدر السابق، رقم ٣٢٣٤، ص ١٩٨٢.

^{٥٣٢} محمد ناصر الدين الألباني (ط ٥، ٢٠٠٣م) صحيح الترغيب والترهيب. الرياض: مكتبة المعارف، ج ١، ص ٤٦.

ظاهر الصُّورة على الله تعالى فلا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً^{٥٣٣}، وقال المباركفوري في "التحفة": "قوله في أحسن صورة يحتمل أن يكون معناه رأيت ربي حال كوني في أحسن صورة وصفة من غاية إنعامه ولطفه علي"^{٥٣٤}، هكذا كان وجهة نظر المحدثين، وهذا هو عقيدة أهل السنة والجماعة، وبه يعتقد المتصوفون المعتدلون.

التنبيه: جدير بالذكر، أن من القضايا الغامضة المشهورة لدى الصوفية، قضية تجلي الحق في الخلق وقضية الاتحاد، وقد اختلف المتصوفون بأنفسهم فيما بينهم باختلاف كبير في هذه القضية، والخلاف بين المعتدلين والمعتدلين، حيث بعض الصوفية سلكوا الطريق من غير علم ولا رشد^{٥٣٥}، وهم بعض المعتدلين في هذه القضية حتى أن مالوا إلى الفكرة الفلسفية الباطلة -الوحدة الوجود- وحاش أن تتعلق عقيدتنا بهذه الفكرة الفاسدة، لأنهم يريدون بها الحلول، أي حلول ذات الله في الخلق، - العياض بالله - ولكن المعتدلون من سلكوا هذا الطريق على البصيرة فهم لا يعتقدون بوحدة الوجود^{٥٣٦} فلا يقولون بالحلول، غير أنهم يريدون به التشبيه والتمثيل فقط ولا غير. ومن هنا يذكر الشيخ بما يعتقد المعتدلون من الصوفية في هذه النسبة، وهو حقيقتان: الحقيقة الأولى: هي حقيقة التجلي وهي أن الله تعالى يظهر في الخلق بدون الحلول فيه، مثل ظهور الكاتب في المكتوب والمتكلم في الكلام، فالخلق مظهر والحق ظاهر. والحقيقة الثانية: حقيقة الاتحاد فهي عبارة

^{٥٣٣} أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، ج ٣، ص ١٢٢.

^{٥٣٤} أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ج ٩، ص ٧٣.

^{٥٣٥} كما يقول الشيخ الندوي: "لقد صدرت من لسان بعض الصوفية المتقدمين ممن غلب عليهم السكر والحال، أقوال وهي شبه نظرية الاتحاد، تدل على "وحدة الوجود" وقد اشتهر من بين هذه الأقوال العارف الشهير الشيخ أبي يزيد البسطامي - الذي هو من كبار المشائخ الذين تنتمي إليهم معظم السلاسل والطرق الصوفية - "سبحاني ما أعظم شأنني"، وقوله: "ليس في جبتي إلا الله"، وما اشتهر عن الحسين بن منصور الحلاج من هتافه: "أنا الحق". أبو الحسن علي الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ٣، ص ٢٣٩.

^{٥٣٦} أشهرهم الشيخ ركن الدين أبو المكارم علاء الدولة السمناني (٦٥٩ - ٧٣٦)، والإمام شرف الدين يحيى المنير (م ٧٨٢ هـ)، والشيخ أحمد السرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤ هـ). فانظر: أبو الحسن علي الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ٣، ص ٢٤٩ - ٢٦٠.

عن شدة تعلق الظاهر بالمظهر حيث يستحيل انفكاك الظاهر من المظهر. فالمسألان عقليتان، إلا أن العنوان يصبح متوحشاً نوعاً ما. ولكن بعد وضوح المراد ستتوفر لنا هكذا الاصطلاحات والتعبيرات في ضمن الحديث نفسه، التي تظهر عبر التحليلات العلمية والتأويلات الدقيقة^{٥٣٧}.

وجه الاستدلال بالحديث:

ومن هنا يقول الشيخ: "الحديث (في أحسن صورة) نظير الأول، لأن الحسن والجمال من صفات الله، فمعناه أتا الله في أحسن صفته من كرمه وجوده ورحمته، (كما قال الإمام الجزري، ذكرناه آنفاً)، وهذا الحسن يشير إلى ذاته الحسن -جل شأنه-، كما تظر لياقة الكاتب بكتابته، ومهارة الخطيب بفصيح كلامه. أما إطلاق لفظ - ربي - على - آت من ربي - نظير للثاني، وإذا كانت - من - تجريدية فقله: - في أحسن صورة - يكون مأخذاً للثاني أيضاً، لأنه يلزم بتلبس هذه الصورة المبائنة أن يعبر غير ذي صورة بالصورة، فهكذا يمكن الاستدلال فيما بين ذي الصورة وغير ذي الصورة لفظياً، لا عرفياً ولا لغوياً، الذي حرام في الاعتقاد، كما يفعله بعض السفهاء والجهلاء في هذا الطريق فيفسدون عقائدهم وإيمانهم"^{٥٣٨}.

وقد ورد فيه حديث آخر يوضح هذا الأمر (أي الاتحاد بالمعنى المذكور) أكثر مما كان، حيث يوصف الله فيه نفسه بمرض عبده، ويقول: "مَرِضْتُ فَلَمْ تُعِدْنِي" حديث أخرجه إمام مسلم في صحيحه، وبه استدل الشيخ في موضوعه، ويليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ٢١/٢٠٥: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَرِضْتُ فَلَمْ تُعِدْنِي، فَيَقُولُ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تُعِدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْاسْتِطْعَامَ وَالِاسْتِسْقَاءَ كَذَلِكَ وَفِيهِمَا: "لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي"^{٥٣٩} (أخرجه مسلم)^{٥٤٠}

^{٥٣٧} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ص ٢٥٨.

^{٥٣٨} المصدر السابق، ص ٢٥٨-٢٥٩.

^{٥٣٩} وقد جاء الشيخ بالحديث مختصراً اكتفاءً بموضع الاستشهاد فقط. فراجع لكامل الحديث إلى صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، رقم ٤٣ (٢٥٦٩).

^{٥٤٠} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنبياء، ذكره الشيخ برقمه الخاص ٢٠٥، ص ٢٥٩.

تخريج الحديث: قلت: أخرجه إمام مسلم في صحيحه، واللفظ له، من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة^{٥٤١}، وكذلك إمام بخاري في "الأدب المفرد" من نفس الطريق^{٥٤٢}، و أيضاً ابن حبان في صحيحه^{٥٤٣}.

الحكم عليه: الحديث صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه إمام مسلم في صحيحه، إلا أن البخاري لم يأتي به في صحيحه، وإنما أتاه في الأدب المفرد^{٥٤٤}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: هذا حديث قدسي، ذكره أئمة الحديث في كتبهم تحت عنوان عيادة المريض أو فضلها، و بعضهم ذكره في مباحث التمثيل والتشبيه، كما فعل ابن حبان في صحيحه ذكره تحت عنوان "ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ من هذا النوع أطلقت بألفاظ التمثيل والتشبيه على حسب ما يتعارفه الناس فيما بينهم دون الحكم على ظواهرها"^{٥٤٥} فالحديث روي عن أبي هريرة^{رضي الله عنه} حيث يقول رسول الله^ﷺ: بأن الله سبحانه وتعالى يقول يوم القيامة "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال كيف أعودك وأنت رب العالمين" يعني وأنت لست بحاجة إلي حتى أعودك، قال: "أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما إنك لو عدته لوجدتني عنده" فقال الشيخ العثيمين: "هذا الحديث ليس فيه إشكال، في قوله تعالى: (مرضت فلم تعدني) لأن الله تعالى يستحيل عليه المرض لأن المرض صفة نقص والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص قال الله تبارك وتعالى: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) لكن المراد بالمرض مرض عبد من عباده الصالحين، وأولياء الله سبحانه وتعالى، هم خاصته، ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي أيضاً، (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)، يعني من يعادي أولياء الله محاربا لله عز وجل، مع أنه

^{٥٤١} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، رقم ٤٣، (٢٥٦٩)، ص ١١٢٨.

^{٥٤٢} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري (ط ٣، سنة ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م) الأدب المفرد. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى، بيروت: دار البشائر الإسلامية. باب عيادة المرضى، رقم ٥١٧، ص ١٨٢.

^{٥٤٣} محمد بن أحمد بن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، كتاب الرقائق، باب الأدعية، رقم ٩٤٤، ج ٣، ص ٢٢٤.

^{٥٤٤} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، رقم ٤٣، (٢٥٦٩).

^{٥٤٥} محمد بن أحمد بن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ج ١، ص ٥٠٣.

وإن كان لم يعاد الله على زعمه، لكنه عادى أوليائه وحاربهم، كذلك إذا مرض عبد من عباد الله الصالحين فإن الله سبحانه وتعالى يكون عنده^{٥٤٦}.

وجه الاستدلال بالحديث: يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: "نسبة الله مرض العبد إلى نفسه بقوله: (مرضت) أوضح نظير لمصطلح (الاتحاد) السابق، خاصة لما يكون المريض عبداً مقبولاً خاصاً، فهذا أقرب للفهم أن يؤيد هذا النوع من الاتحاد، أحياناً يخصصه الصوفية للعارفين، وأهل الكمال والفناء خاصة، ويرى أن جملة (لوجدت ذلك عندي) تفسير لجملة (لوجدتني عنده). وهذا كله نوع من التعبير المجازي، ولا مجال لحملة على الحقيقة فإنه مفسد للعقيدة"^{٥٤٧}.

قلت: فهذا ما قاله الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ لا يخالف بما قاله المحدثون، لأنه لم يثبت به اصطلاح وحدة الوجود على معناها العرفية أو اللغوية الحقيقية، بل إنما يريد بها صحة التشبيه والتمثيل فقط، وهذا جائز ومؤثر بين القرآن والسنة، وكذلك في أقوال المحدثين سلفاً وخلفاً.

المطلب الرابع

في "الإصلاح" والدور التجديدي في التصوف الإسلامي

الإصلاح: كل قوم لهم ناحيتي الإيجابية والسلبية، كذلك هذا القوم، مبتلون بالسلبيات ومهذبون بالإيجابيات، فلهم بعض التصرفات التي تخالف الشرع بالواقع حقيقة وظاهرة، ولا يمكن تطبيقها مع الشرع بالتأويلات العلمية أو التوجيهات الفكرية، بل أنهم يحتاجون إلى التنبيهات والتحذيرات والإرشادات الدينية، فهي التي تسمى بـ "الإصلاح" في هذا الفن، كما عرفه الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بقوله: "وأحياناً يصدر بعض التصرفات من هؤلاء الرجال التي تخالف الشريعة بكاملها ظاهراً وواقعاً، فحينذاك هم يحتاجون إلى التنبيه والإرشاد، فهذا ما يُعبَّر به بـ (الإصلاح) في اصطلاح هذا الفن"^{٥٤٨}، فمن الإصلاح مثل: أن المصافحة مع النساء عند البيعة حرام في الشرع، ولا للشيوخ

^{٥٤٦} محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين، كتاب عيادة المريض وتشجيع الميت، ج ١، ص ١٠١٦.

^{٥٤٧} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٢٦٠.

^{٥٤٨} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

إفادة الناس وإضرارهم وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا، ولا يجوز للمريد أن يحترم صورة شيخه أو هيكله، والذكر الجلى ليس من شروط التقرب إلى الله، وغيرها من الأمثال، سيأتي التفصيل من بعضها قريبا بإنشاء الله.

الأحاديث الواردة في هذا الجانب:

بعد تفقد عميق قد برز لنا بأنه ﷺ جمع في هذا الباب حوالي ستة وأربعين حديثا، وأمكن خلال هذه الأحاديث أن يصلح كثيرا من المعتقدات والأعمال الفاسدة التي يمارسها بعض من الصوفية. رغم أنه ﷺ كان من هذا القوم، ولكنه لم يكن يغلو غلو الجهلاء، وذلك لأنه كان معتدل المذهب و مستقيم المنهج، وفي الحقيقة أنه كان ﷺ من قمة هؤلاء الذين تنتهي إليهم رئاسة الاعتدال في عصرنا الحاضر.

(١) المصافحة مع النساء عند البيعة غير مسموحة بالشرع: هناك عادة شنيعة شائعة بين السفهاء والجهلاء المسمين أنفسهم المتصوفين وال دراويش، بالمصافحة مع النساء عند البيعة، ولكنها لا أساس لها في الشرع، بل هي حرام بالصراحة، لأن البيعة من النساء ثابتة في السنة، وذلك أن الرسول ﷺ كما أخذ البيعة من الرجال كذلك أخذها من النساء، ولكنه ﷺ اكتفى عند بيعة النساء بالكلام فقط، وفيه حديث يصرح عن هذا الأمر، بما أخرجه الشيخان في صحيحيهما وكذلك الآخرون في كتبهم، ويليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ٢٢/٥: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا مَسَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهَا فَإِذَا أَخَذَ عَلَيْهَا فَأَعْطَتْهُ قَالَ: "أَذْهَبِي فَقَدْ بَايَعْتِكِ" (رواه الشيخان وأبوداود) ٥٤٩.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الحديث من طريق ابن شهاب عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بألفاظ متنوعة. فأما البخاري أخرجه في صحيحه ٥٥٠، وكذلك إمام مسلم في صحيحه ٥٥١، وإمام أبوداود في سننه ٥٥٢، واللفظ لإمام مسلم وأبي داود.

٥٤٩ وقد ظهر لنا عند تخريج الحديث، بأن الحديث أخرجه الخمسة ما عدا إمام نسائي، غير أنه خرجه في سننه الكبرى.

أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٦٠.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: الحاصل من أقوال العلماء مما ورد في شرح هذا الحديث، بأن عائشة رضي الله عنها تخبر عن كيفية بيعة الرسول ﷺ للنساء، حيث تقول: إن الرسول ﷺ ما كان يمس يد امرأة قط عند البيعة، إلا أن يأخذ العهد منهن بالكلام فقط، فكان ﷺ يبايع النساء كلاماً لا مساً، فلا لأحدٍ من الشيوخ أو الأولياء أن يصفحوا النساء الأجنبية، ولا يمسوهن ولو بالحائل من القماش أو الستار، لأن هذه مصافحة أيضاً، ولو كانت من وراء حائل، لأن الذي يريد الشر يمكن مع المصافحة أن يغمزها ليشعر بالسوء، فالبعد عن ذلك هو الواجب وهو المتعين، فليس للرجل أن تمس يده يد امرأة أجنبية أو يمس جسم امرأة أجنبية، إلا إذا كان هناك ضرورة علاج أو ما إلى ذلك، فهذا شيء آخر^{٥٥٣}.

الجانب الإصلاحي في هذا الحديث: هذا الحديث ذكره الشيخ التهانوي في إصلاح دور بعض المتصوفين الضالين والسفهاء، الذين يصفحون مع الأجنبية عند البيعة، ولا يهتمون بأمر الشريعة فيها، ويفعلون كما يشائون ابتغاء الفتنة بين الناس، فيقول ﷺ في هذه النسبة: " نرى بعض المتصوفين الجهال المسمين أنفسهم بـ(دراويش) غير مهتمين بأحكام الشرع يبايعون النساء بلمس أيديهن، الذي حرام بالصرحة، وهذا الحديث يصرح ببطلانه وحرمة. من هو أكثر لطفاً ومودة من رسول الله ﷺ لأمته؟ لما يتحذر بنفسه من مصافحة النساء، فمن هو الشيخ بعدئذٍ الذي يعتبره أبا أو مربيًا ويصفح النساء الأجنبية مخالفاً للشرع؟ وإنما البيعة مجرد المعاهدة لا غير، فهي تكفي باللسان، رغم أن بعض مشايخ المتأخرين يرون بأن يجعل الشيخ عند البيعة يأخذ طرف الثوب و المريدة تأخذه الطرف الثاني، تقويةً للاتصال وتسكيناً لخاطر العوام، فلا حرج فيه، بل لا يوجد أي

^{٥٥٠} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام

والمبايعه، رقم ٢٧١٣. ص ٢١٦.

^{٥٥١} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، رقم ٨٩-

(١٨٦٦)، ص ١٠١٣.

^{٥٥٢} راجع: أباداود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما

جاء في البيعة، رقم ٢٩٤١، ص ١٤٤٣.

^{٥٥٣} راجع: أبا زكريا يحيى بن شرف بن مري الإمام النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٣، ص ١٠.

حرج في الاكتفاء بالمعاهدة اللسانية عند البيعة مع الرجال أيضا، ولكن لما ثبت في الحديث أن البيعة بالمصافحة مع الرجال سنة، ولا يوجد أي مانع عن هذا، فالجمع بين الصورة والمعنى أفضل^{٥٤}.

(٢) النافع والضار هو الله وحده، ليس الشيوخ: من المعلوم أن هناك بعض الجهلاء المسمين أنفسهم بالصوفية^{٥٥} يعتقدون أن للأولياء تصرفات تضر وتنفع، وتجلب النفع وتدفع البلاء، فهذا كفرٌ في الشرع وشرك مع الله عز وجل، فلا للأولياء والشيوخ قدرة أن ينفعون أو يضرّون الناس، كما يقول الله جل وعلا مخاطبا لنبيه ﷺ (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.....الآية)^{٥٦}، فهذه عقيدتنا أهل السنة والجماعة من المحدثين والفقهاء والمتصوفين، ومن هنا قد جاء الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ بِحَدِيثٍ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ الَّذِي يُوَضِّحُ أَنَّهُ لَا لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يُوَصِّلَ النَّاسَ أَيَّ نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا، فإليك الحديث.

الحديث الشريف: ٢٣ / ٤٢: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } قَالَ: نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ يُرَاوِدُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ عَلَى الْإِسْلَامِ. (أخرجه مسلم والترمذي)^{٥٧}.

^{٥٤} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٦٠-٦١.

^{٥٥} هم بعض جهلاء المسلمين المبتدعين المضلين في شبه القارة الهندية، ويسمون أنفسهم بالصوفية، الذين تأثروا بأفكار الهندوسية الزائغة، ويتشبهونهم في كثير من الناحية، حيث يزورون مقابر الشيوخ تبركا، ويعتكفون مزار الأولياء تعبدا، حتى يتوجهون إلى مقابرهم عندما يصلون، وتعجب الباحث لما رأي بعضهم يسجدون مقابر شيوخهم أو يسجدون لشيوخهم مباشرة، ويستعينون منهم! وهذه الفرقة ليست حديثة بل قديمة منذ بعيد. لعل الشيخ ولي الله الدهلوي قد أشار إليهم لما يقول: (فقد رأينا رجلا من ضعيفي المسلمين يتخذون الصلحاء أربابا من دون الله ويجعلون قبورهم مساجد كما كان اليهود والنصارى يفعلونه). أنظر: محمد بشير السالكوتي (ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) الشاه ولي الله الدهلوي. (بيروت: دار ابن حزم، ص ١٠٢).

^{٥٦} الأعراف، الآية ١٨٨.

^{٥٧} ما وجدت الحديث بهذا اللفظ، وإنما رواه مسلم والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعنه عند الموت: قل: " لا إله إلا الله"، أشهد لك بها يوم القيامة، فأبى، فأنزل الله { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } واللفظ لمسلم. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٠٣.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الحديث من طريق يزيد ابن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه،
فأما الإمام مسلم أخرجه في صحيحه، والإمام الترمذي في سننه^{٥٥٨}.

قلت: وله شاهد أخرجه الشيخان في صحيحيهما، وإمام النسائي في سننه عن ابن المسيب عن
أبيه^{٥٥٩}.

وجه الاستدلال بالحديث: من هنا يقول الشيخ التهانوي رحمته الله: " يعتقد بعض الصوفية الجهلاء بأن
إيصال الفيوض والبركة في قبضة الشيوخ وفي إرادتهم، فهذا الحديث خير دال في رد هذا الظن
الباطل، الذي لا أساس له في الدين، فالحديث يطلبنا بالرجوع منه، حيث أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم
غير قادر على هداية الناس بإرادته، وهو الذي جاء بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله، الذي سماه
الله سراجا منيرا في الهداية، فكيف الآخرون من الأولياء والصالحين، ولما نُفي النفع الديني من إرادة
الأنبياء والشيوخ، الذي هو وظيفتهم، فما بال نفعمهم الدنيوي الذي لم يُعثوا به، ولم يطلبه الله
منهم؟ فهو أبعد من اختيارهم، ولكن بعض الجهلاء في هذا السبيل مبتلون بالاعتقاد أن أولياء الله
يملكون بما يملكه الله، (العياذ بالله) فنص الحديث خير دال بهذا الجانب الاصلاحى^{٥٦٠}.

^{٥٥٨} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام
من حضره الموت ما لم يشرع في النزاع.....، رقم ٤١ - (٢٥)، ص ٦٨٥.

وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، **جامع الترمذي**، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ث، باب ومن سورة القصص،
رقم ٣١٨٨، ص ١٩٧٧.

^{٥٥٩} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٤،
وكتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ رقم ٤٧٧٢، ص ٣١٥، و
٤٠٤.

وأبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من
حضره الموت ما لم يشرع في النزاع.....، رقم ٣٩ - (٢٤)، ص ٦٨٥.

أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان والنسائي، **سنن النسائي**، كتاب الجنائز، باب النهي عن الاستغفار
للمشركين، رقم ٢٠٣٧، ص ٢٢٢٠.

^{٥٦٠} أشرف علي التهانوي، **حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة**، ص ١٠٤.

تغليف القبور وتزينها بالستار بدعة: هناك عادة شائعة في بعض الصوفية الجهلاء بتغطية القبور بالرداء أو غيرها، وهي نوع من التزيين والتجميل والتفاخر والتعلي للقبور التي تؤدي الناس إلى احترام المقابر وتقديسها، وهي تخالف الشرع بمقاصده كاملاً، ولذلك نرى كثيراً من المسلمين ضلوا إيمانهم وعقائدهم، حتى ابتلوا بالشرك والفساد عقيدة، ومن هنا يذكر الشيخ التهانوي حديثاً رغم أنه لا يدل على هذا الموضوع مباشرة، ولكن الاستدلال به أمر مقبول عقلاً وشرعاً، ويليك هذا الحديث.

الحديث الشريف: ٩٠ / ٢٤: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "لَا تَسْتُرُوا الْجُدْرَ". (رواه أبو داود) ^{٥٦١}.

تخريج الحديث: أخرجه المحدثون بطرق مختلفة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولم يخرج الأئمة الستة إلا أبا داود، فأخرجه في سننه من طريق عبد الله بن يعقوب بن إسحاق عن حدثه (مبهم) ^{٥٦٢} عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن عباس ^{٥٦٣}. والبيهقي في سننه الكبرى، من طريق عروة عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ^{٥٦٤}.

^{٥٦١} قد ذكره الشيخ برقمه الخاص ٩٠، على وجه اختصار حسب عاداته اكتفاءً بموضع الاستشهاد، وإنما الحديث الذي أخرجه أبو داود بلفظه: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا تستروا الجدر من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه وإنما ينظر في النار سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم. (سوف يأتي تخريجه). أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ١٤٩.

^{٥٦٢} المبهم في السند: "هو من أهم اسمه في المتن أو الإسناد من الرواة أو ممن له علاقة بالرواية". محمود الطحان، تيسير مصطلح الحديث، ص ٢١٣.

فهذا من المبهمات، لأن هذا الراوي لم يُذكر اسمه ولو في أي مكان كان، ولا نعرف أحداً من المحدثين قد سماه بإسم معين.

^{٥٦٣} راجع: أباداود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم ١٤٨٥، ص ١٣٣٣.

^{٥٦٤} راجع: أبا بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، كتاب الصداق، باب ما جاء في تستير المنازل، رقم ١٤٣٦٥، ج ٧، ص ٢٧٢.

الحكم عليه: الحديث ضعيف بجميع الطرق، وقد اتفق المحدثون على ضعفه، كما يقول إمام أبو داود في آخر الحديث: "رُوي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب، كلها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيف أيضا"^{٥٦٥}، ويقول الإمام النووي: "اتفق الحفاظ على تضعيفه"، ويقول ابن الجوزي في علله: "حديث لا يصح"^{٥٦٦}.

قلت: وله شاهد مثله أخرجه إمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها برقم [٥٥١٩] ٨٧، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة^{٥٦٧}، وهو صحيح.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: الحديث طويل، إلا ذكره الشيخ باختصار، اكتفاءً بموضع الاستشهاد، لأن الموضوع هنا تغليف القبور بالستار ونحوها قصدا للزينة والتفاخر، واتخاذة مُقدَّسا، وبالرغم أن هذا الحديث لا يتحدث عن تغليف القبور، أي لا يقول الرسول ﷺ لا تستروا القبور أو المقابر، وإنما يقول ﷺ "لا تستروا الجدر" جمع جدار أي لا تستروا الجدر بثياب لأن هذا من دأب المتكبرين ولأن فيه إضاعة المال من غير ضرورة^{٥٦٨}، فجمهور العلماء على كراهيته، وذلك لما فيه من الإسراف، ولما فيه من الخيلاء أو الاستكبار، وبعض أهل العلم قال بالتحريم^{٥٦٩}، فهذا ما يقول العلماء بتحريم تستر الجدر بسبب الإسراف، ولما فيه من الخيلاء أو الاستكبار، فكيف فيما يلتحق مع هذه الأسباب السبب الآخر الذي أخطر من الأسباب الأولى، وهو تزيين القبور تقديسا له، واتخاذة مقدسا ومعظما، وبالتالي يتسبب بالشرك والضلالة، ثم يجعله أهل الهوى معبدا ومكسبا؟

^{٥٦٥} راجع: أبا داود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، رقم الحديث: ١٤٨٥، ص ١٣٣٣.

^{٥٦٦} سراج الدين أبو حفص عمر بن علي ابن الملقن (ط ١، سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير. تحقيق: مصطفى أبو الغيط وزملائه، الرياض: دار الهجرة للنشر والتوزيع، ج ٣، ص ٦٣٨.

^{٥٦٧} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، رقم: [٥٥١٩] ٨٧، ص ١٠٥٥.

^{٥٦٨} محمد شمس الحق أبو الطيب العظيم آبادي (ط ٢، ١٤١٥هـ) عون المعبود شرح سنن أبي داود. بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٤، ص ٢٥٠.

^{٥٦٩} وهو أبو نصر المقدسي، وقد ذكر ذلك الشيخ الألباني رحمته الله في كتاب: "آداب الزفاف"، وذكر ما يتعلق بهذه المسألة،

وأن الجدر لا تستر بالسجاد ولا بغير. أنظر: عبد المحسن العباد، شرح سنن أبي داود، ج ٨، ص (٢٠١).

بناءً على ذلك يقول الشيخ التهانوي: " وقد يستتبط من هذا الحديث بأن تغليف القبور ذنب وممنوع بالشرع، إذ لا تحتاج القبور إلى التزيين بقدر زينة الجدر، وهو ممنوع في هذا الحديث، فمنعه للقبور من باب أولى، إذ لا هدف لوضع الرءاء على القبور إلا التزيين والتجميل والتفاخر والتعلي، وهو أيضا سبب يدعي إلى الخرافات والضلالة"^{٥٧٠}.

لأن احترام القبور واتخاذها مساجد أو معابدا كان سببا للجنة الله على الأمم السابقة وهلاكهم، وهو أيضا كما نشاهده اليوم كأكبر الفساد في الأمة الإسلامية، و نرى كثيرا من الجهلاء يحترمون مقابر الشيوخ والصالحين، حتى بعض منهم يسجدونها ويعبدونها ويفعلون حولها بالأفعال كما يفعلها المشركون حول الأصنام، ولكن الرسول ﷺ كان ينه أمته عن هذا الفساد من قبل، وقال: إنَّ اتخاذ مقابر الأنبياء مساجدا ومعبدا هو سبب لعنة الله على أمم السابقة من قبل الإسلام، فيليك حديث قد أتاه الشيخ التهانوي دعوة للمسلمين إلى الإصلاح.

الحديث الشريف: ٢٥/١١٤: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" (أخرجه الخمسة الا الترمذي)^{٥٧١}.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الخمسة إلا الإمام الترمذي، من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم والنسائي، فأما الشيخان في صحيحيهما، والإمام أبو داود والنسائي في سننهما^{٥٧٢}.

^{٥٧٠} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٤٩.

^{٥٧١} ذكره الشيخ برقمه الخاص ١١٤. نقلا عن أئمة الخمسة إلا الترمذي، واللفظ لمسلم. أنظر: المصدر السابق، ص ١٧٠.

^{٥٧٢} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب رقم ٥٥، والحديث رقم ٤٣٧، ص ٣٧. و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم ٢٠- (٥٣٠)، ورقم ٢١- (...). ص ٧٦٠. وأباداود سليمان بن الأشعث ابن اسحاق السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب في البناء على القبر، رقم ٣٢٢٧، ص ١٤٦٥.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب اتخاذ القبور مساجد، رقم ٢٠٤٩، ص ٢٢٢١.

قلت: وله شاهد، أخرجه المحدثون في كتبهم، من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها مثله، فأما الشيخان في صحيحيهما، وإمام النسائي في سننه، عن عائشة و عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ^{٥٧٣}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: يقول الرسول ﷺ في هذا الحديث، إن الله لعن اليهود والنصارى، لأنهم لما مات أنبيائهم جعلوا على قبورهم مساجد، الذي أذاهم إلى الشرك مع الله، فابتعدوا من رحمة الله، فحذره النبي ﷺ أمته قبل أن انتقل إلى رفيقه الأعلى، وذلك لأنه كان يشعر بقلبه بأن أمته ستبتلي بهذا الفساد مثلما ابتلى به الآخرون، كما يقول الشيخ عبد الحق الدهلوي في (اللمعات) شرحاً لهذا الحديث: "لما أعلمه بقرب أجله فخشى أن يفعل بعض أمته بقره الشريف ما فعلته اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم فنهى عن ذلك" ^{٥٧٤}.

فيدل الحديث على امتناع اتخاذ قبر الرسول ﷺ مسجداً، فبعيد كل البعد عن اتخاذ مقابر الشيوخ مساجد. ولكن بأسف شديد بأنه يوجد اليوم في الأمة الإسلامية من جعلوا قبور من هم دون الأنبياء مساجد، جعلوا أولياء يتخذونهم أولياء (والله أعلم بحالهم) وبنوا على قبورهم مساجد، وجعلوا يطوفون بها ويحترمونها ويعظمونها وينذرون لها ويتصدقون لها، وهذا كله إما شرك وإما وسيلة للشرك، فاتفق علماء السلف والخلف على تحريم جعل القبور المساجد.

ومن هنا يُنبه الشيخ التهانوي رحمته الله المتصوفين ويحذرهم عن اتخاذ مقابر الشيوخ مساجد، فيقول: " وفي هذا الحديث إرشاد للجهلاء المتصوفين إلى إصلاح أعمالهم من يسجدون مقابر الأولياء، سواء كانت هذه السجدة سجدة تعبدية التي كفر وشرك بالصراحة، أو كانت سجدة تحية التي ليست

^{٥٧٣} راجع: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، رقم ١٣٩٠، ص ١٠٩.

و أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، رقم ١٩ - (٥٢٩)، ص ٧٦٠.

وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنن النسائي، سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب اتخاذ القبور مساجد، رقم ٢٠٤٨، وكتاب المساجد، باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم ٧٠٤، ص ٢١٣٢، و ٢٢٢١.

^{٥٧٤} محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ج ٢، ص ٢٢٦.

خالية من أكبر الكبائر أو من شبه كفر، فكلها ممنوع في الإسلام باتفاق علماء السلف
والخلف^{٥٧٥}.

^{٥٧٥} أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٧٠.

المبحث الرابع: الترابط حول بعض المتفرقات والفضائل

ويشتمل هذا المبحث على:

المطلب الأول: الترابط خلال ما بقي من مختلف مسائل التصوف

المطلب الثاني: الأحاديث الواردة في فضائل التصوف

المطلب الأول

الترايط بين الحديث والتصوف خلال ما بقي من مختلف مسائل التصوف

المتفرقات:

قد أراد بها الشيخ التهانوي من مختلف الأمور المتعلقة بالسلوك والإحسان التي لا تلتحق بالأمور المذكورة سابقا، ولكن لها مناسبة واضحة مع هذا الفن من غير خفاء^{٥٦}، فمن المتفرقات مثل: (لا يعاب الرجل الذي يبالغ في العبادة وهو مستقيم عليها بالبصيرة)، و(لا ينبغي للسالك أن يكون غير مبالٍ عن أمر الشيطان رغم أنه وصل إلى حد الولاية)، و(يُعالج الوسائس النفسية بالتوجه إلى الله وبعدم الالتفات إلى الوسائس النفسية)، و (التحقيق مع الشيخ بما ظهر في منام المرید)، و (إيصال الشيخ الآثار الدينية في قلب المرید بتصرفاته الحسية)، وغيرها من المسائل المختلفة على سبيل المثال.

الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

قد ورد في هذا الموضوع حوالي أربعة وستين حديثا وبه تحقق كثير من المسائل التي تتعلق مع التصوف الإسلامي من حيث الإرشاد والملاحظة، ولكنها لا تلتحق مع الأمور المذكورة فيما قبل، فيليك بعضها نموذجا.

(١) الرد على من ينكر التعمق في العبادة: لا ينبغي لأحد أن يُلزموا على السالكين بكثرة عبادتهم ومجاهدتهم فيها، أو يتهمواهم بالبدعة بمبالغتهم في العبادة أكثر ما يفعلونها الناس عادة، لأن الرغبة إلى العبادة وشدة الملازمة بالتعبد شئ مرغوب، بل يناسب لنا أن نشجع لمن يرغب إلى العبادة ويتعمق فيها، ففي هذه النسبة يذكر الشيخ التهانوي حديثا لعله يبين لنا كيف كان الرسول ﷺ يبذل جهده في العبادة ويليك الحديث.

الحديث الشريف: ٢٦/١٠٩: عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حَتَّى أَصْبَحَ بِأَيَّةٍ ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (أخرجه النسائي)^{٥٧}.

^{٥٦} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٥٣.

^{٥٧} ذكره الشيخ برقمه الخاص ١٠٩، نقلا عن النسائي. المصدر السابق، ص ١٦٧.

تخريج الحديث: قلت: أخرجه الإمام النسائي وابن ماجه من طريق قدامة بن عبد الله عن جسر بنت دجاجة عن أبي ذر رضي الله عنه، فالإمام النسائي في سننه، -واللفظ له-، وابن ماجه في سننه ^{٥٧٨}. وكذلك إمام أحمد في مسنده، في أماكن مختلفة، وبالألفاظ متنوعة، كلها عن أبي ذر رضي الله عنه، تحت عنوان "حديث المشايخ عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه" ^{٥٧٩}، وأيضاً الحاكم في مستدركه على الصحيحين، من طريق قدامة بن عبد الله ^{٥٨٠}.

الحكم عليه: قال الحاكم في "مستدركه": "هذا حديث صحيح ولم يخرجاه الشيخان" ووافقه الذهبي ^{٥٨١}، وأيضاً يقول العراقي في -تخريج أحاديث الإحياء-: "إسناده صحيح" ^{٥٨٢}، ويقول الشيخ الألباني في تحقيقه: "إسناده حسن" ^{٥٨٣}، وكذلك يقول شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد: "إسناده حسن" ^{٥٨٤}.

نقطة الترابط حول هذا الحديث: قد ثبت بأحاديث كثيرة من شدة جهد الرسول ﷺ في العبادة والدعاء، وسهرانه الليلي في التضرع والبكاء والصلاة راجياً من الله بغفران أمته ونجاتهم من النار، وهذا الحديث كذلك من قبيلها، الذي يخبرنا عن كثرة مجاهدته ﷺ، حتى كان يتداوم طوال الليل

^{٥٧٨} راجع: أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، سنن النسائي، كتاب الافتتاح، باب ترديد الآية، رقم ١٠١١، ص ٢١٥٢.

وابن أبا عبد الله محمد بن يزيد ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، برقم ١٣٥٠، ص ٢٥٥٧.

^{٥٧٩} أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، برقم ٢١٣٢٨، وبرقم ٢١٣٨٨، برقم ٢١٤٩٥، ج ٣٥، ص ٢٥٦، و ٣١٠، و ٣٩١.

^{٥٨٠} راجع: أبا عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب التأمين، رقم ٨٧٩، ج ١، ص ٣٦٧.

^{٥٨١} المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٧.

^{٥٨٢} زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ط ٣، ١٤٢١هـ) تخريج أحاديث الإحياء. الإسكندرية: مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة، رقم ٨٨٩، ج ٢، ص ٣٨٩.

^{٥٨٣} محمد ناصر الدين الألباني (ط ٣، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٨م) صحيح ابن ماجه . تعليق: زهير الشاويش، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، رقم ١١١٠، ج ١، ص ٢٢٥ .

^{٥٨٤} راجع: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، رقم ٢١٣٦٦، و ٢١٥٣٣، و ٢١٤٢٥، ج ٥، ص ١٤٩، و ١٧٠، و ١٥٦.

في الصلاة والتضرع والبكاء أمام الله بآية واحدة، فهذا ما يثبت من سنة الرسول ﷺ ولا يعتبره من البدعة بأنهم يتركون نيامهم في الليل ويقفون في الصلاة والدعاء والبكاء، ويُقلِّون طعامهم وشراهم ويعرضون من تلذذ الدنيا ومتاعها، فمن هنا يقول الشيخ التهانوي رَحِمَهُ اللهُ: " وما هو الدليل لمن يُلزم على بعض المشائخ الصوفية بالبدعة لتكثيرهم في المجاهدة والعبادة، مع أن هذا الحديث يثبت سنية هذا العمل؟ وأما الأحاديث المانعة في مبالغة المجاهدة فمحمولة على من يُخاف عليه بعدم الاستقامة والإعراض عن الدين وهذا السبب واضح في هؤلاء الأحاديث من غير خفاء" ^{٥٨٥}.

(٢) التحقيق مع الشيخ عما ظهر في منام المريد: جدير بالذكر أن الرؤيا الصالحة لها أهمية بالغة في الإسلام، التي يعتبرها من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وأيضاً هي أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي، وقد ورد فيه حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنه قال: " لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة" ^{٥٨٦}، ويليه حديث آخر عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضاً، يصرح فيه النبي ﷺ بأن هذه الرؤيا لا تختص مع الأنبياء عليهم السلام فقط، بل إنما هي تعم بين الصالحين والأتقياء والصادقين، كما يقول ﷺ: " إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة متفق عليه" ^{٥٨٧} وفي رواية: "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً" ^{٥٨٨}.

بناءً على ذلك أن الصوفية يهتمونها اهتماماً بحد بالغ، ولكن مشائخ الصوفية المعتدلين يضعون في هذا السبيل بعض القواعد والضوابط، لأنه ليس كلما يظهر في الرؤيا صادق وحق، بل هناك

^{٥٨٥} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيفة، ص ١٦٧.

^{٥٨٦} راجع: البخاري، أبا عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المبشرات، رقم ٢٩٩٠، ص ٥٨٤.

^{٥٨٧} راجع: أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب القيد في المنام، برقم ٧٠١٧، ص ٥٨٦.

وأبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله وأنها جزء من النبوة، رقم ٦ - (٢٢٦٣)، ص ١٠٧٩.

^{٥٨٨} راجع: أبا زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، رياض الصالحين، كتاب آداب النوم والاضطجاع والقعود والمجلس والجلس والرؤيا، باب الرؤيا وما يتعلق بها، رقم ٣/١٣٠.

احتمالات من الصدق والكذب والوساوس من الشيطان والنفس وغيرها، ولأجل ذلك أن العلماء لا يرونها حجة شرعية، وكذلك مشائخ المتصوفية المعتدلين لا يرونها أمراً قطعياً بما يُعمل به قطعاً النظر عن الشرع، فلذلك نرى أنهم يشيرون على أتباعهم أن لا يعملون بالرؤيا إلا بعد أن يحققوا مع مشائخهم السلوكية، وقد ورد فيه حديث يوضح هذا الأمر بما ذكره الشيخ التهانوي مستدلاً عليه، ويليك الحديث:

الحديث الشريف: ٢٧/٩٣: عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَمَرَهُ صلى الله عليه وسلم بِالتَّسْبِيحِ وَغَيْرِهِ دُبُرَ الصَّلَاةِ قَالَ: فَلَمَّا أَمَرُوا بِذَلِكَ، رَأَى رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي مَنَامِهِ أَنَّ رَجُلًا يَقُولُ: اجْعَلُوهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ وَاجْعَلُوهَا فِيهَا التَّهْلِيلَ فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «اجْعَلُوهَا كَذَلِكَ». (أخرجه النسائي) ^{٥٨٩}.

تخريج الحديث: أخرجه أئمة الحديث في كتبهم من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن كثير ابن أفلح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه. فأخرجه إمام الترمذي في سننه، وكذلك النسائي في سننه ^{٥٩٠}. وإمام أحمد في مسنده ^{٥٩١}، وابن حبان في صحيحه ^{٥٩٢}.

^{٥٨٩} الحديث طويل، وإلا ذكره الشيخ برقمه الخاص ٩٣، على وجه اختصار، اكتفاءً على موضع الاستشهاد فقط، فأما الحديث الذي أخرجه النسائي هو بلفظه، عن زيد بن ثابت قال: "أمرنا أن يسبحوا دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ويحمدوا ثلاثاً وثلاثين ويكبروا أربعاً وثلاثين فأتي رجل من الأنصار في منامه فقبل له أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسبحوا دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وتحمدوا ثلاثاً وثلاثين وتكبروا أربعاً وثلاثين قال نعم قال فاجعلوها خمسا وعشرين واجعلوها فيها التهليل فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال اجعلوها كذلك". أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٥٢.

^{٥٩٠} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب منه في فضل التسبيح والتحميد والتكبير في دبر الصلاة وعند النوم، رقم ٣٤١٣، ص ٢٠٠٢.

و أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، سنن النسائي، كتاب السهو، نوع آخر من عدد التسبيح، رقم ١٣٥١، ص ٢١٧٦.

^{٥٩١} راجع: أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، مسند الأنصار، حديث أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٢١٦٠٠، ج ٣٥، ص ٤٧٩.

^{٥٩٢} راجع: محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن معبد، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، كتاب الصلاة، تحت عنوان

"ذكر استحباب زيادة التهليل مع التسبيح والتحميد والتكبير...." رقم ٢٠١٧، ج ٥، ص ٣٦٠.

الحكم عليه: قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"^{٥٩٣}، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على (مسند أحمد): "إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن أفلق فقد روى له النسائي وهو ثقة"^{٥٩٤}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: إن الحديث طويل الذي ورد في فضائل الأذكار والتساييح عقب الصلوة المفروضة، ولكن الشيخ التهانوي ذكره بلفظه مع الاختصار اكتفاءً على موضع الاستشهاد فقط، فالحديث بما أخرجه الإمام النسائي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه شرّحه المحدثون في كتبهم مفصلاً، ولكن الحاصل استفدناه من كتبهم وهو فيما يلي.

روي في الحديث أن زيد بن ثابت رضي الله عنه يقول أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم (والأمر هنا أمر الندب لا الواجب) أن نسبح في دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين ونحمد ثلاثاً وثلاثين ونكبر أربعاً وثلاثين الذي يبلغ عدد الكلمات بكاملها مائة، فرأى رجل من الأنصار (الذي لم يذكر اسمه) في منامه رجلاً (قال المحدثون أنه كان ملكاً) يقول: هل أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسبحوا في دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين وتحمدوا ثلاثاً وثلاثين وتكبروا أربعاً وثلاثين حتى تأتون بمائة؟ فقال الصحابي نعم فأشار له الرجل الطالع في منامه: "فاجعلوها خمسا وعشرين واجعلوها فيها التهليل " أي كأنه قال: ولا بد اجعلوها الأذكار الثلاثة، وأيضاً اجعلوا في هذه الأذكار التهليل أي لا إله إلا الله على أن يكون كل واحد منها خمساً وعشرين فيكون مجموع هذه الأذكار مائة، قال الطيبي: "الفاء- للتسبب مقررة من وجه ومغيرة من وجه، أي إذا كانت التسيبحات هذه، والعدد مائة فقرروا العدد، وأدخلوا فيها التهليل"^{٥٩٥}. فلما أصبح الأنصاري أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما رأى في منامه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها كذلك، أي اعملوا بما رأى الأنصاري في منامه، كما قال ابن حجر في شرحه: "إن رأيتم ذلك ولا بد، فافعلوا"^{٥٩٦}.

^{٥٩٣} أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ص ٢٠٠٢.

^{٥٩٤} أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج ٥، ص ١٨٤.

^{٥٩٥} أبو الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج ٣، ص ٣٣١.

^{٥٩٦} المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣١.

أقوال العلماء في الرؤيا الصالحة: قد كثرت الأقوال والآراء في حجية الرؤيا والمنام اعتمادا على اختلاف الآثار والحديث في هذا الموضوع، ولكن الأصح وهو ما رآه الجمهور أن الرؤيا لا يعتبرها دليلا شرعيا ولا يثبت بها حكم شرعي، رغم أنها صادقة، وقد تكون الرؤيا الصادقة من الكافر ومن الفاسق كرؤيا الملك التي فسرها يوسف عليه السلام ورؤيا الفتيين في السجن ورؤيا مجتنب التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ورؤيا عاتكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ومن أمثالها الكثيرة، وكذلك أنها ليست خالية عن ثلاثة أحوال من أهويل الشيطان أو من أوهام النفسية، أو جزءاً من أجزاء النبوة، كما ورد في حديث أخرجه إمام الطبراني في "المعجم الأوسط" عن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الرؤيا ثلاثة منها أهويل الشيطان ليحزن بن آدم ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^{٥٩٧} بناءً على ذلك نقول إن الرؤيا لا تأتي بعلم يقين فلا يعتبرها دليلا في إثبات حكم شرعي.

قلت: رغم أن الرؤيا الصالحة تعتبرها جزءاً من النبوة باعتبار ما فيها من الأخبار والبشائر ولكنها لا تعتبرها من حيث التشريع والأحكام، فلا يبتنى عليها حكم شرعي ولا يثبت بها حق، فقد حكي الإمام النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض في الاحتجاج بما يراه النائم في منامه قوله: "أنه لا يبطل بسببه (أي بسبب المنام) سنة ثبتت، ولا يثبت به سنة لم تثبت، وهذا باجماع العلماء" ثم يقول: "هذا كلام القاضي وكذا قاله غيره من أصحابنا وغيرهم فنقلوا الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر في الشرع، وليس هذا الذي ذكرناه مخالفاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "من رأى في المنام فقد رآني"، فإن معنى الحديث أن رؤيته صحيحة وليست من أضغاث الأحلام وتلبس الشيطان ولكن لا يجوز إثبات حكم شرعي به لأن حالة النوم ليست حالة ضبط"^{٥٩٨}.

بناءً على ذلك يرى الشيخ التهانوي رحمته الله بأن الرؤيا ليست قابلة الاعتبار من قبيل التشريع والأحكام، ولا يُعتمد عليها كما يعتمد على الدليل الشرعي، فلا للسالك أن يسلك في العمل

^{٥٩٧} أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ط ٢ ، ١٤١٥هـ) المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد

وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، رقم ٦٧٤٢، ج ٧، ص ٢٤.

^{٥٩٨} أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١، ص ١١٥.

اعتماداً على ما ظهر له في المنام من غير استفسار عن شيخه، فيقول ﷺ: " قد كتب أهل الطريق (أي المشائخ الصوفية) في آداب الشيخ بأنه لما ظهر للمريد شيء يُلقن في منامه فلا يبدأ العمل به إلا أن يستفسر عن شيخه، وهذا الحديث خير شاهد على هذا الجانب الذي يصرح بهذه الحقيقة. كذلك لا ينبغي للمريد أن يظن بأنه قد بلغ حدا الانكشاف أكثر مما يبلغ شيخه بسبب أن له مشاهد قد طلعت له في الرؤيا والمنام، رغم أنه أمكن ذلك، ولكنه لا ينبغي له أن ينخدع بنفسه أنه أرفع منزلاً عن شيخه بسبب هكذا المنام، لأن الرؤيا ليست معياراً للأفضلية في الدين، وذلك لأنه كما سبق من قبل بأن الرؤيا الصادقة ليست من خصوصيات الأنبياء والأولياء فقط، بل هي تعم بين سائر الناس من الأنبياء والأولياء والصادقين حتى من الكفرة والفجرة، واعلم أن هكذا الزعم لا يأتي للمريد من النفع غير الضرر والمهلك، فينبغي له أن يعرف أنه من فضل صحبة شيخه ومن برسته، ويعرف بأن شيخه وسيلة لوصول إلى هذه الدرجة، ويتيقن أن شيخه أعلم منه في تعبير هذه الرؤيا فيناسب له أن يُخبر شيخه ويشاور معه في هذه النسبة أولاً"^{٥٩٩}.

المطلب الثاني

الأحاديث الواردة في فضائل التصوف

الفضائل:

كما هو معروف لدينا أن الفضائل هي جمع الفضيلة، أي الدرجة الرفيعة في حسن الخلق والسيره، وفضيلة الشيء مزيته، ولكن المراد في هذا المجال البشارة والفوائد التي وردت في بعض النصوص القرآنية والسنية على الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، فأراد الشيخ التهانوي بلفظ الفضائل هنا: البشارة التي وردت في القرآن والسنة من حيث المدح على الصالحين والمتزكين نفوسهم، كما يقول ﷺ: " والبشارة التي وردت في القرآن والسنة على هذه الغاية أي على الأخلاق والصفات الحميدة هي تليق أن تُعبرها بـ(الفضائل)"^{٦٠٠}.

^{٥٩٩} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ١٥٣.

^{٦٠٠} المصدر السابق، ص ٥٣.

الأحاديث الواردة في الفضائل:

لما أن هذا الموضوع قد تمكن في النصوص الإسلامية مكانة كبيرة وواسعة، واشتهر بين الناس عالماً ومتعلماً وعواماً، من أجل ذلك ما كان يحتاج إلى التفصيل والتطبيب من جديد، ولذلك نرى أنه ﷺ لم يتطرق إلى تطويل هذا الموضوع بجمع الأحاديث الكثيرة، التي لا تأتي بالفوائد الجديدة إلا التفصيل فقط، فاكتمني بجمع عدد قليل من الأحاديث التي لم تشتهر بين الناس من حيث الدليل في هذا الجانب، و لكنّ كلها تخبر عن درجات رفيعة للأولياء والمتصوفين ومكانتهم العالية عند الله ورسوله، وبجملتها يبلغ عددها حوالي ثمانية أحاديث، ويليك بعض الأحاديث نموذجاً.

الحديث الشريف: ٢٨ / ١٥: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَجَبَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ». (رواه مالك) ^{٦٠١}

تخريج الحديث: أخرجه إمام مالك من طريق أبي حازم بن دينار عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ^{٦٠٢}. وأيضاً أخرجه إمام أحمد في مسنده، من نفس الطريق ^{٦٠٣}.

الحكم عليه: هذا حديث صحيح، صحّحه أئمة الحديث، وعلماء الحديث تلقوه بالقبول وسطروه ولم يضعفوه، كما قال الحاكم في (المستدرک علی الصحیحین): "هذا حديث صحيح الإسناد على

^{٦٠١} ذكره الشيخ برقمه الخاص ١٥، نقلاً عن إمام مالك. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٧٤.

^{٦٠٢} راجع: أنس بن مالك (ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) موطأ الإمام مالك. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الإمارات: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، دبي: باب ما جاء في المتحابين في الله، جامع ما جاء في الطعام والشراب، رقم ٣٥٠٧، ج ٥، ص ١٣٥١.

^{٦٠٣} راجع: أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، رقم ٢٢٠٣٠، ج ٣٦، ص ٣٥٩.

و أبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان للبيهقي، قصة إبراهيم في المعانقة في الثالث والثلاثين من التاريخ، رقم ٨٩٩٢، ج ٦، ص ٤٨٣.

وأبا زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، رياض الصالحين، ج ١، ص ٢٤٤.

ومحمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مستدرک الحاكم علی الصحیحین، كتاب البر والصلة، رقم ٧٣١٤، ج ٤، ص ١٨٦.

شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد جمع أبو إدريس بإسناد صحيح بين معاذ وعباد بن الصامت في هذا المتن^{٦٠٤}، وقال الإمام الذهبي في - التلخيص -: "صحيح على شرط البخاري ومسلم"^{٦٠٥}، وقال الزرقاني في - شرح الموطأ- وقال ابن عبد البر: "هذا إسناد صحيح وفيه لقاء أبي إدريس لمعاذ"^{٦٠٦}، وكذلك يقول شعيب الأرنؤوط في (تعليق مسند أحمد): "حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير إسحاق بن عيسى فمن رجال مسلم"^{٦٠٧}.

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: لا شك أن هذا الحديث عمدة في باب فضل الأولياء وأحباء الله الذين يتحابون بعضهم بعضا و يجتمعون حبا لله ويتفرغون مع أحبائهم في عبادة الله من الأذكار والقيام، والركوع والسجود، ويلتقون بعضهم بعضا لله ويفترقون بعضهم عن بعض لله واحدة، وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة كلها تدل على فضل الأولياء ورفع شأنهم عند الله كما أخرجه إمام مسلم في صحيحه عن إبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي"^{٦٠٨}، وكذلك من أمثاله، الذي أخرجه إمام أحمد في مسنده عن طريق أبي إدريس الخولاني عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حقت محبتي للمتحابين في، حقت محبتي للمتواصين في، حقت محبتي للمتبادلين في. المتحابون في على منابر من نور، يغطهم بمكانتهم النبيون والصديقون والشهداء"^{٦٠٩}، ف نعلم من هذا الحديث القدسي أن هؤلاء المتحابين في الله يدفعهم هذا الحب إلى أن تكون لهم مجالس مفيدة نافعة مثمرة تحوي من كل بستان إيماني زهرة ذات رائحة طيبة من ذكر

^{٦٠٤} محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مستدرک الحاكم على الصحيحين، كتاب البر والصلة، رقم ٧٣١٤، ج ٤، ص ١٨٦.

^{٦٠٥} المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨٦.

^{٦٠٦} أنظر: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري (ط ١)، سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، كويت: مكتبة الحلواني، ج ٦، ص ٥٥١.

^{٦٠٧} أنظر: أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٣٣.

^{٦٠٨} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم ٣٧- (٢٥٦٦)، ص ١١٢٧.

^{٦٠٩} راجع: أحمد ابن حنبل الشيباني، مسند أحمد، رقم ٢٢٠٠٢، ج ٣٦، ص ٣٢٧.

الله ودروس العلم ودراسة أحوالهم وقد يرتقي هذا الحال إلى خارجهم فيتباحثون في هموم الناس ومحاولة مساعدتهم والسعي في مصالحهم لأنهم يتجالسون في الله " والمتجالسين في " كما يدفعهم الشوق إلى تلك الجلسات المباركة إلي تكرارها والحرص عليها وبهذا يتم التزاور بينهم " والمتزاورين في " وفي تزاورهم هذا يبحثون أحوالهم فيشعر كل أخ بأخيه فإذا ما أحس أن أخاه محتاجاً سارع في سد خلته بالبذل والعطاء " والمتباذلين في " إن حال الصفاء الروحي الذي جمع بين هؤلاء السعداء نمت فيهم جانب الاحساس العالي والشفافية النيرة حيث يشعر الأخ بحال أخيه دون أن يسمع منه، إنهم كما أخبرنا المعصوم عليه السلام: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"^{٦١٠}، وهذا هو نموذج الحب في الله في نظر الإسلام وعلمائه من المحدثين والفقهاء والمتصوفين.

وجه الترابط بين نظريتي الحديث والتصوف في هذا الجانب: يقول الشيخ التهانوي رحمته الله في هذه النسبة: "إن هذا الحديث واضح الاستدلال في فضل المتصوفين المعتدلين من أهل الحق، لأن الأوصاف المذكورة في الحديث أيضاً يُشاهد بأكملها في هؤلاء الرجال (الصوفية)، ومن لا يعرف عن شدة علاقة الحب بين الشيخ والمريد وبين إخوانهم السالكين فيما بينهم، وإيثارهم النفسي والمالي لإخوانهم في الدين ولو كان بهم خصاصة؟ حتى يقدمون أموالهم وأنفسهم في خدمة محبين الله من غير تفكر وتدبر، وهم يسافرون مسافة بعيدة لزيارة إخوانهم ويعبتون عبءاً كبيراً في هذه اللقاءات، وهم نموذج حي حق النموذج في هذا الجانب، وهكذا الحب لا يمكن إلا في الله فقط، الذي ينذر في مجالات أخرى، بل يفقد نموذجه في غيرهم"^{٦١١}.

ومن هنا حديث آخر في فضل الأولياء والمتصوفين مع تحديد أحوالهم المتغايرة عن الآخرين من الناس، رغم أن هذه الأحوال تعتبرها مذمومة عند عامة الناس ولكنها محمود عند الله، وذلك لأن الله لا ينظر إلى أحوالنا الظاهرية وإنما ينظر إلى قلوبنا وما فيها من التقوى والفضائل، فيليك هذا الحديث.

^{٦١٠} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم

المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٦٦ - (٦٥٨٧)، ص ١١٣٠.

^{٦١١} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأثيقة، ص ٧٤.

الحديث الشريف: ٢٩/١٩٦ : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَمَ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » (أخرجه الترمذي) ^{٦١٢} .

تخريج الحديث: أخرجه الإمام الترمذي في سننه من طريق جعفر بن سليمان عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه ^{٦١٣} .

قلت: وأيضا أخرجه الحاكم في "المستدرک" من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن عزيز الأيلي إملاء علي عن سلامة بن روح عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه ^{٦١٤} .

الحكم عليه: الحديث صحيح، ولم أجد أحدا من المحدثين قد تكلم على ضعفه، بل هم صحّحوه، كما صحّحه الإمام الترمذي، إذ يقول: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" ^{٦١٥}، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه الشيخان" ^{٦١٦} .

التحليل البياني ووجه الاستدلال بالحديث: لما كان الحديث السابق في فضل الأولياء عامة مع ذكر عدة أوصافهم التي تعم بين المتصوفين وغيرهم، فهذا الحديث في فضل المتصوفين مع تحديد أحوالهم بذكر أوصافهم الخاصة التي معروفة لدى الناس من غير خفاء، كما نرى أن المحدثين ذكره في مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه الذي كان معروفا بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بزهده في الدنيا ورغبته عنها، الذي كان يعيش بحياته الروحية، وما كان يلتفت إلى رفاهية الحياة وزينتها،

^{٦١٢} ذكره الشيخ التهانوي برقمه الخاص ١٩٦، نقلا عن إمام ترمذي. أنظر: أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من

السنة الأنيقة، ص ٢٥١.

^{٦١٣} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب

مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه، رقم ٣٨٥٤، ص ٢٠٤٧.

^{٦١٤} راجع: محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مستدرک الحاكم على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة

رضي الله تعالى عنهم، في ذكر البراء بن مالك الأنصاري أخ أنس بن مالك رضي الله عنهم، رقم ٥٢٧٤، ج ٣، ص

٣٣١.

^{٦١٥} راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث ٣٨٥٤، ص ٢٠٤٧.

^{٦١٦} محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مستدرک الحاكم على الصحيحين، ج ٣، ص ٣٣١.

وهذا الحال بما أشار إليه النبي ﷺ، في هذا الحديث لما قال: «كم من أشعث» أي متفرق شعر الرأس «أعبر» أي مغبر البدن «ذي طمرين» بكسر فسكون أي صاحب ثوبين خلقين «لا يؤبه له» بضم الياء وسكون واو وقد يهمز وفتح موحدة وبهاء أي لا يبالي به ولا يلتفت إليه يقال ما وبهت له بفتح الباء وكسرها وبهاء وبها بالسكون والفتح وأصل الواو الهمزة، وقوله: «لو أقسم على الله لأبره» أي لأمضاه على الصدق وجعله بارا في الخلق «منهم البراء بن مالك» فيه فضيلة ظاهرة للبراء بن مالك^{٦١٧}.

قلت: نستفيد من هذا الحديث بعض الأمور المهمة منها: أن الزهادة في الحياة والإعراض عن المادة وزخارفها لا يعتبره من الرهبانية، كما فهمه بعض الناس، وذلك لأن كثيرا من أصحاب الرسول ﷺ من حُبَّ إليهم الزهد والرغبة عن الدنيا، وكانوا متعويدين بحياة قليلة الزاد والمتاع، وما كانوا مغترين بزينة حياة الدنيا وتفاحرها، وهذا يمكن أن نجد نماذجه من حياة أبي ذر الغفاري، وجلييب وعمار وبلال و صهيب وبراء بن مالك وغيرهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ثانياً: إن المتصوفين ما كانوا مبدعين بالزهد والإعراض عن متاع الدنيا بل هم آخذين نماذجه من حياة الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وأسلاف هذه الأمة، وهو ينكشف لنا خلال مطالعة الكتب المصنفة في حياة الزهاد في الأمة الإسلامية.

ثالثاً: إن الإسلام يعلمنا باحترام الآخرين مع اختلاف آرائهم وتنوع عاداتهم لما كانت هذه الأفكار والعادات متصفة بالقيم الإسلامية، فلذا نرى كيف كان أصحاب الرسول ﷺ في توادهم وترافقهم وتراحمهم واحترامهم فيما بينهم، رغم أنهم كانوا مختلفين قوماً وجنسا ودولةً، الذين ما كانوا متحدين في تعايش الحياة والعادات والثقافات، ولكنهم كانوا يعترفون بعضهم بعضاً بحرمتهم وشأنهم مع اختلافهم في الآراء والأفكار والعادات، ولا ينكرون على الآخرين بالشدة، ولا يسخرون ولا يذنون ولا يحقرون شئون الآخرين، لعل هذا الحديث نموذج في هذا الباب، وذلك

^{٦١٧} أنظر: أبا العلام محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ج ١٠، ص

لأن الرسول ﷺ يعترف خلال هذا الحديث البراء بن مالك وأحواله الغريبة ويمدحه عليه، كأنه يقول ﷺ لأصحابه لا تحقروه بسبب حياته الخالية من تفاخر الحياة وزينتها، لأن الله يحب لصفاء قلبه وعلو إيمانه، رغم أنه متفرق شعر رأسه ومغبر بدنه ولابس ثوب الثقيل، الذي لا يقام أمام الناس ولكن له مقام عند الله. فعلينا أن نتبته عند النقد على الآخرين من إخواننا المسلمين لسبب تغاير مظاهره من مظاهرنا وأسلوب حياته من أسلوب حياتنا، ولا يعاب على الرجل لأنه لا يتعود بأسلوب الحياة العصرية، أو أنه بعيد عن الحضارة اليومية و هو ليس متعود بالحياة الحديثة والجديدة، بل أهم ما فهمت عند تقييم الناس هو دينه وأخلاقه وتقواه، فلا ننظر إلى الصور والمادة بل ننظر إلى الروح والقيم، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"^{٦١٨}.

حقيقة الترابط في هذا المجال: الحاصل بما استفدناها من أقوال عامة العلماء، وخاصة من شروحات علماء الحديث لا تباين ولا تعارض أفكار الصوفية المعتدلة، التي يتبين لنا خلال ما قاله الشيخ التهانوي في هذه النسبة، لما يقول: " هذا الحديث صريح الدلالة على فضل هذا القوم حيث أغلبيتهم متصفين بحالة (متفرق شعر الرأس، و مغبر البدن، ولابس ثوبين خلقين، وغيرها)، ولكنها ليست من شروط الولاية كما يزعمه بعض الجهلاء الصوفية، بل إنما المطلوب أن هذه الحالة لا تنافي عن الكمال و درجة الولاية كما ينفرونها بعض أهل الكبرياء والجبروت ويحقرون الأولياء بسبب هذه الحالة"^{٦١٩}.

هكذا كان السرد الإجمالي على عدد من مسائل التصوف الإسلامي بما ورد في كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" التي تضمن على كثير من الجزئيات لهذا الفن، وكل الجزئيات تثبت بكثير من السنة النبوية الشريفة، ومن هنا يرتبط التصوف مع السنة النبوية مع الدليل، وعدد هذه الأحاديث تتفاوت من حيث الموضوع، لأنه ﷺ قد أورد هذه الأحاديث في كل الموضوع قدرما احتاج إليها، فبعض من هذه الموضوعات تكفي بقلة الدليل لأنها واضحة مكانتها في الإسلام لدى

^{٦١٨} راجع: أبا الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، عن أبي هريرة ؓ، كتاب البر والصلة والآداب،

باب تحريم ظلم المسلم وحذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم [٦٥٤٣] ٣٥- (.....)، ص ١١٢٧.

^{٦١٩} أشرف علي التهانوي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة، ص ٢٥١-٢٥٢.

الجمهور من المسلمين، ولذلك غنية عن التفصيل والتطنيب، فحينذاك قد اكتفى رحمه الله بقليل من الحديث استدلالاً، و لكن بعضاً منها تحتاج إلى التطنيب والتفصيل بالدلائل والبراهين لأنها من المشاهجات لدى الناس التي غير واضحة حقيقتها أمام المسلمين عامة وخاصة، فمن هنا مال الشيخ التهانوي رَحْمَةُ اللهِ فِي إِثْبَاتِهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ اسْتِدْلَالاً، وهكذا تبلغ عدد جميع هذه الأحاديث ٣٣٠ حديثاً.

فالباحث اكتفى من هؤلاء الأحاديث قدر ما تكفيه لغايته، وهي إثبات الترابط بين التصوف الإسلامي والحديث النبوي، لأن هذه العجلة السريعة لاتباح للباحث أن يستوعب البحث بجميع الأحاديث الذي يجاوز حد رسالة الماجستير، وأيضاً موضوع الرسالة لا يدعي إلى ذلك بل إنما يدعي إلى أن ينصب الترابط بين التصوف الإسلامي والحديث النبوي وذلك يمكن بقدر الكفاية من الأحاديث.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، خير البريات، وعلى آله السادات، ومن تبعه بإحسان، ورضي الله عنهم من الأئمة القادات. أما بعد:

أكرر شكري وعرفاني لكل من أعانني في رحلتي العلمية هذه، بعد أن من الله تعالى عليّ بإكمال هذا البحث وخروجه إلى حيز الوجود. أختتم عملي بأهم النتائج التي انتهى إليها البحث وبعض الإحصاءات، وهي:

١- إن أشرف علي التهانوي رحمته الله كان وارثاً حقّ وراثته لولي الله الدهلوي الذي تأخر مواعده عن عصر الدهلوي حوالي القرنين الطويلين ولكنه أعاد منهج الدهلوي كما تركه. والذي كان نجماً ساطعاً في سماء العلم والمعرفة، وتلاً نوراً وضأاً في مجال حركة الإصلاح والتجديد، وقام بالثورة على الجمود والتقليد الأعمى، وكان نموذجاً حياً لوسطية المنهج في شبه القارة الهندية ابتعاداً عن كل نوع من الإفراط والتفريط لاسيما في مجال التزكية والاحسان، فجمع حوله خلق كثير في هذه الحركة التجديدية والوسطية.

٢- كتابه المشهور " حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة " خير دال على منهجه التوسط، وقد أمكن بها الترابط بين منهجي الحديث والتصوف بعد صراع شديد ونزاع طويل عبر العصور البعيدة.

٣- وهذا الكتاب يشتمل على أحاديث يبلغ عددها ٣٣٠ حديثاً، أغلبيتها قد أكد أئمة الحديث بصحتها وأخرجها الأئمة الستة، وبعضها منها أخرجها أحمد في مسنده، والبيهقي في شعب الإيمان، والطبراني في معجمه، ولكن بعد البحث اطلع الباحث أن عدداً من هذه الأحاديث لا يخلو من الضعف بل الموضوع ولو قل هذا العدد.

٤- لا يكتب الشيخ أحاديثه من مصادرها الأصلية إلا عددًا معدودًا، بل يعتمد على عدة كتب فرعية مشهورة في زمنه رحمته الله وهي: التيسير، ومشكاة المصابيح، وهما معظم ما أخذ منهما، وقليلاً ما أخذ من الحصن الحصين، والرحمة المهداة، ومرقاة المفاتيح، والحرز الثمين للحصن الحصين، والمقاصد الحسنة وغيرها.

- ٥- أهم مسائل التصوف التي وردت في هذا الكتاب هي بكاملها ثلاث عشرة مسألة، وهي من حيث الترتيب الأخلاق، الأحوال، الأشغال، التعليمات، العلامات، الفضائل، العادات، الرسوم، المسائل، الأقوال، التوجيهات، الإصلاح و المتفرقات.
- ٦- استخدام الشيخ الدليل النقلي عند وضوح الدلالة مكتفيا بالاشارة إلى متن الحديث فقط، والدليل العقلي في إثبات المسائل الصوفية الدقيقة التي ليست صريحة في المتن، مما يظهر براعته في قوة الاستنباط العجيبة، والنظرة الثاقبة في فهم دقائق النصوص والمراد منها.
- ٧- وفي شرح الحديث لم يذكر الشيخ بآراء العلماء وإنما اختصر على رأيه، وذلك لا يدل على أنه اعتمد في شرح الحديث على رأيه فقط، بل أنه أراد بذلك الاختصار ابتعادا عن التفصيل والتطبيب.
- ٨- أكبر الحقيقة التي تبرز خلال هذه الرسالة هو اعتداله في نهج التصوف من غير إفراط وتفريط، والذي يدل على وسطية منهجه بين التصوف والحديث، ومن أجل ذلك قد تمكن ﷺ على الترابط بين هذين المهمتين الجليلتين الذي كان من أهم متطلبات عصره ﷺ.
- ٩- ولاحظ الباحث خلال بحثه و دراسته في استدلالات الشيخ بالأحاديث على مسائل التصوف، رغم أن معظم استدلالاته صالحة لأن تكون حجة إلى حد ما، إلا أن بعضها لا تخلو من تكلف وتطويع النصوص لمسائل التصوف.

التوصية:

بعد هذا الجهد المتواضع الذي بذله الباحث، وفي ضوء اطلاعه على كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، وما توصل إليه من نتائج وملاحظات، يقترح الباحث بما يلي:

١- القيام بتكميل هذه الدراسة فيما بقي من الأحاديث في كتاب "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة"، وقد عمل الباحث على تسعة وعشرين حديثاً فقط، وبقي كثير منها، وكذلك أحاديث كتبه الأخرى في هذا الموضوع، مثل كتاب "النكت الدقيقة مما يتعلق بالحقيقة" و"التشرف بمعرفة أحاديث التصوف" وغيرهما.

٢- القيام بجمع مؤلفات الشيخ التي لها علاقة خاصة بالحديث والتصوف.

٣- يتضح من خلال البحث أنه ينبغي للمسلمين عامة وللعلماء خاصة باتباع وسطية السبيل في اتباع الدين، والابتعاد عن الغلو والفساد، والإعراض عن التفريق بين الأمة الإسلامية بالفرق والمذاهب، لأنه لا اعتبار باتباع هذه المذاهب والفرق، بل إنما الاعتبار باتباع الله ورسوله ﷺ، فلذلك يخبرنا النبي ﷺ بقوله: "تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا ومن هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي" ٦٢٠.

٤- تربية طلاب الدين في المراكز الإسلامية على وسطية الإسلام التي ميز الله بها هذه الأمة، فيتميز طلابنا وعلماءنا من الآخرين بهذه الصفة العظيمة، حتى يتعدوا عن العصبية الدينية التي تؤدي إلى التفريق بين الأمة.

٦٢٠ راجع: أبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم ٢٦٤١، ص ١٩١٨. وقال في آخره: "هذا حديث حسن غريب مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه".

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: كتب الحديث وعلومه:

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ط ٣، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) صحيح البخاري.
ترتيب : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ط ٣، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) صحيح مسلم.
ترتيب : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام.

أبوداود، سليمان بن الأشعث السُّجِسْتَانِي (ط ٣، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) سنن أبي داود.
ترتيب : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ط ٣، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) جامع الترمذي.
ترتيب : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (ط ٣، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) سنن النسائي.
ترتيب : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ط ٣، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) سنن ابن ماجه.
ترتيب : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام.

مالك، بن أنس (ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) الموطأ. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، دبي:
مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان.

ابن حنبل، أحمد بن حنبل (ط ٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) مسند أحمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن حبان، أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي (ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة.

الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير (ط ٢، ١٤٢٤هـ) مسند الحميدي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ط ١، ١٤١٠هـ) شعب الإيمان. تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (د.ط، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) سنن البيهقي الصغرى. تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المدينة المنورة: مكتبة الدار.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ط ٣، سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م) الأدب المفرد. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار البشائر الإسلامية.

ابن المبارك، عبد الله بن المبارك (ط ٣، ٢٠٠٢م) الزهد وويله الرقائق. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م) المعجم الكبير. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ط ٢، ١٤١٥هـ) المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة: دار الحرمين.

ابن الأثير، مجد الدين أبا السعادات الجزري (ط ١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م) جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق: عبد القادر الأرئوط، كويت: مكتبة الحلواني.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (د.ط، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) تهذيب الآثار. تحقيق: علي رضا بن عبد الله، دمشق: دار المأمون للتراث.

الجزري، أبو السعادات المبارك (ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية.

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد (ط ١، ١٤٠٨هـ، / ١٩٨٧م) شرح مشكل الآثار. تحقيق: شعيب الأرئوط، بيروت: مؤسسة الرسالة.

العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي (ط ٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. بيروت: دار الكتب العلمية.

الترهتي، محسن بن يحيى (ط ٣، ١٩٩٨م) اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني. الهند: مكتبة هندية.

العراقي، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (ط ٣، ١٤٢١هـ) تخریج أحاديث الإحياء. الإسكندرية: مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة.

محمد بن علي بن الحسن (ط ١، ١٩٩٢م) نواذر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. تحقيق: عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل.

ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي (ط ١، سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير. تحقيق: مصطفى أبو الغيط وزملائه، الرياض: دار الهجرة للنشر والتوزيع.

ابن بطلال، أبو الحسن علي بن خلف (ط ٢، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) شرح صحيح البخاري. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد.

ابن رجب، زين الدين أبو الفرج ابن رجب عبد الرحمن (ط ٢، ١٤٢٢هـ) فتح الباري. تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الدمام: دار ابن الجوزي.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ط ١، ١٣٧٩هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار المعرفة.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري (ط ٢، ١٣٩٢هـ) شرح النووي على صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري (ط ٢، ١٣٩٢هـ) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

البعوي، الحسين بن مسعود (ط ٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) شرح السنة. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: المكتب الإسلامي.

الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري (ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩٠) المستدرك على
الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، بيروت: دار الكتب العلمية.

المناعي، زين الدين عبد الرؤوف (ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) فيض القدير شرح الجامع
الصغير. بيروت: دار الكتب العلمية.

المناعي، زين الدين عبد الرؤوف (ط ٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) التيسير بشرح الجامع الصغير.
الرياض: مكتبة الإمام الشافعي.

الخطيب التبريزي، محمد بن عبد الله (ط ٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) مشكاة المصابيح. تحقيق:
محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي.

العظيم آبادي، محمد شمس الحق أبو الطيب (ط ٢، ١٤١٥هـ) عون المعبود شرح سنن أبي
داود. بيروت: دار الكتب العلمية.

المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (د.ط، ١٤٢٣) تحفة الأحمدي بشرح
جامع الترمذي. بيروت: دار الكتب العلمية.

المباركفوري، أبو الحسن عبيد الله بن حسام الدين الرحماني (ط ٣، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)
مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الهند: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء،
الجامعة السلفية.

الكندهلوي، محمد زكريا (ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) أوجز المسالك إلى موطأ مالك.
دمشق: دار القلم.

التهانوي، ظفر أحمد العثماني (ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م) إعلاء السنن. بيروت: دار الفكر.

التهانوي، ظفر أحمد العثماني (ط ٦، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) قواعد في علوم الحديث. القاهرة: دارالسلام.

الألباني، ناصر الدين (د.ط، د.ت) صحيح وضعيف سنن الترمذي، الإسكندرية: من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة.

الألباني، ناصر الدين (ط ٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٨م) صحيح ابن ماجه. للشيخ الألباني، تعليق: زهير الشاويش، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

الألباني، محمد ناصر الدين (ط ٥، ٢٠٠٣م) صحيح الترغيب والترهيب، الرياض: مكتبة المعارف.

ثانيا: كتب التفسير وعلومه:

القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الخزرجي (د.ط، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: هشام سميح البخاري، الرياض: دار عالم الكتب.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ط ٢، ١٩٩٩م) النكت والعيون. تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت: دار الكتب العلمية.

البنوري، محمد يوسف (ط ١، ١٣٩٦هـ) يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن. كراتشي: مجلس الدعوة والتحقيق.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد (ط ١ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) تفسير الخازن.
بيروت: دار الفكر

عز الدين، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ط ١ ، سنة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م) تفسير العز
بن عبد السلام. تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، بيروت: دار ابن حزم

إبن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي (ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) تفسير القرآن العظيم.
تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.

ثالثا: كتب الفقه والفتاوى:

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ط ٣ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م) مجموع الفتاوى. تحقيق: أنور
الباز وعامر الجزار، المنصورة: دار الوفاء.

المظاهري، محمد زيد الندوي (ط ١ ، ١٤١١ هـ) آداب الإفتاء والإستفتاء. الهند: مكتبه
إفادات أشرفية بانده.

الألباني، محمد ناصر الدين (ط ٣ ، ١٤٠٩ هـ) تمام المنة في التعليق على فقه السنة. مدينة
المنورة: المكتبة الإسلامية دار الراية للنشر.

رابعا: كتب العقائد والأفكار:

الكلاباذي، أبوبكر محمد (د. ط ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) التعريف لمذهب أهل التصوف.
تحقيق: محمود أمين النووي، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.

السراج الطوسي، أبو نصر عبد الله بن علي (ط ٢، ١٩٦٣م) **اللمع في التصوف**. تحقيق: رنولد الن نيكلسون، ليدن: مطبعة بريل.

المنادي، زين الدين عبد الرؤوف (ط ١، سنة ١٤١٠هـ) **التوقيف على مهمات التعاريف**. تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت: دار الفكر المعاصر.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ط ١، ١٤٠٥) **التعريفات**. تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي.

الكلاباذي، أبوبكر محمد (د. ط، ١٤٠٠هـ) **التعرف لمذهب أهل التصوف**. بيروت: دار الكتب العلمية.

الشرطي، مصطفى البيروتي (ط ١، ١٤١٨هـ) **كشف الأسرار لتنوير الأفكار**. بيروت: مطبعة جريدة.

الندوي، أبو الحسن علي (ط ١، د.ت) **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية**. كويت: دار القلم.

الندوي، عبد الباري (ط ١، ١٩٦٣) **بين التصوف والحياة**. دمشق: مكتبة دار الفتح.

جاسم، ليث سعود (ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) **الرعاية والندامات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها**. كوالالمبور: دارالتجديد للطباعة والنشر والترجمة.

أحمد المعلم (ط ١، ١٤١٢هـ) زيارة قبر هود عليه السلام وما فيها من ضلالات ومنكرات.
الرياض: مكتبة المعارف.

خامسا: كتب التاريخ والتراجم:

الندوي، أبو الحسن علي (ط ٣، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) رجال الفكر والدعوة في الإسلام.
الكويت: دار القلم.

الحسيني، عبد الحي (ط ١، ١٣٩٦هـ) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر. كراتشي:
نور محمد كارخانه تجارت كتب.

الندوي، محمد رحمة الله (ط ١، ٢٠٠٦م) أشرف علي التهانوي. بيروت: دار القلم.

الدريابادي، عبد الماجد (ط ١، ١٣٧٢هـ) المعاصرون. الهند: مكتبة التهانوي ديوبند.

التهانوي، ظفر أحمد (ط ١، ١٩٧٨م) تذكرة الظفر. الهند: مكتبة التهانوي.

المجذوب، خواجه عزيزل الحسن (ط ١، ١٤٠٦هـ) أشرف السوانح. ملتان: التأليفات
الأشرفية.

محمد الطيب القاسمي (ط ٣، ٢٠٠٢) تاريخ جامعة ديوبند، "بالأردية". الهند: مكتبة دار العلوم
ديوبند.

أكبر شاه البخاري (ط ١، ٢٠٠٥م) من قوافل التهانوي. كراتشي: مطبع إدارة المعارف.

الندوي، أبو الحسن علي الحسيني (د.ط، د.ت) الدعوة الإسلامية في الهند وتطويراتها. لكنو:
المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج (د.ط. ٤٠٦ هـ) الضعفاء والمتروكين.
تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية.

سادسا: المصادر من مجالات والخطب:

مجلة ثقافة الهند (يونيو، ١٩٩٥م) نيو دلهي.

مقالات الكوثري (١٣٧٢هـ) القاهرة: مطبعة الأنوار.

مجلة الصديق (رجب، ١٣٧٣هـ) ملتان.

محمد الغزالي (١٩-٢١ يناير ٢٠٠٩) في مؤتمر "اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر
الإسلامي الحديث بعنوان: رواد الإصلاح الديني في شبه القارة الهندية. الإسكندرية:
مكتبة الإسكندرية.

سابعا: المصادر من المعاجم واللغات

ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ط ١، د. ت) لسان العرب. بيروت: دار صادر.

جماعة من كبار اللغويين العرب (د. ط، ١٩٩٩م/١٤٢٠هـ)، المعجم العربي الأساسي،
لاروس: المنظمة العربية والثقافة والعلوم.

أحمد الزيات وزملائه (ط ٣، ١٩٩٧م) المعجم الوسيط. عدد الأجزاء ٢، تحقيق: مجمع اللغة
العربية، بيروت: دار الدعوة.

ابن المرسى، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ط ٣، ٢٠٠٠م) المحكم والمحيط الأعظم.
تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت: دار الكتب العلمية.

ثامنا: المصادر الأجنبية:

التهانوي، أشرف على (ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٢م) حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة. تحقيق:
محمد عفان المنصور فوري، "باللغة الأردنية"، الهند: مكتبة الاتحاد.

داكر، محمد عبد الحي و ميمن، عبد الله (ط ١، شهر رمضان، ١٤٠٧ هـ) فهرست لتأليفات
حكيم الأمة. "باللغة الأردنية"، كراتشي: مكتبة دار العلوم.

غياث الدين أحمد (ط ٢، ٢٠٠٦م) أشرف جوريت. "باللغة البنجالية" داكا: مكتبة الأشرف.

الأعظمي، نور محمد (ط ١، ١٣٧٢هـ/١٩٦٥م) تاريخ علم الحديث وتدوينه. "باللغة
البنجالية" داكا: المكتبة الإمدادية.

الرزوي، سيد محبوب (ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) تاريخ دار العلوم ديوبند. المنقل إلى اللغة
البنجالية: أبو الفتاح محمد يحيى، داكا: المؤسسة الإسلامية بنجلاديش.

محمد تقى العثماني (ط ١، ٢٠٠٦م) الشيخ التهانوي وإصلاحه السياسي. التحويل إلى اللغة البنجالية: محمد زين العابدين، داكا: مكتبة الأختار.

Khwaja, Muhammad Ali (First Edition, ١٩٩٩) **Maulana Ashraf Ali Thanvi, His viws on religions and moral philosophy and tasawwuf** . New Delhi: Kitab Bhavan.

تاسعا: المصادر من البحوث والرسائل الجامعية:

زهر الدين بن ناوي (٢٠٠٧م) أحاديث رسالة "حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة" دراسة تحليلية نقدية. رسالة ماجستير، كولالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.